

43

الاسلام في الصين

تأليف

د . فهمى هويدى

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت

صدرت السلسلة في شعبان 1998 بإشراف أحمد مشاري العدواني 1923 ـ 1990

43

الاسلام في الصين

تأليف

فهمى هويدى



المحتوى

المحتوى
المحتوى
المحتوى

تقديم

نقد ذاتي

أريد في البداية أن أسجل مجموعة من الملاحظات على هذا الكتاب. وهي ملاحظات قد تعد من قبيل الاعتراف وتخليص الضمير، وقد تعد نوعا من النقد الذاتي. كما أنها قد تصنف باعتبارها دفاعا مبكرا عن النفس!

ربما لهذه الاعتبارات في مجموعها خطر لي هذا الخاطر، أن أمثل أمام القارئ على الصفحات الأولى من الكتاب، لأعترف بأوجه القصور، التي تمنيت أن أعالجها ولم أستطع، ومازلت أتمنى أن يتصدى غيري لعلاجها، ليقدم ما هو اكمل وأشمل.

أولى هذه الملاحظات: أن الكتاب لم يعط الصين، الحضرة والبلد، حقها. والإشارات التي وردت في مواضع مختلفة من فصوله إلى حضارة الصين وإنسانها الفريد ومجتمعها المثير تظل دون ما ينبغي أن يقدم به هذا البلد ذو الحضارة العظيمة. لقد أدى التركيز الذي حاولت أن أعطيه لموضوع المسلمين الصينيين إلى بعض الجور الذي لحق بالصين ذاتها. وكانت محاولة اجتزاء عناصر الموضوع والمعلومات الخاصة به، وفصلها عن موضوع الصين ككل، بمثابة جراحة عقلية دقيقة، بذلت جهدا كبيرا في محاولة إتمامها بأقل قدر

من الخسائر، ودون أن تخلف هذه الجراحة أي خلل في السياق، أو تشوهات في نسيج الكتاب.

ثانية هذه الملاحظات: أنني أشعر-برغم ذلك-أن موضوع المسلمين لم يوف حقه، وأن رحلة ملايين محدودة من المسلمين عبر 13 قرنا، ووسط بحر هائل من البشر ذوي طبيعة شديدة الخصوصية، هذه الرحلة تحتاج في التصدي لها إلى جهد يفوق طاقة فرد واحد، والى مساحة أضعاف أضعاف ما يمكن أن يحمله كتاب واحد. وإذا كنت قد حاولت أن أتغلب على عدم معرفتي باللغة الصينية بالاعتماد على عون أصدقاء صينيين ممن أثق في إخلاصهم وكفاءتهم، فإنني أعترف بأن شعوري بالعجز ظل مضاعفا، إذ أنني لم اكن فقط أمام واقع شديد التعقيد والغموض، يتعذر علي الإحاطة عمقا وعرضا، بل كنت أيضا أمام لغة تتسم بنفس القدر من التعقيد، مستعصية أيضا على الإحاطة. وقد حاولت أن أسجل هذا الاعتراف في الفصل الأول من الكتاب حينما قلت صادقا: إن الباحث في أعماق الصين يشعر بعد أن يقوم بجولته فيها، مهما طالت، بأن ما يجهله أكثر بكثير مما يعلمه، وأن ما أخفى أضعاف أضعاف ما ظهر، وأن غاية ما حصله أنه اغترف غرفة من بحر الحقيقة، وغرق في بحر الابتسام!

وإذا كان الجور على حق حضارة الصين مفهوما أو مبررا لأنه ليس موضوع الكتاب، فإنه قد لا يكون مقبولا أن يستمر التقصير والقصور في موضوع مسلمي الصين، الذي هو موضوع الكتاب. هذا صحيح، إذا كنت قد زعمت أنني سأقدم «القصة الكاملة» للمسلمين في الصين، وهو شرف لم أدعه. إذ أن غاية ما يمكن أن أقوله في هذا الصدد: إن الهدف من الكتاب هو «فتح ملف» مسلمي الصين، هو مجرد انتشال هذا الملف «الموجود المفقود» كما ذكرت في مدخل الكتاب، ليظهر للعيان وينجو من الغرق في بحر النسيان، وإزاحة أكوام التراب المكدسة فوقه. فإذا استطاع الكتاب أن يلفت النظر إلى هذه القضية فقد حقق غرضه. أما إذا ذهب الكتاب إلى محاولة قراءة بعض سطور أو صفحات ملف مسلمي الصين، قراءة من التاريخ أو من الواقع فان هذه المحاولة تظل بمثابة جهد متواضع في التعريف بما يحتويه ذلك الملف، يفتح الباب لإضافات الباحثين، الذين قد يعنيهم أمر المسلمين في تلك البلاد النائية.

ثالثة هذه الملاحظات: أن وقفات الكتاب أمام تاريخ المسلمين في الصين ربما طالت بعض الشيء، إلى حدود قد تبدو فها مملة في بعض الأحيان. ورغم أن حرصي على التفصيل كان قائما-شأن كل من يحاول أن يبرز معالم قضيته-فإنني حاولت أن أتجنب أن يبلغ ذلك التفصيل حد إثارة الملل عند القارئ. ولا ازعم. إن التوفيق قد حالف تلك المحاولة على طول الخط. وربما تحت تأثير الإحساس بشدة إهمال موضوع مسلمي الصين في الكتابات العربية الحديثة، كان رد الفعل عندي هو شدة التفصيل في عرض أحداثه.

لقد وجدت إشارات متناثرة لموضوع مسلمي الصين، وللعلاقات العربية الصينية، في بعض المراجع التاريخية العربية-وأكثرها قديم-وفي كتب بعض الباحثين الغربيين، وكان كل من هذه المراجع يركز على صفحة من تاريخ مسلمي الصين، أو على حدث بذاته في سياق آخر. ولأن الستار مسدل تماما على مسلمي الصين، إذ ليس هناك فيما أعلم كتاب لباحث عربي حول هذا الموضوع، فإنني حرصت على أن ألملم شتات هذه المعلومات لكي أضع أمام القارئ صورة وافية قدر الإمكان لماضي مسلمي الصين وحاضرهم.. من هنا جاء التفصيل، ومن هنا أيضا ربما وقعت في المحظور الذي اعترف به وانبه إليه.. وأرجو أن يغفره لي القارئ.

ومع ذلك فمازلت عند رأيي في أن كل هذا الجهد، وكل هذا التفصيل، لا يعدو كونه بعضا من سطور أو صفحات ملف مسلمي الصين خلال الثلاثة عشر قرنا الماضية.

رابعة هذه الملاحظات: أن أي كتابة غير صينية عن الصين لابد أن يخطئ صاحبها في كتابة أسماء المدن والشخصيات، لسبب بسيط هو شدة التعقيد والدقة والاختصار الذي تتميز به اللغة الصينية، التي هي في الأساس منطوقة ومسموعة، قبل أن تكون مكتوبة. فهي لغة ليس لها حروف ولا هجاء ولا نحو، ولا تنقسم إلى أفعال وأسماء وصفات، فكل كلمة قد تكون اسما أو فعلا أو صفة أو ظرفا، حسب سياقها وحسب طريقة نطقها. واللغة الصينية المنطوقة تحتوي على عدد يتراوح بين 300 و400 لفظ صوتي ذي مقطع واحد، وهذه المقاطع هي التي تستعمل في التعبير عن الأربعين ألف حرف المستخدمة في لغة الكتابة. لهذا السبب فان لكل واحد من تلك الألفاظ الصوتية «نغمات» مختلفة تتراوح بين 4 و 9، بحيث يختلف معنى

اللفظ ودلالته باختلاف طريقة نطقه والتغني به. وتوضح حركات الجسم وسياق الكلام هذه النغمات، وتجعل كل صوت يؤدي أغراضا متعددة. فحرف الباء مثلا قد يؤدي 69 معنى، كما أن للفظ شي 59 معنى، وللفظ كو 29 معنى.. وهكذا!

إن هذا التعقيد الشديد لابد أن يوقع غير الصيني في الخطأ، إذا ما أراد كتابة الكلمات الصينية بلغته. إذ كيف يمكن كتابة كلمة لا تعرف على وجهها الصحيح إلا بملاحظة النغم وحركة الجسم؟

وبالنسبة لي فقد كانت مشكلتي-أيضا-مضاعفة، إذ لم تكن حيرتي مقصورة على كتابة الكلمات الصينية كما هي الآن، ولكني أيضا عانيت من نفس الحيرة عند مقابلة الأسماء الصينية المذكورة في المراجع العربية بالصورة التي صارت عليها في اللغة الصينية. وعلى سبيل المثال، فان العاصمة الصينية الآن تذكر في المراجع العربية خان بالق أو خانبالي، وهي في الكتابات العربية والغربية «بكين»، بينما ينطقها الصينيون «بيجين».. وهكذا.

لقد حاولت جهدي أن أقلل من نسبة الخطأ في ذكر الأسماء، الأمر الذي دفعني إلى تكليف صديق صيني يجيد العربية بمراجعة أصول الكتاب. ومع ذلك، فإذا وقع قارئ حصيف على خطأ أفلت هنا أو هناك، فليعذر وليغفر.. فذلك «شر» يصعب تجنبه!

خامسة هذه الملاحظات: إن الكتاب يقف في نقطة وسط بين العمل الصحفي والبحث الأكاديمي. أي أنه قد يكون عملا صحفيا من الوزن الثقيل-إذا جاز التعبير-وبحثا أكاديميا من الوزن الخفيف. وربما بحكم طبيعة المهمة والمهنة استخلصت كثيرا حاستي السمع و«الشم» إلى جانب حاسة البصر، التي وظفت من أجل قراءة واقع المسلمين، مدنهم وشوارعهم وبيوتهم ووجوههم. وتلك «مراجع» أساسية عند المشتغلين بمهنة الصحافة، التي قد تعطي أهمية تعادل الكتب والمجلدات ومراجع الباحثين الأكاديميين.

وربما لهذا السبب لم اعن كثيرا بتسجيل «مراجع» الكتاب كاملة، ربما لأن بعضها يتعذر الإشارة إليه. وربما لأنني أغفلت عامدا ذكر «مراجعي» في مواضع أخرى، التزاما بقواعد الأمانة الصحفية. أما المطبوعات التي استفدت منها فائدة جمة فقد أشرت إلى كل منها في موضعه.

ما أريد أن أقوله أنه إذا عاب الكتاب نقص في التوثيق الواجب، فرجعه تلك «الوسطية» التي صاغته وأخرجته على نحو لا هو عمل صحفي بحت، ولا هو بحث أكاديمي خالص. وإذا أدى ذلك إلى أن الكتاب لم يحز رضا المشتغلين بالصحافة أو الباحثين الأكاديميين، فلعله يحوز رضا القارئ العادي، الذي يقف هو أيضا-مثلي في هذه المحاولة-بين هؤلاء وهؤلاء!

آخر هذه الملاحظات: أن جانبا من معلومات هذا الكتاب نشر في ثلاث حلقات متتالية بمجلة العربي، في أعداد نوفمبر وديسمبر 85 و يناير 1981، وذلك حق أسلم به للمجلة التي تصدرها وزارة الإعلام بدولة الكويت، وهي صاحبة الفضل في إتمام الرحلة التي أتت بها للصين. والتي كانت ثمرتها هذا الكتاب.

إن حرصي على أن أبرئ ذمتي أمام القارئ، لا يفرقه إلا رجائي أن يكون هذا العمل مقبولا في النهاية من الله سبحانه وتعالى..

ذلك أني ما قصدت إلا وجهه..

وما ابتغيت سوى مرضاته وأجره..

وما كان لي أن أسطر هذه الكلمات قبل أن ألهج باسمه وأسبح بحمده.

فهمي هويدي

«أول ما رأيت الديك الصيني بمدينة كولم (بالهند) فظننته نعامة، وعجبت منه. فقال لي صاحبه: إن ببلاد الصين ما هو أعظم منه. فلما وصلت إلى الصين، رأيت مصداق ما أخبرني به من ذلك!»

ابن بطوطة

١ رحلة الملف الضائع

«مسلمو الصين ليسوا في هذه الدنيا!»

هذه العبارة كتبها الأمير شكيب أرسلان قبل نصف قرن، وهو يسعى جاهدا لتقصي أحوال مسلمي الصين والتعريف بهم مع «لوثروب ستودارد» مؤلف الكتاب الشهير حاضر العالم الإسلامي [١].

ولو أن هذه المقولة أطلقت قبل قرن أو اثنين لكانت أيضا معبرة وصادقة، ولو استخدمناها هذه الأيام-وربما غدا وبعد غد-لظلت على صدق تعبيرها عن تلك الحقيقة المؤلمة.

وإذا صح التعبير فإننا لا نبالغ إذا قلنا إن ثمة «ملفا» ضائعا من الضمير الإسلامي باسم مسلمي الصين، ملف موجود ومفقود، لكن مشكلته وعقدته أنه موجود وسط اكثر بلاد العالم عزلة وتفردا، بل وسط أضخم وأغرب محيط بشري عرفه التاريخ. وهو محيط شطآنه بغير نهاية، وعمقه بلا قرار، وألغازه وطلاسمه سمة ممتدة منذ الأزل، وباقية-ربما-إلى الأبد. في أرض الأسرار الكامنة عند آخر أطراف المعمورة ضاع ملف مسلمي الصين، وطال به الأمد في التيه، وكادت ملايينهم تتحول في الذاكرة الإسلامية من بشر إلى أشباح، ومن حقيقة إلى أسطورة، ومن خبر إلى أثر!.. حتى بتنا نقرأ

عن مسلمي الصين في الكثير من الكتب والأبحاث والمقالات كلاما أشبه بحكايات الجدات التي سرعان ما ينضب معينها، و ينفذ منها الكلام المباح، قبل أن تتصايح الديكة و يلوح الصباح!

وفي مواجهة قضية هذه ملابساتها، فان الخوض فيها يصبح ضربا في المجهول، وربما مغامرة لا تعرف-وقد لا تحمد-عواقبها.

ليست المشكلة في أن تصل إلى الصين، فلم يعد الأمر يحتاج إلى «شجاعة الشجعان» كما كان يردد الجغرافيون العرب القدامى. وليست المشكلة في أن تدخل باب الصين الذي تعذر على الكثيرين اجتيازه، فوقفوا، بما فيهم تجار الحرير قبل ألفي عام، عند الحدود يسلمون و يتسلمون. ذلك أنهم لا يمانعون الآن في أن يدخل البعض، شريطة أن يظل مفتاح الباب في أيديهم، وأن يتحرك الغرباء تحت أعينهم. لكن المشكلة الحقيقية أن تنفذ إلى أعماق الصين، لتصل إلى جوهر أية قضية، المسلمين أو غيرهم. أن تعرف ما بداخل هذه «الشرنقة» العتيدة، فإذا أتيح لك أن تجتاز أبواب سور الصين المرئي فان من رابع المستحيلات أن تنفذ وراء ملايين تلك الأسوار غير المرئية التي تنتصب شاهقة في أعماق الصينيين، مانعة كل اختراق، ومحبطة كل عبور، وحاجبة الرؤية عن الجميع. وهي الحقيقة التي أدركها الباحث الألماني الكونت كيسرلنج بعدما أعيته ظاهرة اللاقرار لذلك المحيط الهائل، فكتب يقول: إن الصيني هو أعمق رجل في العالم!

لقد كان مسلمو الصين-الملف الضائع-هو الهدف الذي سعيت إليه منذ البداية. ولأجل ذلك وقفت على باب الصين ستة أشهر، منذ طرقته لأول مرة، حتى أذن لي بالدخول. وهي الفترة ذاتها التي كانت تستغرقها رحلات البحارة الأوائل فما بين شطآن بلاد العرب-سيراف والبصرة-وبين مواني جنوب الصين كانتون ونانكين. ذلك أن الرحلة فيما بين مسقط وكانتون كانت تستغرق 120 يوما في البحر دون توقف. ولما كان منطقيا أن يتوقف البحارة المسافرون من البصرة أو سيراف في جميع المواني التي يمرون عليها في الطريق، فان مدة الرحلة ما بين الخليج ومواني جنوب الصين كانت تصل إلى ستة اشهر في حقيقة الأمر.[2]

وخلال تلك الأشهر الستة. ظلت المراسلات تروح وتجيء فيما بين الكويت وبكين. ولم يكن في ذلك غرابة أو شذوذ، لأن أي قارئ لتاريخ الصين يدرك

تماما أن «المراسم» عند الصينيين شيء مقدس لا تهاون فيه، ليس حبا للنظام والتزاما بالدقة فقط، ولكنه جزء من عقيدة الكونفوشية الراسخة في الصين. أليس «سجل المراسم»-اللي-جي-هو أول كتاب خطته يد كونفوشيوس وهو يبشر بأفكاره هنا قبل 25 قرنا؟ [3]

وطوال تلك الأشهر، ظللت أتابع أخبار الموافقة على القيام بالرحلة مع المسئولين الصينيين الذين كنت التقي بهم، وبينهم رئيس وفد الجمعية الإسلامية الصينية-محمد علي تشانغ جيه-الذي مر بالكويت في طريق عودته من الحج.. وجميعا كانوا يردون بهز رأس رقيقة، وابتسامة واسعة، وكلمات تقطر تهذيبا وأدبا، حتى يخيل إليك أن تلك جرعة من الأدب الزائد أرضعت للجميع بالقسط، منذ دعا كونفوشيوس إلى أن السلوك المهذب هو الأصل والأساس.. وهر أول خطوة على طريق الرقي!

وأدركت-متأخرا-أن الابتسامة عند الصينيين بوجه أخص لا تعني أكثر من كونها أحد مظاهر ذلك السلوك المهذب. وإنها لا تحمل في طياتها تلك المعاني التي تخطر على بال أمثالنا من الشرقيين لأول وهلة، مثل الترحيب والبهجة والقبول.

إن ابتسامة الصيني تعني-فقط-أنه صيني قح!

أخيرا تلقيت دعوة من الملحق الصحفي الصيني في الكويت، لحضور حفل شاي صغير بدار السفارة، الداعي إليه هو قنصل الصين العام.

في الموعد المحدد، كان الملحق واقفا على درج السفارة، مرتديا ثيابه الرسمية، ونعلا مميزا في قدميه «بني» اللون. صحبني الرجل إلى قاعة واسعة كل ما فيها صيني، السجاد والمقاعد والطاولات واللوحات المثبتة على الجدران والزهريات الموزعة على الأركان. وكان القنصل في استقبالنا بذات الابتسامة الحارة. جلسنا نتبادل عبارات المجاملة، بينما أخرج القنصل من جيب سترته علبة سجائر صينية، وعلبة كبريت صينية، ووضعها إلى جوار المنفضة الصينية. وجاء الشاي الصيني الأخضر الخالي من السكر، في كوب صيني، على «صينية» لست بحاجة إلى ذكر هويتها!

أدهشني هؤلاء القوم الذين يحملون الصين معهم أينما ذهبوا. لا يغادرون الصين وإن انتقلوا إلى أبعد بقعة في الكون. وهو ما ذكرني بما تتناقله بعض المراجع عن انشغال الصيني بضرورة أن يدفن إلى جوار أهله، وفي

بلده، الأمر الذي لم يكن يشجع الصينيين في الماضي على السفر إلى أرض بعيدة، خشية أن يموتوا فيدفنوا غرباء. وإذا اضطر الواحد منهم إلى سفر طويل، فانه يستصحب معه مجموعة من الديكة البيضاء في القيام والقعود طوال الغيبة، ظنا منهم أن هذه الديكة لها قدرة على نقل الأرواح من حيث في مشردة إلى حيث تستقر في أرض الوطن، في قبور الأهل والأقارب.[4]

ولهذا السبب يذكر أن وزير الخارجية الصيني الأسبق لي هونغ تشانغ، الذي زار أوروبا في أوائل هذا القرن، صحب معه-إلى جانب الوفد الرسمي- سبعة من الديكة، لتتولى مهمة إعادة روحه إلى وطنه، إذا فاجأه القدر بما لم يكن في الحسبان أثناء جولته الأوروبية!

في ذلك اللقاء بدار السفارة الصينية أبلغت رسميا، وفي ظل كل الطقوس الواجبة، بأن الموافقة قد تمت على أن نقوم برحلتنا إلى الصين، وأن الجمعية الإسلامية الصينية ستتولى رعايتنا، وستقدم إلينا كافة التسهيلات الممكنة.

في مجتمع تجارات العرب.

حطت بنا الطائرة في كانتون..

وهي مصادفة-لم تخل من مغزى عندي-أن تكون كانتون هي أول ما أصافحه من وجوه الصين، فقد كانت أول ما يتوقف عنده الرحالة والتجار العرب القدامى، الذين قصدوا الصين-أو «بلاد الخطا»[5] كما كانوا يسمونها- بالبحر، وكان أولهم فيما تذكره بعض المصادر العربية تاجر عماني الأصل، هو أبو عبيدة عبد الله القاسم، الذي اقلع من عمان إلى كانتون حوالي عام (133هـ-750 م) لشراء الصبار والأخشاب. وهو الرجل الذي يقول عنه العمانيون إنه أول من أطلق عليه وصف «السندباد»[6]

ولا يتعارض ذلك بالضرورة مع تاريخ كوانجتنغ الذي يذكر قدوم أول من جاء من المسلمين إلى الصين على النحو التالي: «في عهد دولة تانغ (618هـ-907م) وفد على كانتون عدد كبير من الغرباء من مملكة أنام وكمبوديا، ومدينا وبعض بلاد أخرى. وكان هؤلاء الغرباء يعبدون الله، وليس في معابدهم تمثال ولا صنم ولا صورة. كانت مملكة مدينا قريبة من مملكة الهند، وفيها نشأت ديانة هؤلاء الغرباء التي تختلف عن ديانة بوذا. وكانوا لا يطعمون لحم الخنزير ولا يشربون الخمر، ويعتبرون الذبائح التي لا يذبحونها بأيديهم

طعاما نجسا. ويطلق عليهم الآن اسم «هوى هوى»... ولما استأذنوا الإمبراطور، وحصلوا منه على الإقامة في كانتون، بنوا دورا جميلة من طراز يختلف عن ذلك الذي كان في بلادنا. وكانت لهم ثروة عظيمة، ودانوا بالطاعة لرئيس انتخبوه بأنفسهم [7]».

لكن أول مدونة عربية عن رحلة بحرية إلى هذه المناطق كتبها تاجر عربي آخر اسمه «سليمان»، كان كثير السفر إلى الهند والصين، وقد كتب مدونته بعد مائة عام تقريبا من رحلة «أبو عبيدة» وقال فيها إن خانفو (كانتون الآن، التي ينطلقها الصينيون قوانغتشو، معتبرين أن كانتون كلمة أطلقها الاستعمار على المدينة) هي مرفأ السفن ومجتمع تجارات العرب وأهل الصين [8]. أما ابن بطوطة-الذي قام برحلته إلى الصين بعد خمسة قرون من التاجر سليمان-فقد أطلق عليها اسم صين الصين أو صين كلان. واعتبرها «من اكبر المدن وأحسنها أسواقا» [9]، مضيفا أن بينها و بين سد يأجوج ومأجوج ستين يوما، رغم قوله «ولم أر بتلك البلاد من رأى السد، ولا من رأى من رآه»!!

ويبدو أن العرب في الأزمنة القديمة كانوا كثيري الاعتياد على السفر إلى كانتون، حتى إن أبا علي التنوخي صاحب كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة يسجل رواية لأحد تجار عمان قال فيها: «كنت بالأبله (عبدان الآن) أريد الخروج إلى البحر فرأيت سائلا بباب الجامع فصيح اللسان يلح في المسألة فرققت له وأعطيته دراهم صالحة. وخطفت في الوقت إلى عمان فقضيت بها شهورا، ثم قضى لي أن مضيت إلى الصين فدخلتها سالما. وإذ أنا يوما أطوف، فإذا الرجل بعينه قائما في السوق يتصدق، فتأملته فعرفته، فقلت له: ويحك، سائلا بالأبله وسائلا بالصين؟ فقال: قد دخلت هذا البلد (يقصد كانتون) ثلاث دفعات وهذه الرابعة لطلب المعيشة فلا أجدها إلا من الكدية (الشحاذة). فارجع إلى الأبله ثم أرجع إلى ههنا» [10]

بهذه البساطة كان صاحبنا يذهب ويجيء للشحاذة بين الابلة في الخليج العربي وكانتون في الصين!

هذه إذن هي بوابة الصين الجنوبية-أقرب ميناء جوي وبحري إلى الحدود-التي تتم فيها إجراءات الدخول، ليحتجز من لم يستكمل الإجراءات قبل الوصول إلى العاصمة. وهو نظام عتيق في الصين عمره أكثر من عشرة

قرون، أن يتم احتجاز الأجانب على الحدود، وتفرز بضاعة كل منهم ووثائقه، قبل أن يسمح له بالدخول. لذلك لم يكن غريبا أن تعتبر كانتون-وهي المدينة الحدودية-«مجتمع تجارات العرب وأهل الصين». ولا يزال شارع التاجر العربي هو الذي يتركز حوله ما تبقى من مجتمع المملمين بالمدينة إلى الآن.

ملأ كل واحد من القادمين بيانات خمسا (استمارات) مختلفة الأحجام، تسأل عن العديد من التفاصيل: أين توقفت في الطريق، وماذا معك من ساعات أو أجهزة راديو، أو كاميرات، أو مسجلات، أو آلات كاتبة وحاسبة.. ذلك غير البيانات الشخصية والأموال، أنواعها وأشكالها، والحقائب، ما في اليد وما هو مشحون على الطائرة.؟

وذلك تدقيق وتشدد معمول به منذ القدم، يسري على القادمين والخارجين، أجانب ومواطنين. وهو ما لاحظه ابن بطوطة.. الذي كتب قبل ستة قرون يقول: «وعادة أهل الصين إذا أراد جنك من جنوكهم (سفينة) السفر، صعد إليه صاحب البحر وكتابه، وكتبوا من يسافر فيه من الرماة والخدم البحرية. وحينئذ يباح لهم السفر، فإذا عاد الجنك إلى الصين صعدوا إليه أيضا، وقابلوا ما كتبوه بأشخاص الناس، فان فقدوا واحدا ممن قيدوه طلبوا صاحب الجنك به، فإما أن يأتي ببرهان على موته أو فراره أو غير ذلك مما يحدث عليه، وإلا أخذ فيه. فإذا فرغوا من ذلك أمروا صاحب المركب أن يملي عليهم تفصيلا بجميع ما فيه من السلع، قليلها وكثيرها، ثم ينزل من فيه ويجلس حفاظ الديوان لمشاهدة ما عندهم، فان عثروا على سلعة قد كتمت عنهم عاد الجنك بجميع ما فيه مالا للمخزن»[11].

أثار انتباهي هذا التدقيق، حتى في سفر الصينيين أنفسهم، وهو ما يصعب قبوله في منطق بلد مكتظ بالملايين منذ قرون بعيدة، ويفترض أن لديه «فائضا» من البشر يسمح بالتساهل في أمر كهذا. لكن ذلك لا يمكن أن يحدث إلا في الصين، حيث الحذر في التعامل مع الآخرين ضبيه بالعقيدة التي لا يمكن التحلل منها في أي ظروف ولأي سبب.

وعندما ذهبت إلى موظف المطار أو «صاحب البر»-إذا استخدمنا تعبير ابن بطوطة-لكي أسلمه الاستمارات وأتسلم جواز سفري بعد فحصه ومراجعة بياناته، بما في ذلك الدول التي زرتها منذ صدور الجواز قبل ثلاث سنوات،

عندئذ وقعت عيناي على قدمي الموظف المختص. وفوجئت بالرجل يرتدي في قدميه ذات «النعل» البني اللون، الذي كان يرتديه الملحق الصحفي الصيني في الكويت، وعندما ألقيت نظرة على أرضية المطار، وجدت أن أكثرهم يرتدي ذلك الصندل «البني». أثارت دهشتي هذه النمطية التي يلتزم بها الصيني في ثيابه، فهو حيث يكون، لا يعيش فقط وسط أثاث صيني، وطعام صيني، ويدخن سجائر صينية ويشعله بكبريت صيني، لكنه أيضا وهو في الكويت مثلا يرتدي نفس النعل الذي يرتديه موظف مطار كانتون.

أي تركيبة هذه التي أحدثت ذلك القدر من التناغم المدهش بين الصينيين؟.. أي «مايسترو» هذا الذي استطاع أن يقود ملايين العازفين منذ الأزل، يحركهم بعصاه الرفيعة، و يضبط إيقاعاتهم أينما كانوا في أرجاء الكون؟.. وأي شعب يملك هذا القدر من الانضباط والامتثال؟

«ابن السماء» وحده القادر على أن يقود هذا الفريق.

وشعب الصين وحده هو القادر على أن يصنع تلك المعجزة..

لقد كانوا يطلقون على ملك الصين أو إمبراطورها في الزمن القديم «ابن السماء» [12] أو «البغبور» كما ذكر سليمان التاجر [13]، وهو ابتكار يعبر عن المواصفات المطلوبة لقيادة شعب في حجم ربع سكان البشرية، إذ لابد أن تقف وراءه قوة خارقة ليباشر هذه المهمة الضخمة، طالما أنه حاكم فرد.. لابد أن يكون ابن السماء، لأن أبناء الأرض متوفرون بكثرة، من الواحد حتى عشرات الملايين!

فوق عاصمة مملكة الأسرار

كانت محطتنا التالية هي بكين...

طوال ثلاث ساعات ظللت أحملق في وجه الصين من الجو، غير مصدق أنني ذاهب-أخيرا-إلى عاصمة مملكة الأسرار.

من الطائرة تبدو الصين عالما مترامي الأطراف، بل عالما لانهائيا، يعذر الصينيون إذ ظلوا لا يرون غيره منذ قرون، ويعذر الجغرافيون إذ اعتبروها صلب آسيا وجذعها الحقيقي، بينما الهند-بالمقارنة-تبدو من الجو كما لو كانت طرفا معلقا بالقارة، أو نتوءا ألحق بها. وقد يصح أن نقول مع الدكتور

جمال حمدان في كتابه بين أوروبا وآسيا: إن الهند هندية اكثر منها آسيوية، أو هندية أولا وآسيوية بعد ذلك. أما الصين فليست فقط اكثر أجزاء آسيا آسيوية، وليست حتى صينية اكثر منها آسيوية، وإنما آسيا هي الصينية اكثر منها آسيوية في الحقيقة! [14]

على هذه الأرض الشاسعة أقامت الصين عالمها المثير والفريد، الذي يتخلله خمسة آلاف نهر، وتتعلق به ألفا جزيرة، ويعيش في دروبه ألف مليون نسمة (بالدقة، 985 مليونا حسب تقديرات النصف الثاني من عام 1980)، وترقد على ظهره ثروات زراعية هائلة، وفي جوفه ثروات طبيعية بلا حصر، وتظلله حضارة 5 آلاف سنة من التاريخ المكتوب.

من الجو تدرك أنك تتعامل مع كائن يتعذر الإلمام به، كائن فوق الإحاطة وفوق الاستيعاب. وتكتشف أن كل ما كتب عن الصين لم يقدمها بقدر ما كان يعبر عن القدر من الرؤية الذي أتيح للكتاب أن يحصلوه من تجربة ذلك العالم المثير. وأنه من قبيل التعجيز أن يطالب كاتب أو حتى فريق من الكتاب بأن يقدموا صورة شاملة للصين. وغاية ما يمكن أن يطالب به فرد أو فريق في هذا الصدد أن يكون كل منهم صادقا في نقل الجزء من الصورة الذي تستوعبه مداركه، باعتباره بئرا محدود الطاقة، يتعامل مع موقف عناصره لا يحدها حد.

وقد ذكرني ذلك بقول الفيلسوف الفرنسي الأب دو شاردان: «إذا ما كتبتم عن الصين قبل أن تزوروها فأنتم مضطرون لكسر ريشتكم بعد حين». كما أعاد إلى ذهني ما قاله الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون وهو يحاول أن يكتب عن الصين بعد ثلاث زيارات قام بها خلال السبعينات لتلك البلاد العظيمة: إن معرفة الصين تتطلب عملا يتخطى حدود حياة كاملة. وخير ما يمكن أن نطمح إليه في هذا المجال هو الحصول على شيء من التفهم لجزء من المغامرة الصينية. وبقدر مانسبر أعماق هذه المغامرة يتبين لنا أن لا حدود لأسرارها.

ربما كانت مهمتي أيسر، نسبيا. فهي محصورة في حدود محاولة للعثور على ملف مسلمي الصين-الموجود المفقود-ثم قراءة بعض صفحاته بالقدر المتاح. ورغم أن مسلمي الصين هم قطرة في ذلك البحر المترامي الشطآن، إلا أن الموضوع له مجاهله التي تحتاج إلى إلحاح واقتحام. فألغازه وطلاسمه

ليست مقصورة على الحاضر وحده، ولكنها تنسحب على الماضي أيضا. ونادرة هي الكتابات العربية-وحتى الأجنبية-التي اهتمت بمسلمي الصين، سواء في ماضيهم أو حاضرهم. وللدقة أقول إنه إذا كانت الكتابات عن صفحة الماضي قليلة أو نادرة فهي تكاد تكون منعدمة فيما يتعلق بواقع المسلمين الآن. وربما كنت أنا وزميلي أوسكار متري مصور مجلة العربي أول بعثة صحفية منذ تحرير الصين في عام 1949، يسمح لها بان تجتاز أبواب سورها العظيم، لتزور مناطق المسلمين، بما فيها مناطق كانت مقفلة في وجه الأجانب حتى سنتين مضتا، مثل مدينتي أورموش وطورفان في مقاطعة سينكيانغ.

لماذا فتحوا الأبواب؟

لماذا فتح الصينيون الأبواب لنا على هذا النحو؟. شغلني السؤال، فصرت أطرحه على الذين لقيتهم في بكين، من الأجانب والصينيين.

قالوا: إن المد الإسلامي المتعاظم الآن في أنحاء كثيرة كان لابد أن يقابل من جانب أي دولة لها مصالح مع المسلمين بقدر متكافئ من الاهتمام. وهم في الصين منكبون الآن على ترجمة ونقل العديد من الكتب الإسلامية، وعلى سبيل المثال، فان كتب احمد أمين، فجر وضحى وظهر الإسلام، وكتب الدكتور حسن إبراهيم، الإسلام السياسي والاقتصادي والاجتماعي، هذه الكتب وغيرها قيد الترجمة من العربية إلى الصينية. (تمت ترجمة «فجر الإسلام» فعلا) ثم انه هناك دراسات تجري أيضا حول الشيعة والتصوف والحركات الإسلامية المعاصرة. وفي خط مواز، فقد وجهت الدعوة إلى اكبر عدد من المسئولين عن الشئون الإسلامية في مختلف الدول العربية لزيارة الصين على فترات متعاقبة من هذا العام.

وعندما يكون مسرح هذا المد الإسلامي هو مناطق البترول والطاقة، فان الاهتمام بالظاهرة لابد أن يكون أعظم، والإلحاح على إقامة جسور قوية مع هذه المناطق لابد أن يكون أشد. وفضلا عن عامل البترول، فان اكثر مناطق البترول هذه-دول الخليج خاصة-هي بمثابة أسواق هامة للمنتجات الصينية، من التحف إلى الجلاليب أو «الدشاديش»، كما يقول أهل الخليج!

قالوا أيضا: فتش عن السوفيت في أي قرار صيني الآن. وقد كان الغزو السوفيتي لأفغانستان في 27 ديسمبر 79 بمثابة نقطة تحول في السياسة الصينية تجاه الإسلام والمسلمين. ففي أعقابه مباشرة نشطت السياسة الصينية في اتجاه مجاملة المسلمين، لأجل أن يظهر أمام الجميع أن السوفيت هم المعتدون على الإسلام والمسلمين، بينما يقف الصينيون في المربع المعاون والداعم للإسلام والمسلمين.

وهذه الرسالة كانت موجهة إلى العالم الخارجي من ناحية، والى المسلمين الصينيين من ناحية أخرى، وهم الذين تمتد مناطق تجمعاتهم الأساسية (سينكيانغ) على الحدود المتاخمة للاتحاد السوفيتي.

وقد تجسد هذا الاهتمام بالمسلمين في داخل الصين، في الدعوة لعقد المؤتمر الرابع للجمعية الإسلامية الصينية بعد ثلاثة أشهر فقط من الغزو السوفيتي لأفغانستان، وهو المؤتمر الذي انعقد في بكين العاصمة، في إبريل 1985، بعد غيبة 17 عاما. (المؤتمر الأول عقد لتأسيس الجمعية سنة 53، والثاني والثالث عقدا سنتي 56 و 63 على التوالي). ثم عقد مؤتمر آخر لمسلمي مقاطعة سينكياغ-معقل المسلمين-في أوائل يوليو 80.

وفي ذلك المؤتمر الرابع للجمعية الإسلامية الصينية ألقى نائب رئيس الجمعية خطابا، استهله بقوله: «إن الجمعية حققت مذ تأسيسها عام 1953 كثيرا من النتائج الحميدة، تحت قيادة الحزب الشيوعي الصيني، ورعاية وتأييد الحكومة الشعبية».. ثم أعلن أنه «بعد سحق عصابة الأربعة، فقد فتحت الآن بعض المساجد من جديد، وأما البعض الآخر فشرع في إصلاحه وترميمه، وسوف يفتح أبوابه أيضا في المستقبل القريب حسب الظروف الواقعية للمناطق. إلى جانب ذلك-أضاف نائب الرئيس-أصبحت الحياة الدينية للمسلمين الصينيين تسير على نحو طبيعي بصورة تدريجية، مثل تلاوة القرآن الكريم، وأداء الصلاة والصوم. كما لقيت من جديد التقاليد الإسلامية المتعلقة بالموت وعادات الأطعمة الاحترام اللائق بها»! (15)

ثم قال نائب رئيس الجمعية أيضا إنه تقرر إعادة طبع المصحف الشريف، بعد توقف هذه العملية طوال 15 عاما، واستئناف إصدار مجلة «المسلمون في الصين» التي احتجبت طوال نفس الفترة، وقال إن هناك اتجاها لفتح معهد العلوم الإسلامية، الذي تعطل منذ عشرين عاما، ولإصدار كتاب

خاص عن تاريخ الإسلام في الصين.

ثم كانت هذه اللفتة المثيرة للانتباه في هذا الصدد، عندما عين أحد المسلمين نائبا لرئيس الوزراء-لأول مرة-وذلك ضمن التعديلات التي طرأت على خريطة المناصب السياسية في القيادة الصينية، خلال النصف الثاني من عام 1980. وقد اختير لهذا المنصب واحد من مؤسسي الجمعية الإسلامية الصينية، هو إبراهيم يانغ جنفرين، الذي كان يشغل منذ عام 1978 منصب رئيس لجنة شئون القوميات، وشغل قبل ذلك منصب المسئول الأول عن مقاطعة نينغشيا الإسلامية، التي تتمتع بالحكم الذاتي.

وهذا الاهتمام الصيني بالإسلام والمسلمين-الذي تزايدت درجة حرارته بعد غزو السوفيت لأفغانستان-لا يزال يجد صداه فيما ينشره ويذيعه الإعلام الصيني موجها إلى العالم الخارجي. حتى إن مجلة «بكين» نشرت في عددها رقم 16 الصادر في 24 إبريل 80، ثلاثة موضوعات مختلفة تعالج شئون المسلمين، وهو ما لم يكن يحدث على الإطلاق من قبل.

قالوا أيضا: إنه بالإضافة إلى عاملي المصلحة ومهاجمة السوفيت، فان هناك-من جهة ثالثة-مناخا من الانفراج النسبي يسود الصين منذ عام 78، أي منذ سحق عصابة الأربعة، وتولي القيادة الجديدة زمام السلطة. وهذا المناخ استفادت منه أطراف كثيرة، منها أصحاب الأديان بوجه عام، وهم الذين أصابهم الكثير من العنف والاضطهاد طوال سنوات الثورة الثقافية العشر.

لهذه الأسباب جميعها-قيل لي-إن هناك اتجاها لمجاملة مسلمي الصين. وللأسباب ذاتها فتحت لك الأبواب، ووصلت إلى هنا.. في بكين.

حكايات على طريق الحرير

وقت وصولنا إلى بكين، كانت عاصمة مملكة الأسرار تتحدث باهتمام بالغ عن مسرحية باسم «حكايات على طريق الحرير».

وقد كان طريق الحرير هو الجسر البري الرئيسي بين الصين والغرب (يقصدون العرب والفرس) حتى بداية القرن العاشر الميلادي. والمسرحية الراقصة تروي قصة تاجر فارسي اسمه (أمنيوس) قاد ببضاعته عبر الطريق، ولكنه يوشك على الهلاك بسبب عاصفة رملية تداهمه أثناء رحلته، فينقذه

رسام صيني (تشانغ) وابنته (ينغ نيانغ). غير أن قطاع الطرق يخطفون الابنة، التي يعثر عليها الأب بعد سنوات وقد بيعت كرقيق وأصبحت راقصة في فرقة مسرحية. ولكن الأب يعجز عن افتدائها بالمال، فيلقاه التاجر الفارسي، و يرد الجميل، و يدفع له المبلغ المطلوب لتحرير الجميلة (ينغ). ولكن الوالي المحلي في المدينة التي يلتقي فيها تجار الشرق والغرب يدبر مكيدة لاستعادة الفتاة، فيعهد بها والدها إلى صديقه الفارسي أمنيوس، وتهرب ينغ مع التاجر إلى بلاد فارس، وتعقد مع أهلها صداقة وثيقة، فتتعلم رقصاتهم وتعلمهم رقصاتها، وتدور دورة الزمن و يذهب أمنيوس عبر طريق الحرير في مهمة إلى بلاد الصين، ويصحب معه ينغ، وما إن يعلم الوالي الشرير بقدومها، حتى يحرض عصابة من رجاله على اختطافها، و يشرب النبأ للأب تشانغ، الذي يحاول تحذير التاجر الفارسي وابنته، لكنه يموت في هذه الظروف. وتنجو الفتاة من الاختطاف، وتتوجه مباشرة إلى سوق المدينة، حيث تقف وسط الجميع منددة بالوالي، وفاضحة تصرفاته. فيتم اعتقاله والعصابة التي تعاونه، و يعود الهدوء إلى المدينة، وتتوثق في أمان عرى الصداقة بين تجار الشرق والغرب.. ويسدل الستار وسط تصفيق شديد وحار.

ولأن كل شيء محسوب في الصين. فان الرسالة التي تحملها مسرحية على «طريق الحرير»، تحاول لفت الأنظار إلى الغرب، العرب والفرس، الموجودين في المسرحية بحجم متكافئ مع الحضور الصيني. بندّية تنطلق من الرغبة في تعميق قيمة الصداقة والانفتاح على الآخرين في المرحلة الراهنة. فالصيني الفنان، والفارسي التاجر، يواجهان الشر متكاتفين. والابنة تتعلم الرقص الفارسي، وتعلم الفرس الرقص الصيني، في «تعاون فن»، ظاهر. وعندما ينتصرون على الوالي الشرير و«عصابته» فان الجميع ينعمون بالسلام والأمان.

إن التاريخ البعيد هو محور الفيلم والمسرحية اللذين لا يقدمان معلومات جديدة، وإن كانا يعكسان بوضوح روحا جديدة في المعالجة. إن الضوء الأخضر لا يكتشف الطريق للعابر، ولكنه يسمح له فقط بالمرور وتجاوز خط الوقوف. وفي بلد شديد الانضباط والاستلهام من السلطة-سواء كان على رأسها ابن السماء أم ابن الحزب-فان للإشارات الخضراء أهمية قصوى عند الناس. إنها تعني بجلاء أن الخطر غير قائم، وأنه لا مانع من التقدم

في هذا الاتجاه. ورغم أنهم يعلمون بحس فطري وبالتجربة أن الذي يضيء النور الأخضر يستطيع-طالما أن مفتاح الإشارة في يده-أن يضيء النور الأحمر في أي لحظة، بحيث يتحول المسموح إلى محظور، والحلال يصبح حراما، إلا أن الأمر لن يسبب لهم أية معاناة كما قد يتصور البعض. فهم مستعدون للاستجابة والامتثال، والتصرف-بأدب وابتسام-تبعا للون الإشارة المعطاة.. خضراء كانت أم حمراء.

ولحسن حظنا أننا وصلنا إلى بكين، والإشارات الخضراء مضاءة على طريقنا..

هؤلاء المسلمون: «داشي»

وكانت نقطة الانطلاق من بداية الطريق. أعني منذ وصل الإسلام إلى الصين، وتمركز في الأطراف بعيدا عن القلب، الأمر الذي يطرح ألف سؤال وسؤال، حول رحلة الإسلام إلى هذه البلاد، مساراتها ومنعطفاتها، ودروبها السالكة أو المسدودة.. وحول أمس المسلمين و يومهم، وربما غدهم أيضا. وهو طريق لابد أن يمر بالتركيبة الفريدة لشعب الصين. وموقفه من الأديان عامة، والإسلام خاصة، بل ومرضه من الله سبحانه وتعالى بوجه أخص.

لقد قضيت شهرا في الصين، أحاول الإجابة على هذه الأسئلة، فيما يمكن اعتباره جهدا استهدف في النهاية قراءة بعض صفحات ذلك الملف «الموجود المفقود»، كما ذكرت من قبل. إذ ما قيمة العثور على ملف مهما كانت صفحاته مليئة بالمعلومات الثمينة، إذا كان المرء عاجزا عن قراءة هذه المعلومات وفك رموزها.

ولا أظنني بحاجة إلى شرح ما واجهته طوال رحلة التنقيب في صفحات ذلك الملف. إذ يكفي أن أذكر بان رحلة الإبحار هذه كانت في الصين، في مملكة الأسرار، وبلاد اعمق خلق الله، وأشدهم ارتيابا في الغرباء.

لقد اقتضى الأمر رجوعا لابد منه إلى العديد من الأبحاث الصينية المنشورة وغير المنشورة، والى محفوظات مكتبة بكين الضخمة، ومتاحف المدن الرئيسية العامرة بآثار الماضي البعيد والقريب. كما اقتضى أن اجري حوارات طويلة مع بعض الخبراء والمتخصصين والعارفين بأحوال المسلمين، وذلك غير المناقشات التي جرت مع شيوخ المسلمين وشبابهم..



من بقايا الرحلة على طريق الحرير. آنية لشرب الماء من الفخار.



لا يزال طريق الحرير باقيا إلى الآن بطبيعة الحال. وان صار أثرا واختلفت وظيفته. لكن الشيء الذي لم يختلف فيه هو أن الجمال لا تزال الوسيلة المثلى لعبوره. والصورة لمشهد من الطريق في شرق الصين، وقافلة الجمال تذرعه.



● مخطط صيني لطريق الحرير عندما كان جسر عبور لقوافل التجار ذهابا وإيابا بين الشرق والغرب-من شيآن عاصمة الصين القديمة حتى أنطاكيا و بيروت على سواحل البحر الأبيض المتوسط. عبورا بقلب آسيا و بلاد فارس والعراق والشام.

● من مدن الساحل كانت تنقل السلع عبر البحر إلى روما والبندقية.

وسمح لنا بأن نقوم صلة في بعض المناطق الإسلامية، والمراكز الهامة الوثيقة الصلة برحلة الإسلام في الصين. من بكين ذهبنا إلى أورموش عاصمة مقاطعة سينكيانغ ذات الطابع الإسلامي، ثم إلى تورفان المدينة الثانية في المقاطعة. ومن هناك إلى شيآن العاصمة القديمة وآخر نقطة في طريق الحرير القادم من بلاد العرب والفرس، ومنها إلى شنغهاي المدينة الثانية في الصين، ثم إلى كانتون، أول ما طرقه العرب القادمون عبر البحر من مدن الصين. وهي رحلة امتدت من الغرب إلى الجنوب، وتراوحت بين طقس الربيع والحر الخانق والبرد الشديد، لمسافة تجاوزت 20 ألف كيلومتر، طرنا خلالها حوالي 30 ساعة، بطائرات «الميج» الروسية، التي تستخدم في النقل المدني الداخلي، بعلاماتها وكتاباتها الروسية، ألف الآن.

ومع ذلك، فان الباحث في أعماق الصين لا يؤمّن فقط على ما قاله دي شاردان والرئيس الأمريكي نيكسون، بل انه يشعر بعد أن يقوم بجولته فيها، مهما طالت، بأن ما يجهله أكثر بكثير مما يعلمه، وإن ما خفي أضعاف أضعاف ما ظهر، وان غاية ما حصله انه اغترف غرفة من بحر الحقيقة، وغرق في بحر الابتسام!

إن الذين قالوا عن الصين إنها «جنة المؤرخين»[16] لم يبالغوا في إطلاق هذا الوصف على الإطلاق. بل هم صادقون مائة بالمائة. إن سجلاتهم تروي بتفصيل مذهل أحاديث مفصلة عن تاريخ الصين منذ عام 3000 قبل الميلاد (يشكك ول ديورانت في أقوالهم السابقة على القرن الثامن قبل الميلاد و يؤمن على ما بعد ذلك). ذلك أن بلاط الإمبراطور، ابن السماء، كان يضم مؤرخين رسميين يسجلون كل ما يقع من أحداث في البلاط، هو تاريخ الإمبراطور صحيح، ولكن ينبغي ألا ننسى أن الإمبراطور كان كل شيء تقريبا.

فقط هناك مشكلة ومحظور في قراءة هذه السجلات، فالجهل باللغة الصينية عقبة تحول دون الاستفادة الجيدة منها، ولكن ما يخفف منه أن بعض هذه السجلات-خصوصا في الفترات الهامة من تاريخ الصين-قد ترجم ألف الإنجليزية. فضلا عن جهود المترجمين المحليين التي تساعد أحيانا في تيسير مهمة الباحث. وربما كان جدار اللغة هذا أحد العوامل التي أسهمت في التقليل من الكتابة العلمية الموثقة عن الصين، سواء تعلق

الأمر بعلاقاتهم بالعرب أو المسلمين، أو بغيرهم.



طريق الحرير بريشة دا دون بانغ



يظل طريق الحرير مصدر الهام لكثير من الفنانين الصينيين. واللوحة إلى اليمين، وهذا التمثال الخزفي تعبيران عن تصوّرين مختلفين لتلك الرحلات الحافلة بالروايات والأساطير.

أما المحظور ففي أن تلك السجلات-لأنها تاريخ حكومي-فقد كانت تعرض الوقائع وتصوغها بمنظور صيني رسمي للغاية. إذ كانوا يعتبرون أنفسهم في الأزمنة القديمة جنسا أرقى من الآخرين-كما سنرى فيما بعد-وكل تعامل خارجي لهم كان يصاغ على اعتبار أنه إحدى صور التبعية والخضوع، والتماس العفو أحيانا!.. حتى إن إمبراطور الصين عندما استقبل الرحالة البندقي الشهير ماركوبولو وأباه وعمه، في عهد قريب نسبيا (عام 1295 م) فإن السجلات الصينية تذكر أن الإمبراطور استقبلهم باعتبارهم «رسلا أذلاء من الغرب الناشئ»![17]

وبهذا المنهج، فان السجلات الصينية تتجاهل بشكل عام الأحداث التي قد تقلل من شأن الإمبراطور، أو تضعه في موضع الند مع الآخرين، الأمر الذي لا يليق بمكانة «ابن السماء» بطبيعة الحال.

إن بلاد العرب في السجلات الصينية القديمة هي تلك البلاد «الواقعة غرب إيران».

والمسلمون يذكرون في تلك السجلات العتيقة باسم «داشي»، وهي كلمة معناها في اللغة الصينية «التاجر». ولان التجار هم أول الوجوه المسلمة التي رآها أهل الصين، فقد اختلطت المهنة بالملة، وأطلق على كل مسلم اسم «التاجر» منذ تلك العصور المبكرة، حتى أصبحت كلمة «داشي» لصيقة بالمسلمين فيما بعد. فالأمويون-مثلا-يذكرون في السجلات الصينية باسم «باى لي داشى»، أي المسلمين ذوي الملابس البيضاء. أما العباسيون فيطلق عليهم «خى لي داشى»، أي المسلمين ذوي الملابس السوداء، إشارة إلى اللون الأسود الذي اتخذه العباسيون شعارا لهم [18].

وجدير بالذكر هنا أن دائرة المعارف الإسلامية تشير إلى أن المسلمين يذكرون في السجلات الصينية باسم «تاشيش»، وأن هذا الوصف مشتق من كلمة «طاجيك»، التي هي تطوير فارسي للكلمة الفارسية «تازى» التي أطلقت على عرب «قبيلة طي». وكان بعض الفرس يعتبر أن قبيلة «طي» تمثل العالم العربي. حتى صارت كلمة تازى وطاجيك من بعد تطلق على كل عربي أو مسلم، حتى نطقها الصينيون «تاشيش» [19].

وعندما ناقشت بعض الباحثين الصينيين في هذا التفسير أو التخريج، فانهم أبدوا تحفظا شديدا في قبوله. وقال لي أحدهم إنه قد تكون كلمة

«طاجيك» مشتقة من قبيلة «طي»، وقد تكون طي هي تازى في الفارسية، ولكن ذلك كله لا علاقة له بالتسمية الصينية القديمة للمسلمين، لأن المسلم كان يطلق عليه داشى، وليس تاشيش.

ومن ناحية أخرى فان أمير المؤمنين يشار إليه في السجلات الصينية القديمة باسم: هنجي مومويي. وقد ذكر هارون الرشيد باسم «ألون» «الراء تنطق لاما في اللغة الصينية».

غير أن المسلمين باتوا يعرفون منذ ثمانية قرون تقريبا باسم «هوى»، أو «خوى» طبقا للنطق الصيني، ولهذه التسمية قصة رواها لي أحد الباحثين الصينيين المهتمين بتاريخ الإسلام والمسلمين.

ذلك إن الوجود المبكر للمسلمين في قلب الصين كان محدودا، فضلا عن أن أكثرهم كانوا تجارا متمركزين في وسط البلاد وجنوبها، وكانت كلمة «داشى» كافية للتعريف بهم. ولكن الكتلة السكانية الكبرى للمسلمين كانت في غرب الصين. في منطقة تركستان التي كانت تسكنها قبائل «ويغور»، التي اعتنقت الإسلام في وقت مبكر. كان الويغور هم أهل منطقة الغرب وأبناؤها، أما إلى «داشى» فلم يكونوا سوى غرباء، يروحون ويجيئون.

وعندما استقر المسلمون إلى «داشى»، واستوطنوا مع غيرهم من القادمين مناطق الوسط والجنوب، أطلق عليهم الصينيون اسما مشتقا من قومية مسلمي الغرب ذوي الأصول التركية (و يغور) على اعتبار أن الجميع مسلمون و ينتمون إلى ملة واحدة. وكان هذا الاسم هو: هوى (المقطع الأول من ويغور) التي كانت تنطق هويغور في العصور القديمة.

ومنذ ثمانية قرون استقر هذا الوصف لمسلمي الوسط والجنوب، الذين أصبحوا يشكلون مع سلالتهم قومية مستقلة، أضيفت إلى قائمة القوميات العديدة التي تحفل بها الصين.

غير أن الأستاذ عباس العقاد يورد قصة مختلفة لهذه التسمية في كتابه «الإسلام في القرن العشرين». فهو يقول إن أول مجموعة من العرب قدمت إلى الصين، عسكرت إلى جوار قبيلة باسم «هوى شوى» فاصبحوا يميزون باسم تلك القبيلة، حتى ارتبط الاسم بهم بمضي الوقت، فأصبحوا يعرفون باسم «هوى هوى»[20].

والأستاذ العقاد يعتمد في هذه التسمية فيما يبدو على ما ذكره توماس

أرنولد فيما نقله عن تاريخ كوانجتنغ، الذي سبقت الإشارة إليه. وهي التسمية التي لم يقبلها الباحثون الصينيون الذين التقيت بهم.

جسور قبل الإسلام

في معهد اللغات الأجنبية ببكين، يدرسون كتابا عن تاريخ العرب في العصور الوسطى مؤلفه الأستاذ عبد الرحمن ناجونغ، الذي نال العالمية من الأزهر الشريف في عام 1937، وتخصص في التاريخ الإسلامي، و يعمل منذ سنة 1940 والى الآن مدرسا للتاريخ، غاية ما هناك أنه عاد سنة 40 مدرسا للغة العربية في مقاطعة يوننان، وصار الآن مدرسا للتاريخ في أكاديمية العلوم الصينية. وهو يقود الفريق الذي يترجم مؤلفات أحمد أمين، الذي كان أستاذا له في كلية دار العلوم بالقاهرة في منتصف الثلاثينات.

لقد كان الأستاذ عبد الرحمن ناجونغ واحدا من خمسة، هم أول بعثة في العصر الحديث تسافر من الصين للدراسة في الأزهر، على نفقة إحدى الجمعيات الإسلامية الأهلية في مقاطعة يوننان. وقد مات ثلاثة من الخمسة وبقي اثنان، أحدهما لا يزال مدرسا مغمورا في يوننان، والثاني لا يزال يحاول أن يشق طريقه في بكين!

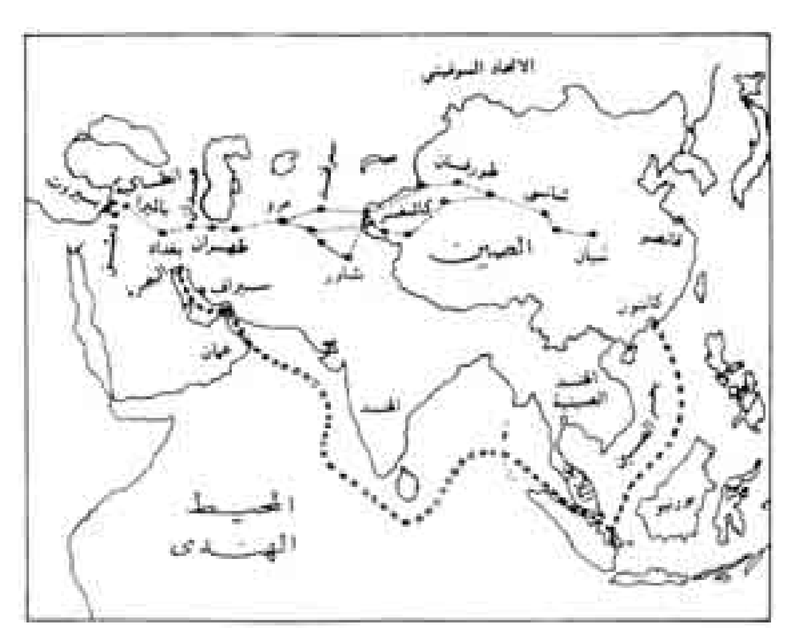
في كتابه يقول المؤرخ الصيني المسلم (ص 126 و 130)، إن علاقات الصين بالعرب سابقة على ظهور الإسلام. وان الإمبراطور وودي بعث في سنة 139 قبل الميلاد تشانغ تشيان سفيرا له إلى الممالك في آسيا الوسطى، لإقامة روابط ودية معها. وزار في سفرته هذه 36 مملكة صغيرة في المنطقة شملت بلاد الفرس والعرب.

وبعده زار فارس والعراق مبعوث آخر هو قان ينغ، بأمر من القائد الصيني بان تشاو. ولما بلغ سواحل الخليج «الفارسي» لم يتمكن من الإبحار إلى الغرب (أي إلى ابعد من العراق) بسبب عدم وجود وسيلة انتقال ولشدة العواصف والأمواج، فعاد بأخبار وافرة عن العالم العربي.

وقد فتحت هاتان الرحلتان الطريق البري للسفر فيما بين الصين والبلاد العربية غرب آسيا، (واضح انهما سافرا بالبر)، وكانت النتيجة أن فتح باب الاتصال بين الصين والعراق وسوريا عبر إيران.

أما العرب-يضيف عبد الرحمن ناجونغ-فقد كانوا على معرفة قديمة

أيضا بالصين، والدليل على ذلك هو الحديث المروي عن النبي (ص): «اطلبوا العلم ولوفي الصين».



خريطة توضح خطوط الاتصال البرية والبحرية بين الغرب والشرق عبر طريق الحرير، ثم عبر المحيط الهندي وبحر الصين.



صورة صينية للرحالة الإيطالي ماركو بولو الذي صار الصين في القرن الثالث عشر، وقطع 4 سنوات ليبلغها من فينيسيا، ثم قضى هناك 17 سنة كاملة.

وعندما قلت له إن هذا الحديث مشكوك فيه، وان ابن قيم الجوزية أورده ضمن الأحاديث الموضوعة، وان الإمامين الألباني والشوكاني اعتبراه موضوعا أو ضعيفا، فهو ليس حديثا صحيحا بأي حال، «لفظه مشهور وأسانيده ضعيفة» [21]، كما جاء في المختصر. عندئذ كان رده أن ذلك لا يغير من حقيقة أن الصين كانت معروفة للعرب في فجر الإسلام. فإذا كان النبي عليه الصلاة والسلام لم يذكر الحديث، فان الذين «وضعوه» في ذلك الوقت المبكرل لاشك يعرفون أن هناك بلدا نائيا اسمه الصين.

وبالمناسبة، قال لي الأستاذ عبد الرحمن ناجونغ إن هناك قصة «موضوعة» حول علاقات للصين بالدين الجديد الصاعد نجمه في الجزيرة العربية على عهد النبي محمد (ص). وتقول هذه القصة إن الصحابي الشهير سعد بن أبي وقاص زار الصين، وأقام في كانتون، وأنه أسس مسجدا في المدينة، بينما قبره لا يزال قائما إلى الآن. وهي قصة مختلقة لا أساس لهما من الحقيقة. وغاية ما يمكن أن يقال في هذا القبر، الذي يعده المسلمون «ضريحا»، إنه لواحد من التجار المسلمين الأتقياء، الذين أقاموا بكانتون، وكان اسمه وقاص.

وأثار انتباهي أمران عندما زرت كانتون في نهاية الرحلة، وذهبت إلى ذلك المسجد الأثرى:

أولا: إن المسجد يحمل اسما لا يخلو من عاطفة جياشة، هو «شوق النبي». ثم إن واجهة المسجد ثبتت عليها لوحة رخامية ذات لون غامق، وقد حفرت عليها هذه الكلمات باللغة العربية، بغير إشارة إلى تاريخها: «هذا أول مسجد في الصين بناه سيدنا وقاص رضى الله عنه. إذ دخل هذه الدار لإظهار الإسلام بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم جدده المتأخرون مرة بعد مرة. والى الآن حفظه الله تعالى عن الآفات «في الأحيان». وهو في الصين مبدأ الإسلام ومنبع العلوم. فينبغي على مسلمي الصين أن يزينوا ظهره بالعمارة الحسنة، ويصلحوا باطنه بإقامة الجماعة، ووضع مدرسة خصوصا على مسلمي هذا البلد. فاعتبروا يا أولى الأبصار. اللهم انصرنا على أعداء الإسلام آمين-التوقيع: الوصي سليمان عبد الكريم».

ثانيا: إن الضريح، الذي أصبح يتوسط المدينة، أقيم وسط حديقة واسعة، وعلى مدخله لافتة كتب عليها روضة أبي وقاص، وحول الضريح اكثر من 50

قبرا لمسلمين آخرين، دونت على شواهدها الآيات القرآنية والأحاديث وعبارات الشفاعة والاعتبار من الدنيا، بينما كتب على بعضها حديث منسوب إلى النبي عليه السلام يقول فيه: من مات غريبا مات شهيدا. الأمر الذي يشير إلى أن هؤلاء من العرب القادمين من ديار المسلمين الأخرى.

وليست معروفة على وجه اليقين ملابسات بناء المسجد والضريح، ولا الظروف التي أحاطت بما كتبه الوصي سليمان عبد الكريم من أن باني المسجد دخل هذه الدار بأمر من رسول الله. لكن المقطوع به أن الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص لم تطأ قدمه هذه البلاد. الأمر الذي يفتح الباب لاحتمالات تشابه الأسماء والاختلاق. وهو ما تتفق عليه السجلات الصينية والقدر المحدود من المراجع العربية.

من الخليفة عثمان بن عفان

على أن تاريخ أسرة تانغ الملكية، التي حكت الصين حوالي ثلاثة قرون (618- 907 م) يتضمن فصلا يعرف باسم (سجل داشى)، الذي يصف جغرافية ومنتجات العالم العربي. وتتفق المصادر الصينية والعربية على أن أول اتصال رسمي بين المسلمين والصينيين كان في فترة حكم أسرة تانغ، وفي عهد الإمبراطور قاوتسنغ عام 651 ميلادية (30- 31 هجرية) [22].

وفي السجلات الصينية أنه في 25 أغسطس (آب) سنة 651 وصل إلى تشايغآن-شيآن اليوم وعاصمة الصين آنذاك وآخر نقطة في طريق الحرير على الجانب الصيني-أول مندوب عربي، مبعوثا من الخليفة عثمان بن عفان، حيث التقى بإمبراطور الصين قاوتسنغ.

وفي تاريخ أسرة تانغ القديمة أن الوفد القادم «من أرض بعيدة جدا نقل إلى الإمبراطور أنباء جزيرة العرب، التي شهدت ظهور نبي بعثه الله من بين العرب، داعيا إلى التوحيد».. و «أن ملكهم يدعى هنجى مومويي (أي أمير المؤمنين) وأن حكومتهم أسست منذ أربع وعشرين سنة، وقد مضى منهم ثلاثة «ملوك»! حتى الآن» [23].

ولكن المصادر الصينية لا تذكر الأسباب التي دعت خليفة المسلمين عثمان بن عفان إلى إرسال وفده للقاء الإمبراطور، كعادتها في إبراز «ابن السماء» باعتباره «القبلة» التي يتوجه إليها الآخرون بالسؤال والتحية. لكن

حقيقة الأمر غير ذلك، فالمصادر العربية والغربية تقول: إن ملك الصين هو الذي بادر بإرسال مبعوثيه إلى خليفة المسلمين. وقد مر بنا أن الطريق كانت سالكة منذ قبل الميلاد فيما بين الصين وبلاد العرب.

وحقيقة القصة أنه بعد هزيمة الفرس والروم على أيدي المسلمين، فان كليهما أرسل إلى ملك الصين يستغيث به، ويهول في خطر قوة المسلمين الصاعدة، مدعيا انهم سوف يسيطرون على طريق التجارة-الذي يهم الصين- ويذكر «الطبري» أن يزدجرد، ملك الفرس أوفد بعد هزيمته في معركة «نهاوند» مبعوثه إلى ملك الصين، وعندما عاد سألوه عما وراءه فقال: لما قدمت على ملك الصين بالكتاب والهدايا كافأنا بما ترون (بهدايا مماثلة) ثم قال لي: قد عرفت أن حقا على الملوك اتحاد الملوك على من غلبهم، فصف لي صفة هؤلاء القوم الذين أخرجوكم من بلادكم، فإني أراك تذكر قلة منهم وكثرة منكم، ولا يبلغ أمثال هؤلاء القليل الذين تصف منكم فيما أسمع من كثرتكم إلا بخير عندهم وشر فيكم. فقلت: سلني عما أحببت. فقال: أيوفون بالعهد؟ قلت: نعم، قال: وما يقولون لكم قبل أن يقاتلوكم؟ قلت: يدعوننا إلى واحدة من ثلاث: إما دينهم، فإن أجبناهم أجرونا مجراهم، أو الجزية والمنعة أو المنابذة، قال: فكيف طاعتهم أمراءهم؟ قلت: أطوع قوم لمرشدهم. قال فما يحلون وما يحرمون؟ فأخبرته. فقال: أيحرمون ما حلل لهم أو يحلون ما حرم عليهم؟ قلت: لا، قال: فان هؤلاء قوم لا يهلكون أبدا حتى يحلوا حرامهم ويحرموا حلالهم. ثم قال: أخبرني عن لباسهم فأخبرته، وعن مطاياهم فقلت: الخيل العراب (الأصيلة)-ووصفتها فقال: نعمت الحصون هذه. ووصفت له الإبل و بروكها وانبعاثها بحملها، فقال هذه صفة دواب طوال الأعناق» [24].

وكتب إمبراطور الصين إلى يزدجرد: «انه لم يمنعني أن ابعث إليك بجيش أوله بمرو وآخره بالصين الجهالة بما يحق علي. ولكن هؤلاء القوم الذين وصف لي رسولك صفتهم لو يحاولون الجبال لهدوها، ولو خلى سربهم أزالوني ماداموا على ما وصف، فسالمهم وارض منهم بالمساكنة، ولا تهيجهم ما لم يهيجوك؟».

وبعد أن ترامت هذه المعلومات إلى مسامع إمبراطور الصين، فان كاوتسنغ أرسل مبعوثيه إلى خليفة المسلمين للوقوف على حقيقة هذه القوة الصاعدة



شاهد أحد القبور العربية القائمة إلى الآن في كانتون. وقد كتب في السطر الأول «هو الحي الباقي» ثم «كل نفس ذائقة الموت».



كتابة بالفارسية والصينية على قبر آخر لواحد من قدامى المسلمين. يقولون إنه الجد الثاني لعائلة «قوه» التي لا يزال أفرادها يعيشون في الصين إلى الآن.



مسجد كانتون «شوق النبي»، اوكوانتا-كما يسمونه-وهو واحد من أقدم ثلاثة مساجد في الصين. بني في عهد أسرة تانغ قبل 1000 سنة.

في الجزيرة العربية. وإزاء ذلك، بعث عثمان بن عفان برسله إلى ملك الصين، للتحية والتبليغ بالدين الجديد. و يذكر هاري هازارد في أطلس التاريخ الإسلامي أن الخليفة أرسل ثلاث بعثات، لا بعثة واحدة، إلى الإمبراطور في تشانغآن. وهو ما يشك فيه الدكتور فيصل السامر في كتابه الأصول التاريخية للحضارة العربية الإسلامية في الشرق الأقصى مشيرا بحق إلى أن حكم عثمان بن عفان شهد في سنواته الأخيرة فترة عصيبة مضطربة، الأمر الذي لم يكن يتيح لأمير المؤمنين أن يتوجه باهتمامه إلى الخارج على هذا النحو. ولا يستبعد أن تكون البعثتان الثانية والثالثة قد أرسلتا بواسطة قادة المسلمين المحليين في المناطق الشرقية المفتوحة. ويسجل توماس أر نولد رواية أخرى حول أول اتصال بين المسلمين وإمبراطور الصين فيقول في كتابه «الدعوة إلى الإسلام» إن الذي استنجد بإمبراطور الصين هو فيروز بن يزدجرد، بعد وفاة أبيه مهزوما وشريدا، فبعث الإمبراطور إلى فيروز يعتذر عن نجدته بحجة بعد الشقة بين بلاد الصين والفرس، وأن الإمبراطور أرسل بديلا عن ذلك مبعوثا إلى خليفة المسلمين للدفاع عن قضية الأمير الهارب فيروز. ولا يستبعد آرنولد أن يكون إمبراطور الصين قد طلب من مبعوثه أن يتقصى أحوال هذه القوة الجديدة. وفي عودته أرسل عثمان بن عفان أحد قادة المسلمين ليرافق مبعوث إمبراطور الصين، فاكرم الإمبراطور وفادته [25].

ورواية السيد آرنولد لم تذكر لا في تاريخ الطبري، ولا عند البلاذري في فتوح البلدان ولا المسعودي في مروج الذهب. لكنه أيا كان الخلاف في التفاصيل، فإنه من الثابت أن أول اتصال إسلامي صيني قد تم في تلك الفترة، وفي عهد عثمان بن عفان.

وتذكر المصادر الصينية أن المبعوثين العرب وفدوا إلى الصين طوال حكم أسرة تانغ، 37 مرة [26]. وقد دام حكم هذه الأسرة حوالي ثلاثة قرون، وهي فترة تغطي عهد الخليفتين عثمان وعلي، والعصرين الأموي والعباسي.

وأبرز السفارات العربية في تلك الفترة هي بغير شك تلك التي أوفدها القائد العربي العظيم قتيبة بن مسلم الباهلي فاتح أواسط آسيا، الذي وصلت قواته إلى كاشغر على حدود الصين وقتئذ، واستولت عليها الصين فيما بعد، (وهي جزء منها الآن)، وكان ذلك في عام 96 هجرية، أي في

أواخر عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك.

وقد أغفلت المصادر الصينية أيضا ذكر هذه الواقعة الهامة، لنفس السبب الذي من أجله أسقطت سفارة ملك الصين إلى عثمان بن عفان. ودواعي الإغفال هنا أشد، لأن الموقف أكثر حرجا. فثمة قائد عربي زاحف بجحافله يدك الحصون وتعسكر قواته على أبواب الصين.

يفصل الطبري وابن الأثير في ذكر الواقعة:

يقول ابن الأثير [27]: «إن قتيبة بعث جيشا مع كبير بن فلان-أحد رجاله- إلى كاشغر. فغنم وسبى سبيا. فختم في أعناقهم وأوغل حتى بلغ قريب الصين. فكتب إليه ملك الصين: إن ابعث إلى رجلا شريفا يخبرني عنكم وعن دينكم فانتخب قتيبة عشرة لهم جمال وألسن وبأس وعقل وصلاح. فأمر لهم بعدة حسنة ومتاع حسن من الحرّ والوشي وغير ذلك، وخيول حسنة. وكان معهم هبيرة بن المشمرج الكلابي. فقال (قتيبة) لهم: إذا دخلتم عليه فاعلموه أني قد حلفت أني لا أنصرف حتى أطأ بلادهم وأختم ملوكهم وأجبي خراجهم».

يضيف الطبري [28]: «فلما قدموا أرسل إليهم ملك الصين يدعوهم. فدخلوا الحمام ثم خرجوا، فلبسوا ثيابا بيضاء تحتها الغلائل، ثم مسوا الغالية وتدخنوا ولبسوا النعال والأردية، ودخلوا عليه، وعنده عظماء مملكته، فجلسوا فلم يكلمهم الملك، ولا أحد من جلسائه، فنهضوا...

«فلا كان الغد أرسل إليهم فلبسوا الوشي وعمائم الحرّ والمطارف وغدوا عليه. فقيل لهم: ارجعوا فلما كان اليوم الثالث أرسل إليهم فشدوا سلاحهم ولبسوا البيض والمغافر وتقلدوا السيوف وأخذوا الرماح وتنكبوا القسي وركبوا خيولهم وغدوا. فنظر إليهم صاحب الصين فرأى أمثال الجبال مقبلة، فلما دنوا ركزوا رماحهم، ثم اقبلوا نحوهم مشمرين، فقيل لهم قبل أن يدخلوا ارجعوا. فلما أمسى أرسل إليهم الملك أن ابعثوا إلي زعيمكم وأفضلكم رجلا فبعثوا إليه هبيرة. فقال له حين دخل عليه: قد رأيتم عظيم ملكي وأنه ليس أحد يمنعكم مني وأنتم في بلادي وإنما أنتم بمنزلة البيضة في كفي، وأنا سائلك في أمر فان لم تصدقني قتلتكم، قال: سل، قال: لم صنعتم ما صنعتم من الزي في اليوم الأول والثاني والثالث؟!؟

قال: أما زينا الأول فلباسنا في أهالينا وريحنا عندهم، وأما يومنا

الثاني فإذا أتينا أمراءنا، وأما اليوم الثالث فزينا لعدونا.. قال: ما أحسن ما دبرتم في دهركم فانصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له ينصرف، فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه. قال له: كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون؟ (يقصد شواطئ البحر الأبيض المتوسط) وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا قادرا عليها وغزاك؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فان لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه، قال: فما الذي يرضي صاحبك؟ قال: إنه قد حلف أن لا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويُعطي الجزية، قال: فإننا نخرجه من يمينه، نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه، ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم (رمزا للأسر) ونبعث إليه بجزية يرضاها. قال: فدعا بصحاف من ذهب فيها تراب، وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم، ثم أجازهم فأحسن جوائزهم فساروا فقدموا بما بعث به، فقبل قتيبة الجزية وختم الغلمة وردهم، ووطئ التراب»!

وفي ذلك قال سوادة بن عبد الملك السلولي:

لا عيب في الوفد الذين بعثتهم
للصين أن سلكوا طريق المنهج
كسروا الجفون على القذى خوف الردى
حاشى الكرم هبيرة بن مشمرج
أدى رسالتك التي استرعيته
فأتاك من حنث اليمين بمخرج

وثمة واقعة أخرى ليست أقل أهمية تسقطها السجلات الصينية، ولا تأتي لها على ذكر، ولو أن الإمبراطور هنا ليس مهددا من جانب قائد عربي، ولكنه مستغيث بخليفة المسلمين.

ففي منتصف القرن الثامن الميلادي تعرضت الإمبراطورية لتمرد كبير قاده الثائر (شي غولي) مما اضطر إمبراطور الصين «هس وان تسنغ» إلى التنازل عن عرش لابنه «سو»، الذي استغاث بالخليفة العباسي المنصور، عالما بالصلات الوثيقة المتنامية بين الحكام المسلمين والبلاط الصيني، وبالقوة المتعاظمة لجيش المسلمين (29).

لم يتردد أبو جعفر المنصور في الاستجابة لاستغاثة ابن الإمبراطور،

وأرسل إليه بعضا من وحدات جيش المسلمين، قيل إنهم حوالي 4 آلاف رجل، نجح بمساعدتهم في استرجاع عرشه، الأمر الذي أدى إلى تعميق الصلات بين العباسيين وإمبراطور الصين من ناحية، وترتب عليه أيضا أن استبقى الإمبراطور هؤلاء الجنود، فتزوجوا من صينيات، واسهموا-من ناحية ثانية-في غرس بذور سلالة الصينيين العرب المسلمين. و يقال الآن إن مسلمي جنوب ووسط الصين هم أحفاد جنود قتيبة بن مسلم فاتح كشغر وهذه المجموعة من الجنود الذين أوفدهم المنصور لإنقاذ عرش الإمبراطور

وتشير سجلات أسرة تانغ إلى أن الدولة كانت تدفع لأسر الجنود المسلمين الذين أوفدهم المسلمون واستبقاهم الإمبراطور خمسمائة ألف أوقية من الفضة كل سنة، وهو عطاء فرضته الدولة على نفسها مكافأة لهم على نجدتهم للعاهل سوتسنغ.

ولم يكن الجنود هم كل الذين وفدوا إلى بلاد الصين من العالم العربي في ذلك الحين. لأن ثمة إشارات عديدة في المراجع التاريخية إلى أن بعض الشيعة العرب الهاربين من خراسان، بسبب بطش الحكم الأموي، قد وصلوا إلى بلاد الصين قبل منتصف القرن الثاني الهجري. ويذكر توماس أرنولد في كتابه أن المؤرخ المرزوي أكد هذه الحقيقة، وقال إن هذه الجماعة من الشيعة كانت موجودة في الفترة التي عاصرها-أوائل القرن السادس الهجري والثاني عشر الميلادي-وأضاف انهم كانوا يعملون كوسطاء تجاريين بين الصينيين والأجانب.

ويبدو أن المسلمين كان لهم وجود مؤثر في كانتون خلال تلك الفترة، حتى إن المؤرخ الفرنسي كورديب يذكر في كتابه «مسلمو يوننان» إن التجار المسلمين بالمدينة ثاروا على الحكومة سنة 758 م، بسبب ضريبة أرهقتهم، «فنهبوا البلدة وأحرقوها وخرجوا»-على حد قوله-ولكنهم رجعوا بعد ذلك لأن العلاقات التجارية لم تنقطع بين سيراف وكانتون [30].

وجاءت سفارات العرب

وقد ظل مؤشر العلاقات العربية الصينية في تصاعد بعد ذلك..

فبعد فترة من ذهاب أسرة تاخ، تولت السلطة أسرة سونغ (967 هـ-1168م) التي تشير سجلاتها إلى أن 49 بعثة عربية وفدت من حكام المسلمين

إلى بلاط الإمبراطور خلال عهدها، الذي استمر قرنين من الزمان [31].

ويسجل تاريخ داشي في عهد سونغ «أنه أوفد من بلاد داشي 17 سفارة إلى أسرة سونغ في الفترة ما بين سنتي 968 هـ-1063م، حيث استقبلت استقبالا حارا، ولقيت احتراما بالغا من قبل حكومة سونغ. وقد منح السفير ليكوم (يعتقد انه عبد الرحيم) لقب (القائد)، وتلك ألقاب لم تكن تعطى لغير الصينيين، وحتى الصينيين ما كانوا ليحصلوا على أي لقب رفيع أو وظيفة إلا بعد أن يجتازوا امتحانات شاقة وعسيرة. كذلك نال سائر العرب ألقابا تليق بهم، وسمح لهم أن يتجولوا في عاصمة سونغ (البقاء في العاصمة والتجول فيها كانا محظورين على الأجانب) وكانت العاصمة وقتذاك هي مدينة بيانليانغ (مدينة كايفنغ، مقاطعة خنان حاليا) [32].

وبسبب تنامي الرواج التجاري بين الصين وبين العرب والفرس، اتخذت أسرة سونغ عدة إجراءات لتوسيع نطاق التجارة الخارجية، فأنشأت دائرة للتجارة والملاحة في كانتون أو خانفو، وتسي تون (التي ذكرها ابن بطوطة على إنها مدينة الزيتون، وتسمى الآن تشيوا نتشو). كما أنشئت دوائر مماثلة في عدد آخر من المدن التجارية الساحلية والحدودية.

وشرعت حكومة سونغ في توثيق العلاقات مع التجار العرب، فأوفدت مبعوثين محملين بالهدايا إلى بلدان فارس والعرب، الأمر الذي شجع كثيرين من هؤلاء التجار على القدوم إلى الصين. وتذكر السجلات الصينية أن التاجر العربي أبو ياطل (ربما كان أبو نائل) دعى للقاء إمبراطور سونغ، الذي «خلع عليه حللا وقلنسوة متوجة، وحزاما مرصعا، وأثاثا وما إلى ذلك. كما سمح له بان يسكن في العاصمة للاستجمام عدة شهور، وذلك امتياز خاص جدا» [33].

و يذكر أبو الحسن السيرافي، التاجر العربي الذي دون معلوماته عن الصين والهند في تلك الفترة، أن عراقيا اسمه ابن وهب زار الصين، فاستقبله الإمبراطور وأغدق عليه الكثير من الهدايا، ومنحه امتيازا استطاع بمقتضاه أن يذهب إلى خانفو (كانتون) ممتطيا بغل البريد! [34].

وفي المصادر الصينية أن تساي جينغ فانغ، من مسئولي دائرة التجارة والملاحة بمدينة تسي تون نجح في مساعدة التاجر العربي أبي روشين (ربما كان أبو لاشين) على فتح متجر لبيع العطارة بالمدينة عام 1136، وأطلق

عليه اسم ابن الأمين. وأهدته الحكومة هدية ثمينة، رحلة رسمية ولوحة عاجية [35].

وتشجيعا للتجارة التي كانت مقصورة على المسلمين في ذلك الحين، سنت حكومة سونغ قانونا يعاقب كل من يسيء إلى التجار الأجانب، ويقضي بعزل الموظفين الصينيين المختصين من مناصبهم إذا صدرت عنهم هذه الإساءة. كما يقضي بمحاكمة كل من يشارك في خطف تاجر أجنبي أو انتهاك حرمته.

وكانت اكبر تجمعات العرب المسلمين طوال عهد أسرة سونغ في كانتون (خانفو)، وتسي تون (مدينة الزيتون-تشيوانتشو)، حتى بلغت أعدادهم 10 آلاف عربي في كل من هذين الميناءين خلال القرن العاشر. وتقول المصادر الصينية [36] إن الأثرياء العرب أنفقوا الكثير من اجل تعمير تسي تون، وان العربي (أبو شوقي) انتخب رئيسا لدائرة التجارة والملاحة، وتولى مقاليد التجارة الخارجية طوال 30 سنة.

وفي تلك الفترة أنشىء مسجد تسي تون الكبير-في شارع تونغهواي الآن-الذي تنتصب بوابته على ارتفاع 20 مترا، وقد بني على طراز المسجد الأموي بدمشق. وفي جداره نحتت لوحة تقول إن العرب بنوه في سنة 400 هجرية (1009 م) ثم قام بترميمه أحد المسلمين القادمين من القدس، اسمه أحمد، عام 710 هـ-1310 م. وفي جنوب شرق المدينة، خصص تاجر عربي-اسمه الشناوي-قطعة أرض لدفن موتى المسلمين، مازالت باقية إلى الآن بشواهدها التي تحمل كتابات عربية-آيات وأحاديث ومرثيات-وخضرة باتت تكسوها، بعدما تحولت إلى «حديقة أثرية»! [37]

شهادة من سفينة غارقة

والمكتشفات الأثرية في السنوات الأخيرة عززت فكرة وجود جسور اتصال قوية بين بلاد داشى وبلاد الأسرار، خصوصا في عهد الدولة العباسية.

ففي أغسطس من عام 1974 عثر في قاع خليج تسي تون-أو تشيوا نتشو الآن-على سفينة خشبية بحالة جيدة، يرجع تاريخها إلى ما بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر. وبدا واضحا لأول وهلة أنها سفينة تجارية، إذ

كانت من النوع الكبير، أو الضخم بمعايير القرن الثاني عشر. إذ بلغ طولها 24 مترا وعرضها 9 أمتار وربعا. وعثر في مقصورتها على بقايا خشب الصندل المعطر وعقاقير طبية ولبان وفلفل، ودرع سلحفاة، وبخور وعنبر. كما عثر في الجزء المطمور من السفينة على لوحة خشبية كتب عليها اسم «علي»، ربما كان اسم صاحب السفينة، أو أحد التجار العرب الكبار [38].



خريطة تاريخية، تحدد خطوط مواصلات تشيوانتشو مع العالم الخارجي في عهد أسرة سونغ.

وبعض محتويات السفينة من منتجات بلاد العرب، الأعشاب الطبية واللبان، الذي اشتهرت به مناطق عمان في ذلك الزمان. وبعضها-مثل الصندل الأحمر-واضح انه تم نقله من أماكن أخرى-سواحل أفريقيا مثلا-لحساب التجار الصينيين، غير ما كان ينقل عادة من سواحل فارس والهند.

ومنذ سنوات عديدة أيضا عثر في أطلال مدينة الفسطاط جنوب القاهرة، على الألوف من أواني القيشاني الصيني. وثبت من الفحوص أنها من منتجات محافظة يوبياو بمقاطعة تشجيانغ في أسرة سونغ. ونقلت إلى مصر على يد التجار العرب، عبر الشام.

وتبين أيضا أن الخزف الصيني وصل إلى مصر على عهد احمد بن طولون-حاكم مصر في منتصف القرن التاسع الميلادي. ثم قام المصريون بتقليده في عهد الدولة الفاطمية (969- 1170م) وبلغ هذا التقليد ذروته في عصر المماليك (1250- 1517م).

وفي سامراء بالعراق، عثر في الحفريات على أوان عربية صنعت على الطراز الصيني في العصر العباسي، كما عثر على أعداد من خزف الصيني، وردت إلى سامراء مع السفراء الصينيين أو من خلال التجار.

وعبر هذه الجسور التي كانت تنقل التجارة بين الشرق والغرب، لم ينقل العرب الحرير والخزف والشاي فقط. ولكنهم نقلوا معها أيضا صناعة الورق والبارود والإبرة المغناطيسية إلى بلاد العرب. وفي الكتابات الصينية أن أول مصنع للورق أنشىء خارج الصين على أيدي العرب كان في بغداد عام 794 م وان الطباعة دخلت بغداد في الفترة ذاتها، ثم انتقلت صناعة الورق إلى دمشق ثم القاهرة والإسكندرية ومنها إلى صقلية ثم إسبانيا وأوروبا [39].

وبالمقابل نقل العرب إلى الصين علوم الطب والرياضيات والفلك. فنجحت الصين في زراعة الأعشاب الطبية الواردة من بلاد العرب. حتى عرفت اللغة الصينية بعض أسماء العقاقير الطبية المتداولة عند العرب، والأحجار الكريمة مثل: روشيانج (اللبان العربي) ودواء موياو من «المر العربي»، وخلوصبا (الحلبة)، و يابلو من جذور الداتورة (من النباتات الطبية) حتى (التربة) فإنها تنطق بالصينية (توبا)، ومن الأحجار الكريمة ياقو (الياقوت) وزمولا (الزمرد) [40].

وفي عصر أسرة سونغ، كان اسم ابن سينا قد لمع في سماء العالم الإسلامي كعالم وطبيب طبقت شهرته الآفاق. وسرعان ما نقلت مؤلفاته ووصفاته الطبية إلى الصين، فدخلت معها ألفاظه الطبية والصيدلانية. ومضت صناعة الطب في الصين على نهج ابن سينا، حتى راحوا يستوردون الأدوية الحبوبية التي كان يصفها، و يقتبسون موادها، و يطورونها.

لذلك لم يكن غريبا أن تقيم الصين احتفالا كبيرا في عام 1952، في ذكرى مرور ألف سنة على ميلاد ابن سينا، قدمت فيه العديد من الأبحاث التي تناولت سيرته وعمله، وكان على رأسها بحث موضوعه: ابن سينا والطب الصيني [41].

ويرى بعض الباحثين الصينيين أن «خيال الظل» منقول إلى البلاد العربية عن الصينيين، كما أن لعبة «السيجة» المعروفة في بلادنا، دخلت إلى الصين على أيدي العرب [42].

وتتفق اكثر الكتابات-عند الصينيين والعرب والأجانب-على أن الوجود الإسلامي حتى أسرة سونغ كان محصورا في الوافدين من بلاد العرب، سواء الذين وفدوا للتجارة، وسكنوا في أحياء خاصة بهم تناثرت في الموانىء البحرية والبرية. أو أولئك الذين استوطنوا مثل بقايا جيش قتيبة أو الجيش الذي أوفده المنصور لمساعدة وإنقاذ عرش إمبراطور الصين. ولم تشر هذه الكتابات إلى صينيين دخلوا الإسلام عن قناعة واختيار، وتلك ملاحظة هامة لها تفسيرها الذي سوف نتوقف عنده فما بعد.

أسرة يوان تفتح الأبواب

على أن ثمة إجماعا بين السجلات الصينية والكتابات العربية والأجنبية على أن الإسلام حقق قفزة أوسع في الصين في ظل عصر مملكة يوان المغولية (1271- 1368 م) التي تربعت على عرش الصين بعدما أطاح قوبلاي خان-حفيد جنكيز خان-بحكومة أسرة سونغ [43].

وهناك تفسيران لهذه الظاهرة أحدهما: أن قفزة الإسلام في الصين هذه إنما هي تعبير عن اتساع حجم المصالح التجارية بين بلاد العرب والصين، أي أنها كانت تعكس مدى تنامي العلاقات الاقتصادية بين الجانبين.

والتفسير الثاني: أن المغول كانوا في الأساس بغير دين، أو قل إن دينهم كان يقوم على عبادة نجمهم السعيد، مع السعي الذي لا يكل ولا يمل إلى استنزاله من السماء، وذلك على عكس الأسر التي حكمت الصين قبلهم، وكانت تدين بالبوذية وتتعصب لها رافعة شعار «لا دين غريب في الصين». وبسبب موقف المغول من قضية الدين، فانهم لم يترددوا في أن يتساهلوا مع حملة الأديان الأخرى. ولأنهم شعب وافد من الخارج بالغزو، فقد كان يهمهم أحداث قدر من توازن القوى داخل الصين. عن طريق فتح الباب لظهور قوى جديدة على سطح المجتمع، مما يدعمهم ويثبت أقدامهم، وربما يضعف-من ناحية أخرى-القوى الصينية التي قد تتحالف ضدهم.

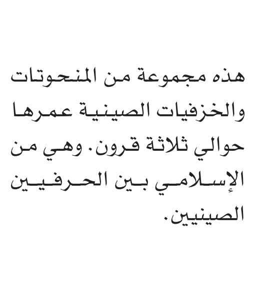
وإذا أضفنا إلى ذلك أن الترك كانوا قد دخلوا الإسلام في تلك الفترة، وهم المعروفون بأنهم المقاتلون الأشداء. فان فتح أبواب الصين لهم قد يحقق هدف مساندة الحكم المغولي، وهو ما أقدم عليه المغول فعلا.

ورغم أن كلا من الرأيين له وجاهته، فانه من المقبول أيضا أن يكون

اجتماعهما معا قد ساهم في أحداث هذا التغيير الذي شهدته الصين في ظل أسرة «يوان». أعني أن يكون النمو الطبيعي للمصالح العربية الصينية، قد توافق مع هذه المصلحة التي ربما ارتآها المغول في فتح أبواب الصين للمسلمين، مما افرز تلك النتيجة التي نحن بصددها.







هذه مجموعة من المنحوتات والخزفيات الصينية عمرها حوالي ثلاثة قرون. وهي من الإسلامي بين الحرفيين الصينيين.





وهناك عامل آخر ساهم في تكثيف عدد المسلمين بالصين خلال فترة الحكم المغولي، يتمثل في حقيقة أن المغول الذين استولوا على عرش الصين كانوا هم الذين اجتاحوا أواسط آسيا، ووصلوا إلى بغداد ودمشق، مرورا ببلاد ما وراء النهر وخراسان و بلاد فارس، وكلها ديار للإسلام في ذلك الزمان. وكان المغول يجندون المسلمين في صفوفهم-من عرب وفرس وأتراك- فضلا عن الزراع والصناع الذين اكرهوهم على الانتقال معهم، وكان بعض هؤلاء يجبر على الذهاب إلى الصين مع المغول، حيث بقوا ضمن جيوشهم، واستوطنوا هناك بمضي الوقت.

وأبرز أباطرة المغول الذين يرتبط اسمهم بالمد الإسلامي في الصين هو قوبلاي خان (1215- 1294 م)، الذي انقلب على المسلمين في بادئ الأمر، بسبب وشايات قيل إن مصدرها ابن أخيه (أباقا)-وهو ابن هولاكو الذي قضى على الخلافة العباسية-وكان أباقا متزوجا من مسيحية، أوغرت صدره ضد المسلمين، فمضى بدوره يحذر عمه قوبلاي خان منهم ويحرضه ضدهم. فجردهم من حقوقهم وامتيازاتهم القديمة. حتى في شئون أحوالهم الشخصية أجبرهم على اتباع أحكام (الياسا) التي وضعها جنكيز خان، بعد أن كان للمسلمين قضاة يتولون شئونهم. وأمر قوبلاي بإنزال الأئمة من المنابر، واكره المسلمين على أكل اللحوم المخنوقة على طريقة المغول [44].

غير أن قوبلاي خان اكتشف بعد سبع سنوات من ممارسته لهذا الاضطهاد إن المسلمين خرجوا تباعا من الصين إلى جزائر الهند الشرقية، وامتنعوا عن التجارة مع الصين. وتوجهت مراكبهم من جزر الهند الشرقية إلى العراق ومصر، الأمر الذي أدى إلى نقص واضح في واردات حكومته، وهو ما اضطره إلى التراجع عن قراراته واحدا تلو الآخر. وفي محاولة لاسترضائهم، فانه بنى لهم مسجدا في (خان بالق)-بكين الآن-قيل إنه كان يسع مائة ألف.

وثمة إجماع على أن عهد أسرة يوان لم يشهد فقط حرية أوسع للمسلمين في الحركة وارتقاء المناصب، ولكنه شهد أيضا انفتاحا أوسع على العالم الإسلامي في المجالين التجاري والثقافي. فتجاريا زاد الرواج ونشطت حركة السفن والقوافل فيما بين الشرق والغرب، أما ثقافيا فان كتب علماء المسلمين وفي مقدمتها مؤلفات ابن سينا في الطب أصبحت تترجم إلى

الصينية على أيدي الأطباء الصينيين المسلمين أو ذوي الأصول العربية. وكانت وصفات ابن سينا الطبية قد سبقته إلى الصين قبل سنوات.

وفي فهرست كتب الهويين-مسلمو مناطق الوسط والجنوب الصينيون- وهو مخطوط محفوظ بمكتبة بكين، كثير من الكتب العربية المنقولة إلى الصينية، وتختص جميعها بالصيدلة والطب والكيمياء والفلك وغيرها من العلوم.

في عصر أسرة يوان أيضا أنشئت «دار النعمة»-عام 1270م-التي تخصصت في صناعة الأدوية لمعالجة المرضى من حراس القصر والرعايا الفقراء في العاصمة. وعين لإدارة هذه الدار والإشراف عليها طبيب عربي مشهور اسمه «يوسف». وعمل في هذا المستشفى عدد من الأطباء العرب، وتبع تلك المؤسسة العلاجية «دار الهويين للأدوية والمعالجة» في بكين، وأخرى في منغوليا عام 1292م.

وفي مكتبة جامع بكين اليوم بقايا موسوعة طبية ألفت في تلك المرحلة، تحتوي على ستة وثلاثين جزءا، لم يبق منها سوى أربعة أجزاء. وردت فيها أسماء الأدوية المنقولة إلى الصينية من العربية. وقد اعتمد مؤلف هذه الموسوعة في ترتيب الأسماء وتصنيفها على طريقة ابن سينا في كتابه القانون. واغلبها مترجم عن العربية، بمساعدة الأطباء العرب المقيمين في الصين، نقلا عن عدد من الكتب على رأسها كتاب «القانون»، لابن سينا الذي غدا قانون الطب في الصين.

مسلمون في مقدمة الصفوف

تذكر دائرة معارف القرن العشرين [45] إن قوبلاي خان عين وزيرا مسلما في حكومته، اسمه احمد البناكتي (أهاما بالصينية).

من ناحية أخرى فان بعض العرب الذين استقروا في تلك البلاد تلقوا التعليم الصيني، واجتازوا الامتحان الرسمي للخدمة بالحكومة، وأصبحوا من كبار الموظفين. ومنهم شقيقان مسلمان أحدهما بوشوشنغ الذي عين قاضيا، ونظم ديوانا من الشعر الكلاسيكي، والآخر شوقنغ الذي كان مساعدا لرئيس وزراء قوبلاي خان. و يذكر الأستاذ عبد الرحمن ناجونغ في كتابه عن تاريخ العرب هذين الاسمين بالنطق الصيني، ولكنه لم يشر إلى الاسم

العربي لكل منهم للأسف.

ويتضمن سجل طبقة الأعيان الملكي لأسرة يوان أسماء اكثر من مائة شخص من المسلمين بلغوا رتبا رفيعة، استحقوا معها أن يضموا إلى السجل. وتشير وثائق الأسرة انه في سنة واحدة (1333 م) حصل عشرة من الشبان المسلمين على الشهادة العلمية الملكية العليا، بعدما اجتازوا امتحانها الشاق.

وتتناثر في مختلف الكتب والأبحاث التاريخية أسماء مثل عبد الرحمن الذي اختير رئيسا على بيت المال، وخوّل حق تقدير الضرائب المفروضة على الصين، وقطب الدين أو (يوتنغ) الذي كان وزيرا للملكة في سنة 1302 م [46]. و يسجل الرحالة البندقي ماركو بولو في مذكراته أنه التقى في الصين عام 1296م باثنين من كبار المهندسين المسلمين، هما علي الدين الموصلي (نسبة إلى الموصل بالعراق)، وإسماعيل الهروي (نسبة إلى هراة في أفغانستان الآن). و يذكر أن الأمير جهاندار (سيانتار بالصينية) دخل اقيلم يونان سنة 1283م، ومعه قائدان مسلمان، أحدهما ناصر الدين بن عمر أو (ناسولا تنغ).

ومن المسلمين الذين برزوا في الحياة الصينية خلال عهد أسرة يوان جمال الدين الفلكي، الذي يرجع إليه الفضل في وضع تقويم جديد، واختراع سبعة أجهزة فلكية أهداها إلى الإمبراطور، لا تزال تحمل أسماء عربية إلى الآن، هي: ذات حلق، وذات سموت، ولخمة معوج، ولخمة مستوى، وكرة السماء، وكرة الأرض، والإسطرلاب [47].

ومنهم أيضا سعد الله الشاعر الشهير، الذي يطلق عليه الصينيون اسم تيان شي. أو تشي تشاي، وقد تقدم في سلك الوظيفة حتى نال-بعد الامتحان- إحدى درجاتها الرفيعة التي تعرف باسم (جينشي)، مما أتاح له فرصة تولي مناصب الدولة العليا، حتى أصبح مسئولا عن الإسكان والبلديات في مدينة جينكو (تشنجيانج الآن) وتشير إليه الكتابات الصينية باعتباره الرجل الذي «نظم الأسواق وحدد المقاييس والمكاييل والموازين، حتى استقامت أمور البيع والشراء وشهدت الأسواق النظام التام».

..وتذكر الكتابات الصينية [48] انه عندما نزلت كارثة طبيعية سنة 1329 م، طلب سعد الله من والي المدينة نجدة الشعب بكل ما في المستودعات من حبوب، الأمر الذي أدى إلى إنقاذ 800 ألف نسمة من المجاعة.. وذات مرة

«أجبر والي المدينة الذين يسكنون قرب داره على نقل بيوتهم إلى مكان آخر، فنهض سعد الله ليساعدهم على استئجار منازل جديدة، حتى انه رهن إبريقه الفضي من أجل ذلك، فأحرج الوالي ايما حرج. وكان خدم الوالي يظلمون الناس اعتمادا على نفوذ سيدهم. فتصدى لهم سعد الله، وانزل بهم العقاب حسب القوانين، غير عابىء بما سيكون عليه أمر الوالي».

(لاحظ الصورة التي تقدم بها الشخصيات الإسلامية في مطبوعات الإعلام الصيني الآن) وغير هذا وذاك، فان سعد الله لا يذكر باعتباره موظفا ممتازا فقط، ولكنه يذكر أيضا باعتباره شاعرا بارزا، خلف سبعة دواوين، كلها تعبر عن آلام الناس وحياتهم البسيطة وتطلعاتهم نحو غد افضل واكثر إشراقا.

والى جانب هذه الكوكبة من الأسماء التي لمعت على سطح الحياة الصينية خلال حكم أسرة يوان، يذكر أيضا الشاعر الويغوري يوسف خاس صاحب ديوان الشعر المعروف باسم جالب البركة.

وقاوكه تونغ الرسام، والعالم شمس الدين الذي عرف بتعمقه في الأدب والتاريخ والفلسفة والفلك والجغرافيا. والمهندس اختيار الدين الذي قام بتخطيط البلاط الإمبراطوري في (دادو) عاصمة أسرة يوان (بكين اليوم).

سيرة السيد الأجل

لكن «السيد الأجل» هو الذي طبقت شهرته الآفاق بين المسلمين الذين اشتهروا في عصر تلك الأسرة المغولية.

والسيد الأجل هو اسم شهرة، اكتسبه الرجل لشدة ما عرف عنه من نزاهة وفطنة وكفاءة. واسمه الحقيقي هو عمر شمس الدين، ويقال انه من آل البيت، وأنه قدم إلى الصين من بخاري. وقد استرعت سيرته بعثة علمية فرنسية، عرفت باسم بعثة أولون، زارت الصين في الفترة ما بين 1906 و 1909. وتقصت أحوال المسلمين، ونشرت نتائج تحقيقاتها في باريس بعد العودة [49].

وقد عثرت البعثة في مقاطعة يوننان الصينية، التي كان «السيد الأجل» حاكما لها، على مخطوط يرجع تاريخه إلى عام 1684 م، يسجل صفحات من تاريخ هذا المسلم البارز الذي لمع أثناء حكم أسرة يوان.

وفي الخطوط أن السيد الأجل التقى بجنكيزخان عندما زحف إلى الغرب، حيث دخل في طاعته ومعه ألف فارس، وأصبح قريبا من القائد المغولي، الأمر الذي فتح له باب ترقي المناصب، حتى أعطاه الإمبراطور قوبلاى خان رتبة الوزارة، وجعله عضوا في مجلس أمانة السر الأعلى. وفي كل موقع تولاه كانت مواهبه في السياسة والإدارة تمكنه من أداء مهمته على أفضل وجه. حتى عينه الإمبراطور حاكما على مقاطعة يوننان، التي كانت تعاني من حالة تخلف مروع، فتصدى السيد الأجل لبناء المدارس وشق الطرق والجسور والسدود. وأزال المغارم والمظالم وأبطل السخرة وشيد ملاجئ للأيتام والعجزة وخفف المكوس واحدث «انموذجات» زراعية يحتذى على مثالها. وحفر الآبار وأقام الأسواق وأدخل في طاعة الدولة مالا يعد ولا يحصى من الأقوام. وأثناء وجوده في تلك الولاية عمر مساجد للإسلام، ولكنه شيد أيضا معابد لكونفوشيوس وبوذا. «وكانت ولايته تضم عشرين مقاطعة، فيحدها من الشرق سونغ، ومن الغرب بيرمانيه، ومن الشمال التبت، ومن الجنوب آنام. وبحسن سياسة السيد الأجل خضع ملوك التونكين وآنام لسلطان الصين.

ويرسم مؤلف، حاضر العالم الإسلامي، صورة وافية نسبيا لما كان عليه السيد الأجل، هو وسلالته جديرة بالقراءة والتأمل، فيقول:

كان سائر العمال يقتدون بسيرة السيد الأجل و يتباهون بأعماله فأمنت السوابل واستراحت الرعية وساد العدل، وفاضت الخيرات وعمرت البلاد. أما آثاره في الزراعة فلا تزال بقاياها إلى الآن وان كثيرا مما بناه من الجسور لا يزال قائما إلى يومنا هذا.

«وكانت منطقة تشاوتيان تطغى عليها الأنهار فتتحول إلى بحيرة، فحفر السيد الأجل نهرا حدر إليه تلك المياه كلها فصرفها عن الأراضي التي كان الماء يغمرها من قبل. وحفر ترعا كثيرة وخلجا لسقيا البقاع المحتاجة إلى الري. وجعل بريدا مؤلفا من 360 فارسا وحراسا بقدرهم يسهرون على السدود بحيث إذا حصل فتق في أحدها أسرعت البرد بأخبار الحكومة، فجمعت الحكومة الأهالي ونهضوا لرتق الفتق».

«ومات السيد الأجل سنة 1279 م فكان له مأتم عم الصين بأسرها. وذبحت القرابين في بلاط الإمبراطور. وخلف خمسة أولاد و 19 حفيدا،

فكان خلفه في الإمارة ابنه ثم ابن ابنه وتداول أحفاده الإمارة وكانوا جميعا اعضاءا للسلطة».

«وفي عهد أسرة «مينغ» راجع الإمبراطور «تاي تسوكاو هوانغ تي» (1368-1399) تراجم وزراء الدولة السابقة فلم يجد بينهم في الحكمة والعدل والرفق بالرعية ووفرة آثار العمران مثل السيد الأجل، فأمر بتسجيل سيرته في كتاب خاص بقيد المآثر اسمه «ين تشه شو» وان يدرس هذا الكتاب للطلبة وينشر في أنحاء الصين. وقد ثبت هذا الإمبراطور لقب السيد الأجل وهو الأمير الأمين المحسن وأمر ببناء هياكل تذبح فيها القرابين عن روحه».

«وسنة 1405 صدر أمر الحكومة الصينية بتأليف سيرة للسيد الأجل بقلم تشينغ هو ويوجد في بلاد يوننان هيكل باسم الأمير «هسين يانج» وهو لقب السيد الأجل عند الصينيين».

«ولا تزال سلالة السيد الأجل قائمة إلى اليوم (الحديث عن الربع الأول من القرن الحالي) وأسرته معروفة منذ 850 سنة. وأما أولاده الخمسة فأولهم نصير الدين، والصينيون يقولون له ناسولا تينغ، صار وزيرا للدولة ثم واليا على شنسى ثم على يوننان ومات سنة 1292. والثاني حسن صار قائدا عاما لجيوش كوانغ تونغ والثالث حسين صار وزيرا للدولة ثم واليا على ولاية كيانغ سي ثم واليا وقائدا عاما لولاية يوننان بعد أخيه نصير الدين. والرابع شمس الدين كان مديرا عاما لمقاطعة كيين تشانغ من ولاية كيانغ سى. والخامس مسعود والصينيون يقولون له ماسو هو وصار وزيرا ثم واليا على يوننان».

«أما أحفاده فأشهرهم بايان فنتشان-من أولاد نصير الدين-صار وزيرا للعدلية ثم واليا عاما على يوننان بعد عمه الحسين، وقد نال ألقاب جده كلها وأسرع لنجدة الإمبراطور في باكين فنال لقب الأمير الأمين المجتهد. وهو الذي رمم المسجد الأعظم في سينغان فو، واستصدر في عام 1335 اعترافا من الإمبراطور بأن الإسلام هو (دين الله الحق الخالص). ومن أولئك الأحفاد عمر، والصينيون يقولون له قوما أول وكان من وزراء الدولة وصار واليا على كيانغ تشو، ومنهم جعفر كان قائدا عاما لعساكر كينغ هو، ومنهم حسين صار وزيرا للدولة وخلف أخاه بايان تشيان على منطقة يوننان.

وشادي صار حاكما في إحدى ولايات المقاطعة. وأيوب (يسميه الصينيون ايونغ) كان مدير قلم التشريفات في دار القرابين. و بيانتشار صار وزيرا للقلم الأعلى، ولقبه الإمبراطور بالجابي الأكبر. وبرهان صار حاكما في «يوننان سين»، و «كولي» كان قائدا عاما لعساكر هونان».

«ومن أحفاد أحفاد السيد الأجل-بعده بسبعة بطون-رجل يقال له «حاجي» والصينيون يقولون له سي هاتشي منحه سلطان الصين مبلغا من المال بنى به مساجد في نانكين وسينغان فو. ومن أعيان هذه الأسرة رجل اسمه يوسف، بينه وبين السيد الأجل 14 بطنا، ولد في نحو سنة 1600، والصينيون يسمونه ماشيكونغ وكان عالما فاضلا ذهب إلى باكين سنة 1665 واستشاره الإمبراطور في الأمور الدينية والعسكرية وصار مدرسا في الأكاديمية الإمبراطورية (قوتسيجيان)، وسنة 1685 نشر كتابا اسمه بوصلة الإسلام، ومنهم أمير الاي كان في الجيش الصيني سنة 1907. ومنهم رئيس جماعة مسلمي (يوننان) ونظار أوقافهم. ورأس هذه الأسرة اليوم هو نافاتسينج إمام جامع ماشوكيا».

هذه المعالم ترسم إلى حد كبير الصورة التي اسهم بها السيد الأجل، مع أبنائه وأحفاده وسلالته في الحياة الصينية. وهو إسهام كان متعدد الأشكال، فضلا عن انه استمر إلى ما بعد حكم أسرة يوان.

ولكي يؤكد أن المسلمين كانت لهم مكانة خاصة في عهد أسرة يوان، سجل تاج الدين السمرقندي-تاجر من سمرقند-أثناء تجواله في الصين أن الوثني إذا قتل مسلما فعقابه القتل وتعذيب أهله ومصادرة ممتلكاته. أما إذا قتل المسلم وثنيا فليس عليه إلا الدية!

إننا نستطيع أن نرصد هذا التطور الذي شهده مجتمع المسلمين في الصين، من قراءة ما دوّنه الرحالة العرب عن زياراتهم لتلك البلاد النائية في العصور المختلفة.

و أخبار الصين والهند هي-كما سبقت الإشارة-اقدم هذه المدونات التي بين أيدينا. وقد كتبها سليمان التاجر حوالي (237 هجرية-851 ميلادية) بعدما زار الصين اكثر من مرة، منطلقا عبر البحر من سيراف بالعراق، ومن الواضح أن زياراته هذه كانت خلال حكم أسرة تانغ. وما يسجله يشير إلى وجود محدود للمسلمين في الصين.

ففي خانفو-كانتون-التي عدها مجتمع تجارات العرب وأهل الصين؟ أي مركز النشاط الأساسي للتجار المسلمين، يتحدث سليمان عن رجل مسلم يوليه صاحب الصين الحكم بين المسلمين الذين يقصدون إلى تلك الناحية. وإذا كان في الصين صلى بالمسلمين، وخطب، ودعا لسلطان المسلمين. وان التجار العراقيين لا ينكرون من ولايته شيئا في أحكامه وعمله بالحق وبما في كتاب الله عز وجل، وأحكام الإسلام [50].

ثم يقول في موضع آخر (ص 27) انهم يعدون ملوك الدنيا المعدودين أربعة.. أولهم «ملك العرب، وهو عندهم إجماع لا اختلاف بينهم فيه. انه ملك اعظم الملوك، وأكثرهم مالا، وإبهامهم جمالا، وانه ملك الدين الكبير الذي ليس فوقه شيء». وبعد ملك العرب يأتي ملك الصين، ثم ملك الروم، ثم بلهرا ملك المخرمي الآذان! يقصد الهنود.

ولا يستوقف سليمان شيء من أحوال المسلمين بعد ذلك، ولكنه ينصرف إلى ذكر أحوال أهل الصين. وقد كان أول من ذكر أن لباس أهل الصين الصغار والكبار الحرير، في الشتاء والصيف، وهو القائل إن ثياب الصينيين شبيهة كثيراً بثياب العرب، وربما أيضا كان أول من تحدث عن الشاي الذي لم يكن العرب يعرفونه، والذي وصفه بقوله: إنه حشيش يشربونه بالماء الحار، ويباع منه في كل مدينة بمال عظيم، ويقال له «الساخي».. وهو اكثر ورقا من الرطبة وأطيب قليلا، وفيه مرارة، فيغلى الماء ويذر عليه، فهو ينفعهم من كل شيء.

وثمة مدونة أخرى كتبها أبو زيد السيرافي، وقد كان «فضوليا»، اكثر منه رحالة إذ انه جمع ما سمعه من «أخبار الصين والهند»،-وهذا اسم المدونة-وهو في موقعه بسيراف على الخليج العربي، حيث أتيح له أن يتصل بالجميع ويشبع فضوله الذي مكنه من أن يكتب هذه المدونة معقبا على ما كتبه سليمان التاجر، وذلك في أواخر القرن الثالث ومطلع القرن الرابع للهجرة (التاسع والعاشر للميلاد) [51].

وإشارات السيرافي عن مسلمي الصين فيما نقله من أخبار محدودة للغاية. وهي لا تتجاوز ميناء كانتون، الذي ظل مركز تجمع التجار المسلمين. وهو يذكر أن القريشي ابن وهب، عندما سافر إلى الصين على مركب من سيراف، «فسار إلى خمدان على مقدار شهرين من المدينة المعروفة بخانفو»

قاصدا لقاء الملك، باعتباره من أهل بيت النبي. فأكرمه الملك وأنزله في ضيافته«وكتب إلى الوالي المستخلف المقيم بخانفو يأمره بالبحث ومسيلة (مساءلة) التجار عما يدعيه الرجل من قرابة نبي العرب»..

ومن هذه الإشارات يبدو واضحا أن وجود المسلمين في الصين لم يكن يتجاوز ميناء كانتون، وحتى إذا وجدوا خارج المدينة، فان وجودهم لا يذكر، بدليل أن ملك الصين عندما أراد أن يتثبت من صحة نسب القرشي، فانه لم يرسل إلا إلى «صاحب خانفو».

لكن الموقف يتغير تماما فيما يسجله ابن بطوطة من انطباعات عن زيارته للصين في أواخر عهد أسرة يوان، في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي-سنة 1342 م).

وتلك حكاية تستحق أن تروى من بدايتها.

سياحة ابن بطوطة

كان ابن بطوطة قد استقر به المقام لبعض الوقت في «دهلي»، كما كان ينطقها العرب القدامى، حاضرة الهند. حيث عمل قاضيا، وصار قريبا من سلطانها «تغلق» آنذاك. وذات يوم «بعث إلي السلطان خيلا مسرجة، وجواري، وغلمانا، وثيابا ونفقة» ودعاه للقائه قائلا «إنما بعثت إليك لتتوجه عني رسولا إلى ملك الصين فإني اعلم حبك في الأسفار والجولان».

وهكذا صدر إليه التكليف بالسفر، الذي يروي قصته قائلا: [52]

«وكان ملك الصين قد بعث إلى السلطان مائة مملوك وجارية وخمسمائة ثوب من الكمخا، منها مائة من التي تصنع بمدينة الزيتون، ومائة من التي تصنع بمدينة الخنسا، وخمسة أمنان من المسك، وخمسة أثواب مرصعة بالجوهر، وخمسة من التراكش مزركشة، وخمسة سيوف، وطلب من السلطان أن يأذن له في بناء بيت للأصنام (يقصد معبدا بوذيا) في موضع يعرف بسمهل، واليه يحج أهل الصين، وتغلب عليه جيش الإسلام بالهند فخربوا المعبد وسلبوه».

«فلما وصلت هذه الهدية إلى السلطان كتب إليه بأن هذا المطلب لا يجوز في ملة الإسلام إسعافه، ولا يباح بناء كنيسة بأرض المسلمين إلا لمن يعطي الجزية، فان رضيت بإعطائها أبحنا لك بناءه، والسلام على من اتبع

الهدى [لاحظ أن سلطان المسلمين هنا يخاطب ملك الصين من موقع القوة]».

ثم يقول ابن بطوطة أن السلطان: «كافأه على هديته بخير منها وذلك: مائة فرس من الجياد مسرجة ملجمة، ومائة مملوك، ومائة جارية من كفار الهند، مغنيات ورواقص، ومائة ثوب بيرمية، وهي من القطن ولا نظير لها في الحسن، قيمة الثوب منها مائة دينار. ومائة شقة من ثياب الحرير المعروفة بالجز، وهي التي يكون حرير إحداها مصبوغا بخمسة ألوان وأربعة، ومائة ثوب من الثياب المعروفة بالصلاحية، ومائة ثوب من الشيرين باف، ومائة ثوب من الشان باف، وخمسمائة ثوب من المرعز، مائة منها سود، ومائة بيض، ومائة حمر، ومائة خضر، ومائة زرق، ومائة شقة من الكتان الرومي، ومائة فضلة من الملف، وسراجة وست من القباب، وأربع حسك من ذهب، وست حسك من فضة منيلة، وأربعة طسوت من الذهب ذات أباريق كمثلها، وستة طسوت من الفضة، وعشر خلع من ثياب السلطان مزركشة، وعشر شواش من لباسه إحداها مرصعة بالجوهر وعشرة من السيوف أحدها مرصع الغمد بالجوهر، ودشت بان (دستبان) وهو قفاز مرصع بالجوهر، وخمسة عشر من الفتيان!!».

«وعين السلطان للسفر معي بهذه الهدية الأمير ظهير الدين الزنجاني، وهو من فضلاء أهل العلم، والفتى كافور الشربدار، واليه سلمت الهدية، وبعث معنا الأمير محمدا الهروى في ألف فارس ليوصلنا إلى الموضع الذي نركب منه البحر، وتوجه صحبتنا رسل ملك الصين، وهم خمسة عشر رجلا يسمى كبيرهم ترسي، وخدامهم نحو مائة رجل، وانفصلنا في جمع كبير ومحلة عظيمة، وأمر لنا السلطان بالضيافة مدة سفرنا ببلاده».

بعد سلسلة من المغامرات في طريق البحر وصل ابن بطوطة-أول ما وصل-إلى تسي تون، اوتشوانتشو الآن، التي نطق اسمها الرحالة العربي على إنها مدينة الزيتون، رغم قوله: «وهذه المدينة ليس بها زيتون، ولا بجميع بلاد أهل الصين والهند، ولكنه اسم وضع عليها»!

«ويوم وصولي رأيت الأمير الذي توجه إلى الهند رسولا بالهدية (إلى السلطان تغلق)... وجاء إلي قاضي المسلمين تاج الدين الاردويلي، وهو من الأفاضل الكرماء، وشيخ الإسلام كمال الدين عبد الله الأصفهاني، وهو من الصلحاء. وجاء إلي كبار التجار فيهم شرف الدين التبريزي ألاحظ أن

الأسماء التي ذكرها تنتمي إلى أصول فارسية)، أحد التجار الذين استدنت منهم حين قدومي على الهند وأحسنهم معاملة، حافظ للقرآن مكثر للتلاوة».

«وهؤلاء التجار، لسكناهم في بلاد الكفار، إذا قدم عليهم المسلم فرحوا به أشد الفرح، وقالوا: جاء من أرض الإسلام، وله يعطون الزكوات، فيعود غنيا كواحد منهم».

«وكان بها من المشايخ الفضلاء برهان الدين الكازروني، له زاوية خارج المسجد، واليه يدع التجار النذور التي ينذرونها للشيخ أبي اسحق الكازروني».

والى حين لقاء ملك الصين أو القان-كما قال ابن بطوطة-فان فضول الرجل دفعه إلى طلب السفر «إلى بلاد الصين (صين الصين) وهم يسمونها صين كلان-يقصد ميناء كانتون-وكان أول ما لفت انتباهه أنه «في وسط المدينة كنيسة عظيمة لها تسعة أبواب»، الأمر الذي يعني أن سياسة أسرة يوان في الانفتاح على الآخرين سمحت للمسلمين وغيرهم بالدخول إلى الصين على نطاق واسع، وقد مر بنا أن ابن هولاكو (أباقا) تزوج من مسيحية.

«وفي بعض جهات هذه المدينة، بلدة للمسلمين لهم بها المسجد الجامع والزاوية والسوق، ولهم قاض وشيخ، ولابد في كل بلد من بلاد الصين من شيخ للإسلام تكون أمور المسلمين كلها راجعة إليه، وقاض يقضي بينهم».

«وكان نزولي عند أوحد الدين السنجاري، وهو أحد الفضلاء الأكابر ذوي الأموال الطائلة، وأقمت عنده أربعة عشر يوما. وتُحف القاضي وسائر المسلمين تتوالى علي. وكل يوم يصنعون دعوة جديدة، ويأتون إليها بالعشارين الحسان (ربما كانوا الغلمان!) والمغنين.

ثم عاد ابن بطوطة إلى مدينة الزيتون: «وبعد وصولي بأيام جاء أمر القان بوصولي إلى حضرته على البر والكرامة. إن شئت في النهر وإلا ففي البر فأخذت السفر في النهر.. فوصلنا بعد سفر عشرة أيام إلى مدينة قنجنفو (كانجان فو)».

أي أن ابن بطوطة ظل بحذاء الساحل من مدينة الزيتون، إلى خانفو، إلى قنجنفو.

«وعند وصولنا خرج إلينا القاضي وشيخ الإسلام والتجار، ومعهم الأعلام والطبول والأبواق والأنفار وأهل الطرب. وأتونا بالخيل فركبنا، ومشوا بين أيدينا، لم يركب معنا غير القاضي والشيخ. وخرج أمير البلدة وخدامه،

وضيف السلطان معظّم عندهم أشد التعظيم. ودخلنا المدينة، ولها أربعة أسوار يسكن ما بين السور الأول والثاني عبيد السلطان من حراس المدينة وسمارها. و يسكن ما بين السور الثاني والثالث الجنود المركبون والأمير الحاكم على البلدة. و يسكن داخل السور الثالث المسلمون ألاحظ أيضا انهم في مكان منفصل) وهنالك نزلنا عند شيخهم ظهير الدين القرلاني. و يسكن داخل السور الرابع الصينيون، وهو اعظم المدن الأربع. ومقدار ما بين كل باب منها والذي يليه ثلاثة أميال».

«وبينا أنا في دار ظهير الدين القرلاني، إذا بموكب عظيم لبعض الفقهاء المعظمين عندهم. فاستؤذن له علي، وقالوا: مولانا قوام الدين السبتي، فعجبت من اسمه. ودخل إلي، فلما حصلت المؤانسة بعد السلام، سنح لي أني أعرفه. فأطلت النظر إليه، فقال: أراك تنظر إلّي نظر من يعرفني؟ فقلت له: من أي البلاد أنت؟، فقال من سبته. فقلت له: وأنا من طنجة، جدد السلام علي، وبكى حتى بكيت لبكائه».

أي أن جاليات المسلمين في مدن الصين ضمت خليطا من كل أنحاء ديار الإسلام، بما فيهم أهل المغرب الأقصى.

ولا يكف ابن بطوطة وهو يروي قصته عن تسجيل ملاحظاته، فهو في هذا السياق يقول: «وبلاد الصين على ما فيها من الحسن لم تكن تعجبني، بل كان خاطري شديد التغير، بسبب غلبة الكفر عليها. فمتى خرجت عن منزلي رأيت المناكير الكثيرة. فأقلقني ذلك حتى كنت ألازم المنزل فلا أخرج إلا لضرورة، وكنت إذا رأيت المسلمين بها فكأني لقيت أهلي وأقاربي».

ثم يواصل الرحلة، تاركا قنجنفو، ليصل بعد أربعة أيام إلى مدينة بَيوم قطلو فيقول عنها إنها «مدينة صغيرة يسكنها الصينيون من جنود وسوقة، وليس بها للمسلمين إلا أربع من الدور» نزل بأحدهم، وبعدما أقام أربعة أيام ركب النهر إلى مدينة قانصوه عند العرب أو هانج تشوفو الآن، ولكن ابن بطوطة ينطقها مدينة الخنسا واسمها على النحو اسم الخنساء الشاعرة، ولا أدري أعربي هو أو وافق الاسم العربي؟. وهي أكبر مدينة رأيتها على وجه الأرض. طولها مسيرة ثلاثة أيام، يرحل المسافر فيها وينزل.

«وعند وصولنا إليها، خرج إلينا قاضيها أفخر الدين، وشيخ الإسلام بها، وأولاد عثمان بن عفان المصري، وهم كبراء المسلمين بها. ومعهم علم

ابيض والأطبال والأنفار والأبواق. وخرج أميرها في موكبه، ودخلنا المدينة، وهي ست مدن، على كل مدينة سور، ومحدق بالجميع سور واحد».

قضى ابن بطوطة يومه الأول في ضيافة الحراس وأميرهم، في المدينة الأولى: «وفي اليوم الثاني دخلنا المدينة الثانية على باب يعرف بباب اليهود ويسكن بها اليهود والنصارى، والترك عبدة الشمس، وهم كثير، وأمير هذه المدينة من أهل الصين، وبتنا عنده الليلة الثانية».

«وفي اليوم الثالث دخلنا المدينة الثالثة ويسكنها المسلمون، ومدينتهم حسنة وأسواقهم مرتبة كترتيبها في بلاد الإسلام، وبها المساجد والمؤذنون، سمعناهم يؤذنون بالظهر، عند دخولنا، ونزلنا منها بدار أولاد عثمان بن عفان المصري، وكان أحد التجار الكبار استحسن هذه المدينة فاستوطنها، وعرفت بالنسبة إليه وأورث عقبه بها الجاه والحرمة، وهم على ما كان عليه أبوهم من الإيثار على الفقراء والإعانة للمحتاجين، ولهم زاوية تعرف بالعثمانية، حسنة العمارة، لها أوقاف كثيرة، وبها طائفة من الصوفية، وبنى عثمان المذكور المسجد الجامع بهذه المدينة ووقف عليه وعلى الزاوية أوقافا عظيمة، وعدد المسلمين بهذه المدينة كثير، وكانت إقامتنا عندهم خسة عشر يوما، فكنا كل يوم وليلة في دعوة جديدة، ولا يزالون يحتفلون في أطعمتهم، ويركبون معنا كل يوم للنزهة في أقطار المدينة».

في المدينة الرابعة دار الإمارة، التقى ابن بطوطة بأميرها: «وهو أمير أمراء الصين، أضافنا بداره، وصنع الدعوة، ويسمونها الطوّى. وحضرها كبار المدينة، واتى بالطباخين المسلمين، فذبحوا وطبخوا الطعام ألاحظ انه كان هناك طباخون مسلمون يذبحون وفقا للشرع) وكان هذا الأمير على عظمته يناولنا الطعام بيده، ويقطع اللحم بيده، وأقمنا في ضيافته ثلاثة أيام»

استمرت جولة ابن بطوطة حتى المدينة السادسة في قانصو، أو الخنسا التي اعتبرها «آخر أعمال الصين»، أي آخر حدودها.

... «ودخلنا بلاد الخطا، وهي احسن بلاد الدنيا عمارة، ولا يكون في جميعها موضع غير معمور... والبساتين والقرى والمزارع منتظمة بجانبي هذا النهر، من مدينة الخنسا إلى مدينة خان بالق، (سميت عند العرب والفرس خانقو، أي حضرة القان، التي هي بكين اليوم) وذلك مسيرة أربعة

وستين يوما. وليس بها أحد من المسلمين، إلا من كان خاطرا غير مقيم لأنها ليست بدار مقام، وليس بها مدينة مجتمعة، إنما هي قرى وبسائط، فيها الزرع والفواكه والسكر».

بعد مسيرة أربعة أيام وصل ابن بطوطة إلى خان بالق، حيث حضره القان (والقان عندهم سمة لكل من يلي الملك ملك الأقطار... وليس للكفار على وجه الأرض مملكة أعظم من مملكته).

نزل ابن بطوطة عند الشيخ برهان الدين الصاغرجي الذي التقى به في الهند من قبل، «وقدم على بلاد الصين. فقدمه القان على جميع المسلمين الذين ببلاده، وخاطبه بصدر الجهان».

ولا يذكر ابن بطوطة شيئا عن جالية إسلامية في العاصمة، ولا يشير إلى قاض أو شيخ للإسلام. فقط يشير إلى اسم الشيخ برهان الدين، الذي لا يستبعد أن يكون حوله قلة من المسلمين الذين لا يشكلون «جالية»، لكنه يسهب في وصف قصر القان بدقة مدهشة، ويذكر انه لم يجده في المدينة لدى وصوله، إذ خرج لإحباط تمرد في داخل المملكة. وبعد عودته التقى به وسلمه الرسالة، على النحو الذي سجله هو في البداية، ولكن ابن بطوطة لا يذكر شيئا عن رد فعل ملك الصين، بل يهتم-في وصف الرحلة على الأقل- بالعودة آمنا إلى الهند.

ذلك أن ملك الصين لم تتوقف متاعبه الداخلية.. «ولما وقع الخلاف وتسعرت الفتن أشار على الشيخ برهان الدين وسواه أن أعود إلى الصين قبل تمكن الفتن (على اعتبار انه كان في بلاد الخطا)... وسرنا منحدرين في النهر إلى الخنسا، ثم إلى قَنْجَنفو، ثم إلى الزيتون، فلما وصلتها وجدت الجنوك (السفن) على السفر إلى الهند».

وختم ابن بطوطة رحلته إلى الصين على هذا النحو.

ونستطيع أن نسجل عدة ملاحظات من قراءة ما كتبه اشهر الرحالة والفضوليين العرب، حول واقع المسلمين في الصين خلال القرن الرابع عشر، في مقدمتها:

*أن ثمة انتشارا ظاهرا للمسلمين في الصين، له حجمه وله تقديره ومكانته.

*أن المسلمين يمارسون نشاطات تتركز أساسا في قطاع التجارة بمختلف

فروعه.

*أن وجود المسلمين يتركز على السواحل، حيث مراسي السفن القادمة والمقلعة.

*أن المسلمين خليط من الفرس والعرب أساسا، والترك بعد ذلك. ولم يثمر ابن بطوطة إلى مسلمين صينيين، بحيث يمكن أن يقال: انه حتى ذلك الحين فان بذور الإسلام لم تغرس في التربة «الصينية» بعد.

يضاف إلى ذلك أن الجاليات المسلمة كانت تعيش في تجمعات خاصة منفصلة عن الصينيين، وهو ما يقوله ابن بطوطة صراحة قبل الدخول في تفاصيل الرحلة «وفي كل مدينة من مدن الصين (يقصد المنطقة الجنوبية من الصين الحالية) مدينة للمسلمين ينفردون بسكناهم ولهم فيها المساجد لإقامة الجمعات (صلاة الجمعة) وسواها، وهم معظمون ومحترمون».

دور أستاذ الأساتذة

على هذه الصورة، طويت صفحة أسرة يوان المغولية، لتبدأ صفحة جديدة في ظل أسرة ملكية جديدة، أسرة مينغ (1368- 1644م) التي أعادت العرش والسلطان إلى عرق الهان، الذي تنتمي إليه الأغلبية الساحقة من أبناء شعب الصين.

كان المسلمون قد استقروا كوافدين إلى الصين، وكانوا قد بدءوا ينخرطون في مختلف نواحي الحياة الأخرى، خصوصا الجيش الذي انضم إليه كثيرون من سلالة المجندين القدامى، والزراعة، حيث استقدم المغول أعدادا كبيرة من الزراع المهرة، مع غيرهم، من بلاد خراسان وما وراء النهر. وبعد ما كانت أسرة يوان تنتهج سياسة الانفتاح على الآخرين، فان أسرة مينغ، وهم الصينيون الاقحاح الذين تربعوا على العرش بعدهم كانوا اكثر ميلا إلى سياسة العزلة، الأمر الذي قطع نسبيا جسور الاتصال بين المسلمين المقيمين في الصين وإخوانهم في ديار الإسلام الأخرى. ولم تكن سياسة العزلة هذه موجهة ضد المسلمين بأي حال، ولكنها نهج طبيعي للسياسة الصينية، له أسبابه التي سنتعرض لها فيما بعد.[53]

أفادت هذه العزلة في أنها دفعت المسلمين إلى الاندماج بقدر اكبر في الحياة العامة للأهالي، فتزوجوا من صينيات، ونقلوا بعضا من عادات أهل

الصين وأخلاقهم.

وفي الوقت ذاته، فان سياسة أسرة مينغ تجاه المسلمين اتسمت بقدر معقول من الاعتدال بل والود أحيانا. الأمر الذي انعكس على امتيازات عديدة منحت للمسلمين، وأعداد كبيرة من المساجد بنيت في ظل تلك الأسرة. ومن المسلمين الذين برزوا في تلك الفترة البحار تشنغ هو (من مواليد مقاطعة يونان) الذي كان يقود أسطولا تجاريا ضخما، بمعايير ذلك الزمان، أبحر به 7 مرات خلال الفترة من 1405- 1433 م، حيث زار 35 بلدا آسيويا وأفريقيا. في مقدمتها الموانى العربية العاملة آنذاك. وهو حدث لم يكن له مثيل في تاريخ الإبحار قبل ذلك، إذ قام برحلاته هذه قبل ظهور كريستوفر كولومبس مكتشف أمريكا بنصف قرن. [54].

أما هاي زوى، فقد دخل التاريخ الصيني باعتباره موظفا كفئا ونزيها، وداعية إلى العدل والفضيلة. حتى قدمت سيرته وشخصيته في اكثر من عمل مسرحي وأوبرالي في السنوات الأخيرة.

لكنّ هناك عالم صيني فاضل ترك بصمات لا تمحى في سيرة التعليم الديني هو: خوونغ تشو، الذي يلقبونه بـ: أستاذ الأساتذة. لأنه أول عالم مسلم في الصين حول المساجد إلى مدارس في القرن السادس عشر، وأدخل التعليم الديني ضمن مسئولية الإمام ورسالة المسجد [55].

بدأ الرجل رحلته التي أفنى في سبيلها عمره كله، بأن جمع فريقا من الفتية والمسلمين في مقاطعه يوننان، ونظم لهم بأحد المساجد دروسا في العلوم الدينية، اعتمادا على الكتب المنسوخة بخط اليد. ولم يحدد للدراسة سنوات معينة، ولكن المسألة كانت متوقفة على استجابة الطالب وتقدمه. إذا تبين أنه يتقدم بسرعة، وأنه حصل حدا معقولا من المعرفة الدينية يقدره الإمام، وإذا شهد له المسلمون الذين يتوافدون على المسجد بالكفاءة فانه يصبح مؤهلا للإمامة.

وفي هذه الحالة يمنح الشاب قطعة من القماش الحريري-بمثابة شهادة- كتبت عليها عبارات تشير إلى كفاءة حاملها في علوم الدين وفضائله وأخلاقه.. الخ. وبعد هذه الإجازة، يلبسه الشيخ خوونغ تشو جبة خضراء من الحرير، وهي لباس شرف للائمة الجدد، إعلانا عن بدء ممارسته الرسمية للإمامة.

وبعدما توفى «أستاذ الأساتذة»، سار تلامذته على نهجه، وانتشرت المدارس في المساجد، وأصبحت مقبولة إلى حد كبير من الآخرين، طالما أنها تلفت الأنظار، وتمارس نشاطاتها وراء أبواب المساجد المغلقة.

والمعمرون من المسلمين الصينيين يقولون إن نظام التعليم في المساجد استمر حتى في ظل أسوأ الظروف التي عاشها المسلمون، ولم يتوقف إلا خلال الثورة الثقافية، في ستينات القرن العشرين. و يعزو الباحثون الصينيون استمرارية الإسلام في الصين-في شق كبير منه-إلى هذا الدور الهام الذي لعبته مدارس المساجد.

وحتى نتصور كيف كان يعد الأئمة والدعاة المسلمون، يكفي أن نذكر مثلا أن الفتى أو الصبي كان يقضي ما بين عشر إلى عشرين سنة في دراسة علوم الدين من صرف ونحو وبلاغة إلى فقه وتفسير وعلوم التوحيد، وهو نظام شديد الشبه بما كان يجري العمل عليه في المساجد العربية الشهيرة كالأزهر والأموي والزيتونة والقيروان.

الإمبراطور مدعو إلى الإسلام

من ناحية أخرى، أقام ملوك أسرة مينغ علاقات طيبة مع الأمراء المسلمين الذين يحكون الدول والمقاطعات غرب الصين. واكثروا من تبادل السفراء مع الأمراء التيموريين، وقد انتهز أحدهم-الشاه رخ بهادر-فرصة قدوم أحد السفراء الصينيين للقائه سنة 1412 م في قصره بسمرقند، وبعث برسالتين بالعربية والفارسية إلى إمبراطور الصين يدعوه فيها إلى اعتناق الإسلام، وتطبيق شريعة الله. وقد نشر الرسالتين عبد الرزاق السمرقندي في مؤلفه مطلع السعدين ومجمع البحرين [56].

والرسالة المكتوبة بالعربية مشحونة بالصيغ البلاغية المنمقة، التي تكاد تطغى على الهدف الأساسي من إرسالها. وهو ما أشارت إليه في سطريها الأخيرين، وهذا نصها:

«بسم الله الرحمن الرحيم، لا اله إلا الله، محمد رسول الله. قال رسول الله محمد عليه السلام: لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله، لا ينصر من خذلهم ولا يطاع من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك. لما أراد الله تعالى أن يخلق آدم وذريته، قال: كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق لأعرف، فعلم أن حكمته جلت قدرته، وعلت كلمته، من خلق نوع الإنسان، إيثار العرفان، وإعلاء أعلام الهدى والإيمان. وأرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله،

ولو كره المشركون، ليعلم الشرائع والأحكام، وسنن الحلال والحرام. وأعطاه القرآن المجيد معجزة، ليفحم به المنكرين، ويقطع لسانهم عند المنازعة والخصام، وأبقى بعنايته الكاملة، وهدايته الشاملة، آثاره إلى يوم القيامة، ونصب بقدرته في كل حين وزمان، وفرصة وأوان، في أقطار العالمين، من الشرق والغرب والصين، ذا قدرة وإمكان، وصاحب جنود مجندة وسلطان، ليروج أسواق العدل والإحسان، ويبسط على رءوس الخلائق أجنحة الأمن والأمان، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر والطغيان. ويرفع بينهم أعلام الشريعة الغراء، ويزيح من بينهم الشرك والكفر بالتوحيد في الملة الزهراء. فوفقنا الله تعالى بسوابق لطفه، ولواحق فضله، أن نسعى في إقامة قوانين الشريعة الطاهرة، وإدامة قواعد الطريقة الزاهرة، وأمرنا بحمد الله أن نفصل بين الخلائق والرعايا، في الوقائع والقضايا بالشريعة النبوية والأحكام المصطفوية، ونبني في كل ناحية المساجد والمدارس، ونعمر الخوانق والصوامع والمعابد، كي لا يندرس أعلام العلوم ومعالمها، وينطمس آثار الشريعة ومراسمها، ولان بقاء الدنيا الدنية وسلطنها، واستدامة آثار الحكومة واياالتها بإعانة الحق والصواب وإماطة أذى الشرك والكفر عن وجه الأرض، لتوقع الخير والثواب. فالمرجو والمأمول من ذلك الجانب وأركان دولته أن يوافقونا الأمور المذكورة ويشاركونا في تشييد قواعد الشريعة المغمورة».

أما الرسالة الثانية: فهي ليست فقط اكثر وضوحا في دعوة إمبراطور الصين إلى «العمل على تطبيق شريعة محمد رسول الله، وتقوية الإسلام لنيل سلطان الآخرة بدلا من سلطان الدنيا»، ولكن الرسالة تضمنت أيضا معلومات مفيدة عن أمراء المغول الذين دخلوا الإسلام مع اعتبار أن «الخلاص والنجاة في يوم القيامة والسلطان والدولة في الدنيا، سببهما إيمان الفرد وإسلامه وعناية الله تعالى».

يقول الشاه رخ بهادر في رسالته إلى إمبراطور الصين [57]:

«لما خلق الله الأعظم، بحكمته البالغة وقدرته الكاملة، أدم (عليه السلام) جعل بعض أبنائه أنبياء ورسلا. وأرسلهم إلى الخلق يدعونهم إلى الحق. وأنزل على بعض هؤلاء الأنبياء كإبراهيم وموسى وداود ومحمد (عليهم السلام) كتابا وعلمهم شريعة، وأمر أهل زمانهم أن يتبعوا شريعة كل منهم ودينه. ودعا هؤلاء الرسل جميعا الناس إلى دين التوحيد وعبادة الله، ونهوا عن عبادة الشمس والقمر والنجوم، والملوك والأصنام، ومع أن كلا من هؤلاء الرسل كانت له شريعة خاصة، فانهم كانوا جميعا متفقين على توحيد الله الأعظم. ولما صار أمر الرسالة والنبوة إلى محمد المصطفى (صلى الله عليه وسلم) نسخت كل الشرائع الأخرى. وهو نبي آخر الزمان ورسوله، وواجب على العالم بأسره-أمراء وسلاطين ووزراء وأغنياء وفقراء وصغارا وكبارا-أن يعملوا بشريعته، وأن يتركوا كل الملل والشراء السابقة. هذه العقيدة الصادقة الصحيحة تسمى الإسلام. ومنذ سنوات خلت تهيأ جنكيز خان للقتال، وأرسل أبناءه إلى بلاد وممالك مختلفة-فأرسل جوجى خان إلى حدود سراى، وقرم ودشت قفجاق، حيث أسلم بعض الشاهات، من أمثال اوزبك وجانى خان وارس خان، وعملوا بشريعة محمد (عليه السلام)، واعجبوا بذلك مسلمين، وانتقلوا إلى الدار الآخرة سعداء بشرف الإسلام، ومن هؤلاء الملك الصادق غازان وألجايتوا سلطان والشاه سعيد

الحظ أبو سعيد بهادر وغيرهم بعدهم حتى ولى العرش والدى المكرم أمير تيمور كوركان. وقد عمل والدى كذلك بشريعة محمد (عليه السلام) في كل البلاد التي حكمها، وضم المسلمون طوال عهده برخاء شامل. والآن وقد انتقلت إلى يدى، بلطف الله وفضله، ممالك خراسان وما وراء النهر والعراق وغيرها وغيرها، فان حكم البلاد في كافة أرجاء المملكة بموجب الشريعة المطهرة النبوية: أمر بالمعروف ونهى عن المنكر. وأبطل «يرغو»، وزالت قواعد جنكيزخان. ومنذ ذلك الحين صاريقينا ومحققا أن الخلاص والنجاة في يوم القيامة، والسلطان والدولة في الدنيا، سببهما إيمان الفرد وإسلامه وعناية الله تعالى، ومن الواجب علينا أن نعامل رعيتنا بعدل وإنصاف، وإني لأرجو بفضل الله تعالى وكرمه أن تعملوا انتم أيضا بشريعة محمد رسول الله (عليه السلام) وان تقووا الإسلام فتنالوا بدلا من سلطان الدنيا سلطان الآخرة».

ويعقب توماس ارنولد على هاتين الرسالتين بقوله: إنه ليس ببعيد أن تكون الرسالتان قد خلقتا القصة التي نشأت في عمر متأخر والتي روت أن أحد أباطرة الصين قد تحول إلى الإسلام. وقد روى هذه القصة-مع غيرها من القصص-تاجر فارسي مسلم يدعى سيد علي اكبر، قضى سنوات قليلة في بكين، في نهاية القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر، ويتحدث عن عدد كبير من المسلمين الذين كانوا قد استقروا في الصين، فكان في مدينة كنجنفو عدد كبير يبلغ ثلاثين ألف أسرة من المسلمين، فلم يؤدوا الضرائب، وتمتعوا بكرم الإمبراطور الذي منحهم هبات من الأرض، ونعموا بالحرية المطلقة في إقامة شعائر دينهم الذي كان الصينيون ينظرون إليه نظرة احترام وتقدير، وترك أمر التحول إلى الإسلام حرا، وكان في العاصمة نفسها أربعة مساجد كبيرة، وما يقرب من تسعين مسجدا غيرها في الولايات الأخرى من الإمبراطورية، وقد بنيت كلها على نفقة الإمبراطور.

أئمة الصين الأربعة

وعندما انتهى عهد أسرة مينغ، وأطل على الصين عهد جديد لدولة مانشو (1644- 1911 م) كانت الأوضاع المستقرة للمسلمين قد أفرزت قيادات فكرية رفيعة المستوى. فظهر علماء متخصصون في علوم القرآن والحديث والفقه والتوحيد. وخلف هؤلاء رصيدا كبيرا من المؤلفات القيمة، التي اندثر أكثرها الآن. وفي مقدمة هؤلاء أربعة كبار يتناقل أسماءهم وسيرتهم العجائز من شيوخ المسلمين الآن، ولا تذكرهم أي من المراجع التي تتحدث

عن المسلمين هناك. فقد عاشوا حياتهم جنودا عظاما مجهولين، وماتوا ودفنت ذكراهم، ككل الأبطال المجهولين. والعلماء الأربعة هم: [58]

● الشيخ وانغ داي يو (حوالي 1560- 1660 م): أول من كتب عن الدين باللغة الصينية، ومن مؤلفاته: «الأجوبة الصحيحة على الدين الحق» و«حقيقة الإسلام» وكتب أخرى في التوحيد والفقه وأحكام الدين.

● الشيخ ماتشو (1640- 1711) مؤلف كتاب «إرشاد الإسلام»، في عشرة أجزاء طبع مرات عديدة.

● الشيخ ليؤتشه (1655- 1745): عالم معروف بكثرة مؤلفاته ومنها: «حقائق الإسلام» في ستة أجزاء، و «سيرة خاتم الأنبياء» في 20 جزءا و «أحكام الإسلام» في عشرين جزءا.

● الشيخ مافو تشو (1794- 1873): مؤلف مرموق وفقيه متعمق في علوم الدين كان يقوم بالتدريس ويمارس التأليف معا. من مؤلفاته: «خلاصة أصول الدين الأربعة» و«مقصد الحياة» و«تعريف روح الإسلام» و«أحكام الدين»... الخ.

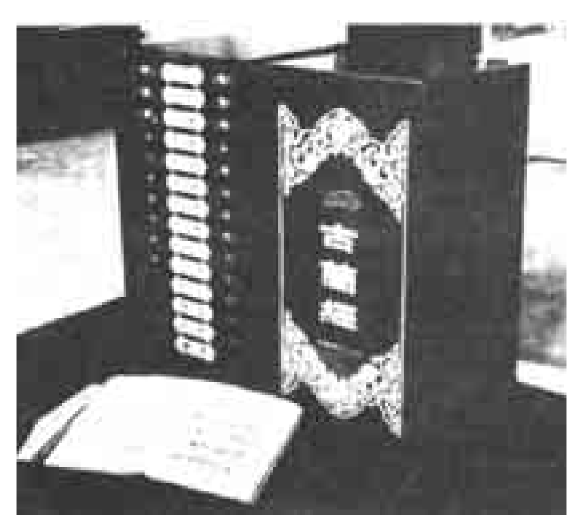
ومن بين إفرازات هذه المرحلة أيضا، أن المسلمين الذين صارت تجمعهم قومية هوى ذوي الأصول الوافدة من الخارج-أصبحوا يحملون أسماء صينية إلى جانب أسمائهم العربية، وأن بعض الأسماء المتداولة في مجتمعات المسلمين أخذت صياغات صينية.

وعلى سبيل المثال فان اسم محمود عندما دخل في القالب الصيني فانه اصبح ينطق (ما) ومحمد اصبح (مو) وسعد الدين صار (سا) ونصر الدين اصبح (نا) ونور الدين (نو) ويحيى (يى)... وهكذا.

ومن حقائق هذه المرحلة أيضا أن تجمعات المسلمين لم تعد مقصورة على المناطق الجنوبية والساحلية من الصين وحدها، ولكن ظهر الوجود المؤثر لمسلمي الشمال والغرب، ومنهم مسلمو تركستان-التي ضمت إلى الصين-والمسلمون من ذوي الأصول المغولية مثل الاوزبك والقازاق والتتار، وهم امتداد لقبائل بلاد ما وراء النهر.

أما المسلمون من ذوي الأصول العربية والفارسية، سواء كانوا جنودا استقروا أو مجندين اكرهوا على الانتقال إلى الصين، (الهويون)، فانهم لم تكن لهم مناطق تجمع محددة، إذ كانوا مستجلبين قبل عدة قرون من

الخارج، وليسوا من قبائل مناطق الحدود كالاوزبك والويغور والقازاق وغيرهم. هؤلاء انتشروا في أنحاء الصين، وتداخلوا اكثر من غيرهم في المجتمع الصيني. وفيهم حدثت ظاهرة «تصيين» الأسماء الإسلامية.



شكل (١)



شكل (2)

شكل (3)



شكل (4)

● جرت العادة في الماضي أن ينسخ بعض الخطاطين القرآن في أجزاء منفصلة، ويحفظ كل جزء في أحد أدراج صندوق - كالموضح في الشكل رقم (١) - الذي رسم على وحدة منه غلاف المصحف الشريف.

● عملات ذهبية عربية محفوظة في متحف بكين، من بقايا عصور الجسور المفتوحة. شكل(2)

● نقود فضية ذهبية، فارسية وعربية ورومانية هي من مكتشفات شيان وشيانيايغ. شكل (3)

● صفحتان من مصحف صيني مخطوط، لا يقل في خطه ورونقه عن جمال وروعة المصاحف التاريخية في الشرق. شكل (4)

وهذا الانتشار أدى إلى تنوع مجالات النشاط الاقتصادي للمسلمين. فبينما ظلت نشاطات مسلمي الجنوب هي التجارة أساسا، أصبحت نشاطات مسلمي الشمال والغرب مركزة في الزراعة والرعي.

لكن الأهم من هذا كله أن المسلمين في تلك المرحلة أصبحوا يتصرفون لا باعتبارهم أجانب وافدين، بل اصبحوا يتصرفرن كمواطنين لهم حقوق يجب الدفاع عنها، الأمر الذي شجعهم على التمرد اكثر من مرة، والثورة اكثر من مرة، واستخدام السلاح في تحدي السلطة، في كل مرة. وهو ما دفع المسلمون ثمنا باهظا له، وجر عليهم ويلات وخرابا لا حدود له، لكنه- من ناحية أخرى-سُجّل تاريخيا لصالحهم، إذ صنفهم باعتبارهم مناضلين شجعانا ضد الاستغلال والظلم.

ولم يكن لهم خيار في ذلك، بعد ما استمرت في ظل أسرة مانشو سياسة العزلة التي انتهجها على مدى ثلاثة قرون تقريبا أسرة مينغ التي سبقتها. وتقطعت بذلك صلاتهم بالعالم الإسلامي الذي كان غارقا في شواغل وهموم أخرى. إذ ما إن ظهرت أسرة مانشو على مسرح الأحداث في منتصف القرن السابع عشر، حتى كان الصفويون يثبتون أقدامهم في بلاد فارس. وقد حملوا المسلمين على اعتناق المذهب الشيعي الأمر الذي أقام حاجزا مذهبيا بين مسلمي الصين وبلاد ما وراء النهر وأفغانستان، وبين سائر المسلمين من أهل السنة. وكانت الإمبراطورية العثمانية مشغولة بتثبيت أقدامها في العالم العربي والامتداد في أوروبا. وكان التنافس قائما بين العثمانيين والصفويين.

وبينما كان مسلمو الصين يعانون من الاضطهاد والعذاب في النصف الثاني من عهد أسرة مانشو، القرن التاسع عشر، كانت شمس الإمبراطورية العثمانية تتجه إلى المغيب. وكان على هؤلاء المسلمين أن يواجهوا قدرهم وحدهم، مسلحين بإيمانهم فقط!

الظلام تحت حكم المانشو

بدأ عهد أسرة مانشو بداية لا تبشر بالخير، من وجهة نظر المسلمين.. فبعد 4 سنوات فقط من تولي السلطة الجديدة عام 1648، أعلن مسلمو قانصو (هانغ تشوفو) الثورة ضد الحكومة. ورفعوا-لأول مرة في تاريخ

مسلمي الصين-السلاح ضد السلطة مطالبين بالحرية الدينية. والمعلومات المتعلقة بهذه الثورة الإسلامية الأولى شحيحة للغاية. إلا أن الحدث في ذاته يعنينا، من حيث وقوعه أولا، ومن حيث الأسباب التي أدت إليه، التي كانت مؤشرا لما هو قادم في المستقبل، وان بعد نسبيا.

لقد أثارت نذر الظلم والتضييق على المسلمين واضطهادهم-التي هبت ريحها مع قدوم أسرة مانشو-شعورا عاما بالاضطراب والتوتر في صفوف المسلمين. وقد حاول الإمبراطور يوانج تشين في سنة 1731 أن يهدئ من روعهم فأصدر بيانا هاما يحدد فيه سياسة حكومته تجاه المسلمين. وهذا نص البيان الذي نشره توماس ارنولد في كتابه «الدعوة إلى الإسلام:<

«في كل ولاية من ولايات الإمبراطورية، يوجد منذ قرون كثيرة مضت، عدد كبير من المسلمين، يؤلفون جانبا من الشعب، اعتبرهم كأبنائي وأنظر إليهم كما أنظر إلى بقية رعيتي تماما، ولا أفرق بينهم وبين الذين لا يدينون بالإسلام. وقد تسلمت من بعض الموظفين ظلامات سرية ضد المسلمين، سببها أن ديانتهم تختلف عن ديانة غيرهم من أهل الصين، وانهم لا يتكلمون بلغة الصين، ويلبسون لباسا يختلف عما يلبسه سائر الأهالي. وهم متهمون بالعصيان والغطرسة والميول الثورية، وقد طلب مني أن اتخذ ضدهم تدابير صارمة. فلما بحثت هذه الظلامات والاتهامات لم أجد لها أساسا من الصحة. والواقع أن الدين الذي اتبعه المسلمون إنما هو دين أجدادهم، والحق أن لغتهم ليست كلغة بقية الصينيين، ولكن ما اكثر اللغات في الصين. أما فيا يتعلق بدور عبادتهم ولباسهم وطريقهم في الكتابة-وكلها مختلفة عما عند غيرهم من أهل الصين-فهذه مسائل لا أهمية لها مطلقا، وما هي إلا عادة من عادات المسلمين. انهم يتحلون بالأخلاق الفاضلة كغيرهم من الرعية، وليس هناك ما يدل على ميلهم إلى الثورة. من اجل ذلك كانت رغبتي أن تطلق لهم الحرية في إقامة شعائر دينهم، الذي يهدف إلى تعليم الناس التمسك بالحياة الفاضلة وتأدية واجباتهم الاجتماعية والمدنية. إن هذا الدين يحترم النظم الأساسية للحكومة، فماذا نستطيع أن نطلب منه اكثر من هذا؟ فإذا ظل المسلمون بعد ذلك يتصفون بما يتصف به الرعايا الأخيار المخلصون، فسأبسط لهم رعايتي بقدر ما أبسطها إلى أبنائي الآخرين. لقد ظهر منهم مدنيون في وعسكريون ارتقوا إلى أعلى المناصب.

وهذا أقوى دليل على انهم تطبعوا بطباعنا وتعودوا عاداتنا وتعلموا كيف يلائمون بين أنفسهم وبين شراء كتبنا المقدسة. انهم يجتازون امتحاناتهم في الآداب كما يجتازها أي إنسان آخر. ويقومون بما يفرضه عليهم القانون من تضحية. وقصارى القول أنهم أعضاء خلص في الأسرة الصينية العظيمة وأنهم يجدون دائما في أداء واجباتهم الدينية والمدنية والسياسية. وعندما ينظر القضاة قضية مدنية، لا تعنيهم ديانة المتخاصمين، فليس هناك إلا قانون واحد لرعيتي. فمن عمل صالحا كوفئ عليه، ومن عمل سيئا حق عليه العقاب» (59).

بعد صدور هذا البيان بثلاثين سنة ثار المسلمون في كاشغر، في الشمال الغربي، وقد ساعد اثنان من بكوات الأتراك المسلمين على قمع هذه الثورة، فتعاطف معهم الإمبراطور كين لنغ حتى بنى لهما عدة قصور في بكين مكافأة لهما. كما بنى أيضا مسجدا ليصلي فيه بكوات الأتراك الذين يزورن القمر الإمبراطوري، وليصلي فيه أسرى الحرب الذين جيء بهم من كاشغر إلى العاصمة. وكان بين هؤلاء الأسرى فتاة جميلة، أصبحت جارية للإمبراطور، ونالت حظوة عنده. ويقال إنه في سبيل حبها، بنى هذا المسجد تجاه قصره مباشرة، كما بنى قبة في فناء قصره، فتمكنت الجارية من أن تشاهد منها أبناء وطنها وهم يصلون، وأن تشاركهم في عبادتهم. وقد بنى هذا المسجد من سنة 1763 إلى سنة 1764، وهو يحتوي على نقش مكتوب بأربع لغات، كتب الإمبراطور نفسه النص الصيني منه. (60).

وبعد ثورة المسلمين في كاشغر، ثار المسلمون مرة أخرى في زنجاريا، مطالبين بالحرية الدينية، ولكن الثورة قمعت، ونقل إليها الإمبراطور كين لونغ ذاته في سنة 1770 عشرة آلاف من العسكريين استجلبهم من أنحاء الصين، لإقرار الأمن هناك، و يقال إنهم دخلوا الإسلام بعد ذلك.

وبمستوقفنا في تلك المرحلة تقرير بعث به حاكم ولاية خوانشى إلى الإمبراطور كين لونغ سنة 1773 م، وهو يشير إلى أن المسلمين لم يتوقفوا عن الدعوة إلى دينهم بين الصينيين، حتى في ظل مرحلة يسودها التوتر والقلق، مثل حكم أسرة مانشو. وان اشتغالهم بالتجارة والزراعة لم يلههم عن عملية التبشير بالإسلام في تربة الصين الوعرة.

وفما يلي نص التقرير المقدم إلى الإمبراطور كين لونغ من حاكم

خوانشى:[61].

«إن لي عظيم الشرف أن أحيط جلالتكم علما بان مغامرا يدعى هانفوين (الحنفي؟) من ولاية خوانشى قبض عليه بتهمة التشرد. فلما سئل عن عمله، اعترف بأنه قضى عشر سنوات يطوف بشتى ولايات الإمبراطورية كي يستطلع أحوال ديانته. وقد وجدنا في إحدى حقائبه ثلاثين كتابا، كتب بعضها بنفسه، وكتب بعضها بلغة لا يفهمها أحد عندنا. وتمجد هذه الكتب ملكا من ملوك العرب يدعى «محمدا»، في أسلوب مسرف يدعو إلى السخرية وحين قدمنا هذا الضال الذي ذكرناه من قبل للتعذيب، اعترف أخيرا بان الغرض الحقيقي من رحلته أن يدعو لهذا الدين الزائف الذي يتعلمونه من هذه الكتب، كما اعترف بأنه قضى في ولاية شانى مدة أطول مما قضاه في أية ولاية أخرى. لقد اختبرت هذه الكتب بنفسي فوجدت بعضها مكتوبا بلغة أجنبية، ولهذا لم استطع فهمها: أما بعضها الآخر الذي كتب باللغة الصينية فرديء جدا، ويمكن أن أضيف إلى ذلك أنها كانت أيضا تبعث على السخرية لما فيها من مغالاة في مديح أشخاص، من المؤكد انهم ليسوا أهلا لهذا المديح، لأني لم اسمع بهم حتى مجرد السماع (!) وربما كان هانفوين الذي تقدم ذكره أحد الثوار من قانصو. ولا شك أن مسلكه يدعو إلى الريبة، إذ ماذا كان يريد أن يعمل في هذه الولاية التي طاف بها مدة السنوات العشرة الأخيرة من حياته؟ وإني عازم على بحث هذه المسألة بحثا جديا، وفي هذه الأثناء، التمس من جلالتكم أن تأمروا بإحراق صحائف الطباعة التي في حوزة أسرته، وبالقبض على من حضروها وبالقبض أيضا على من ألفوا هذه الكتب التي أرسلها إلى جلالتكم، رغبة في الوقوف على ما ترونه في هذا الأمر».

إن نشاط مثل هذا الداعية المسلم، وظهور مفكرين وفقهاء مسلمين، مثل الأربعة الذين أشرنا إليهم، وهناك غيرهم بكل تأكيد، ذلك يعني أنه كانت في الصين خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر على الأقل بوادر «مد إسلامي»، لم يلق عناية من جانبنا، وهو الذي تنبه إليه ورصده المبشرون الأجانب والمستشرقون.

فتوماس آرنولد يذكر-مثلا-«أن أحد رسل الجزويت في بكين كتب في سنة 1721 يقول أن طائفة المسلمين يتزايد أعدادها شيئا فشيئا».

وينقل عن دوهلد أيضا قوله عن مسلمي الصين في القرن الثامن عشر: «إنهم سائرون منذ سنين في تقدم ملحوظ بفضل مالهم من ثروة. فهم يشترون الأطفال الوثنيين حيثما كانوا، ولا يجد آباء هؤلاء الأطفال غضاضة في بيعهم، لعجزهم دائما عن توفير القوت لهم. وفي أثناء المجاعة التي خربت ولاية تشنتنج، اشترى المسلمون ما يربو على عشرة آلاف من هؤلاء الأطفال. و يتزوج المسلمون بالصينيات، و يشترون لهم الدور، أو يبنون لهم في المدينة أحياء مستقلة، بل قرى بأكملها، وحصلوا شيئا فشيئا على مثل هذا النفوذ بدرجات عدة، حتى انهم لم يتيحوا لأي شخص لا يذهب إلى المسجد أن يعيش بين ظهرانيهم. وبمثل هذه الوسائل تضاعف عددهم إلى حد كبير، خلال القرن الماضي».

وشراء الأطفال الوثنيين في فترات المجاعات وتربيتهم على الإسلام ظاهرة يشير إليها كثير من الباحثين الغربيين. ويؤيدها بعض الصينيين المسلمين أنفسهم. فقد أشار إليها «تيرسان» في كتابه «المحمدية في الصين»[62]، وأكدتها بعثة أولون الفرنسية، التي ذهبت إلى القول بأنه أثناء ثورة «البوكسرز» التي قامت ضد الأوروبيين سنة 1900 م، قتل ألوف من المسيحيين، ونهبت أموالهم وبيعت نساؤهم وأطفالهم، فاشترى مسلمو «نينغشيا» عددا منهم. يؤكد ذلك أن مطران مقاطعة المغول كان قد سعى إلى استرداد هؤلاء الأطفال فما بعد.

واتجاه المسلمين إلى التبشير بدينهم على هذا النحو يعكس المدى الذي بلغه حرصهم على نشر الإسلام بمختلف الوسائل داخل الصين، وقد يكونون مدفوعين في ذلك بنية خالصة لوجه الله. وربما حفزهم على ذلك أيضا حرصهم على الإكثار من أعدادهم باعتبارهم أقلية صغيرة للغاية-نسبيا- وسط بحر البشر من قومية الهان، التي كانت تتراوح معتقداتها بين البوذية والتاوية والوثنية.

أي أن ذلك قد يكون دفاعا عن الإسلام وتثبيتا لرايته، وقد يكون من قبيل الدفاع عن النفس، وهما هدفان يلتقيان في اكثر من نقطة على أي حال.

لأجل تجاوز عقدة الأجنبي

يعزز ظاهرة المد الإسلامي في الصين خلال تلك الفترة أن المسلمين

كانوا يجمعون الزكاة فيما بينهم-التي لابد أن تكون حصيلتها كبيرة بحكم اشتغال أكثرهم بالتجارة وثرائهم-لينفقوها في رعاية فقرائهم، وتمويل نشاطاتهم الأخرى.

وفي هذا الصدد ينقل الأمير شكيب أرسلان عن الجغرافي الفرنسي اليزى ركلوس قوله في جغرافيته العامة: ويوجد بين مسلمي الصين تضامن يجعلهم أسعد حالا واعظم ثروة من غيرهم. وهم يفرضون على جماعاتهم ضريبة معلومة (يقصد الزكاة) نظير العشر من الدخل (الأصح ربع العشر)، لأجل إنفاقه في مصالح الجماعة [63]. وهذا في ولايات قانصو وشنشى، وفي بلاد يوننان لديهم مدارس يتعلمون فيها العربية، و يفهمون معاني القرآن... وفي قانصوه يوجد مئات الجوامع، ثم إن تجارة الشمال تكاد تكون منحصرة في أيديهم، لا سيما تجارة المواشي، فتجدهم يمولون بها بكين وسائر المدن الشمالية الساحلية.

لقد كان المسلمون يتصرفون-ككل الاقليات-بوعي وحذر شديدين. فقد كانوا حريصين على ألا يظهروا بأي مظهر متميز عن الصينيين، حتى لا يلفتوا الأنظار إليهم، ولكي لا يتركوا انطباعا لدى الصينيين بأنهم «أجانب». وأثناء جولة في عدد من المدن والقرى الصينية لاحظت أن بعض المساجد بغير مآذن، ووجدت مساجد مصممة على الطراز الصيني، بحيث لا يمكن أن يميز الناظر إليها من الخارج بينها وبين أي معبد أو منشأة عامة في الصين. من ذلك على سبيل المثال مسجد تشينغ تشن داسي (بيت الله العلي) في شيآن، الذي يرجح أن يكون قد بنى في عصر أسرة مينغ (1368-1644) منتصف القرن الثامن الميلادي.

وقيل لي إن سر عدم بناء مآذن فوق مساجد المسلمين، يرجع إلى انهم لجئوا إلى هذا الأسلوب مراعاة لشعور الصينيين، وتجنبا لاستفزازهم، وهم الكارهون بالطبيعة للأجانب. في ثيابهم ومظهرهم كان المسلمون لا يتميزون في شيء عن الصينيين، بل كانوا يذوبون بينهم، حتى لا يكاد يعرفهم أحد لأول وهلة. فأغطية رؤوسهم، وثيابهم الفضفاضة الواسعة، وضفائر الشعر، هذه كلها كانت جزءا لا يتجزأ من مظاهر المسلمين. في المسجد فقط كان الشيوخ يضعون العمامة، والمصلون العاديون يرتدون «الطاقية» البيضاء في الأغلب، والسوداء استثناء.

وكان في كل مسجد لوح مكتوب عليه بالصينية عبارة تقول «دانغ جين هوانغ دي وان شوى وان وان شوى»، وترجمتها: عاش الإمبراطور الحالي عشرة آلاف سنة... عشرة آلاف سنة!، أمام هذه اللوحة كان المسلمون يسجدون احتراما، جريا على العادة الصينية المتبعة، وكانت لهم حيل عديدة في التخلص من ذلك، إرضاء لضمائرهم وتفاديا من الاتهام بالوثنية. حتى في بلاد التتار الصينية، التي كان مباحا فيها للمسلمين امتياز خاص يخولهم أن يعيشوا غير مندمجين في غيرهم، وان يكونوا طائفة منفصلة-كما يذكر توماس ارنولد-كان كبار الموظفين من المسلمين يرتدون الزي المخصص لمناصبهم، و يرسلون شواربهم، وجدائل شعرهم، ويقومون في أيام العطلة بما كان مفروضا على الموظفين من شعائر الولاء المعهودة لصورة الإمبراطور، وذلك بأن يسجدوا لها ثلاث سجدات [64]. وكذلك كان جميع أصحاب المناصب من المسلمين وغيرهم من الموظفين في الولايات الأخرى يؤدون في أيام الأعياد الشعائر الخاصة بوظائفهم في معابد كونفوشيوس، والواقع أن المسلمين احتاطوا كل الحيطة كي لا يظهر دينهم بمظهر المعارض لدين الدولة، وقد نجحوا-من أجل هذا-في تجنب الكراهية التي كان الصينيون ينظرون بها إلى أصحاب الديانات الأجنبية، كاليهودية والمسيحية.

ويضيف أرنولد أن المسلمين كانوا يصورون ديانتهم لمواطنيهم من الصينيين على أنها متفقة مع تعاليم كونفوشيوس، مع فارق واحد، هو أن المسلمين يسيرون وفق تعاليم أجدادهم في الزواج، والجنازات، وغسل الأيدي قبل وجبات الطعام، وتحرم الخنزير والخمر والدخان ولعب الميسر. وكذلك كانت مؤلفات المسلمين الصينيين تمجد كتب كونفوشيوس وغيرها من الكتب الصينية، وتشير، ما استطاعت إلى ما هنالك من الاتساق بين ما في هذه الكتب الصينية وبين تعاليم الإسلام.

عصر ثورات المسلمين الكبرى

ورغم حذر المسلمين وحيطتهم البالغة، فان هذا الحذر لم يمنع القدر!

ذلك أن حكم المانشو ظل يمارس قدرا من الظلم على الناس، والاضطهاد للمسلمين، مما كان فوق طاقة احتمالهم، فهبوا في ثورات متتابعة خلال القرن التاسع عشر شملت مقاطعات يوننان وقانصو وتركستان.

وكانت هذه الثورات تقابل بقمع شديد وصل إلى حد المذابح ومحاولة الإبادة. الأمر الذي أدى بالفعل إلى تناقص عدد المسلمين في أنحاء تلك البلاد، بعدما راح مئات الألوف ضحية هذه المذابح الوحشية.

وكان ذلك كله يجري وراء أسوار الصين. دون أن يعلم أحد، وأكاد أقول إنه في تلك المرحلة لم يكن أحد في العالم الإسلامي مستعدا لغوث، أو حتى لمجرد الاستماع إلى توسلات وأنين مسلمي الصين، خصوصا بعد ما شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر بداية انهيار الدولة العثمانية، وتفسخ العالم الإسلامي، حيث وزعت تركة «الرجل المريض» على دول الغرب، من إنجلترا وفرنسا إلى إيطاليا وألمانيا.

وخلال مائة سنة، في الفترة ما بين 1758 و1873م، انفجرت خمس ثورات كبرى لمسلمي الصين، نستطيع أن نتصور حجمها من عدد الكتب الرسمية التي صدرت عنها، مسجلة لكل تفصيلات أحداثها، كعادة مؤرخي الأباطرة في الصين منذ الأزمنة القديمة:

- ففي سنة 1758 اندلعت ثورة المسلمين في ولاية قانصو بقيادة سوسى سان، وسجل تاريخها في 20 جزءا من الكتب الرسمية.
- وفي مقاطعة سينكيانغ، شبت ثورة جنقخ، واستمرت سنتين، من 1825 إلى 1827، وصدر في تأريخ وقائعها 80 جزءا.
- وفي سنة 1855 انفجرت الثورة في مقاطعة يوننان، بقيادة سليمان دووين شيو، واستمرت 18 عاما، وسجلت في 50 جزءا.
- وفي السنة ذاتها (1855) اندلع لهيب الثورة في مقاطعات سينكيانغ وقانصو وششى، واستمرت هذه الثورة بقيادة يعقوب بك، طوال 20 عاما. وقد سجلت أحداث هذه الثورة في كتاب من 330 جزءا!

وإذا كانت أحاديث هذه الثورات الإسلامية العارمة قد ملأت مجلدات، مما يتعذر الإلمام بها أو حتى تلخيصها، إلا أننا نستطيع أن نتعرف على بعض تفصيلاتها من المعلومات التي تسربت من تلك المجلدات الكبيرة.

فثورة يوننان فجرها حادث صغير، بعض الصينيين والمسلمين اتفقوا في سنة 1855 على استخراج الفضة من منجم في منطقة (تالي فو)، وبعد انتهاء المهمة حاول الصينيون الاستئثار بالكسب، فنازعهم المسلمون، الذين لم يسكتوا، واشتبك الفريقان وسقط منهم قتلى، ولكن حاكم المقاطعة انحاز

إلى صف الصينيين، وكتب إلى الإمبراطور يطالب بقمع المسلمين. فتوجهت قوات الإمبراطور إلى مناطق المسلمين لتأديبهم، وكانت قيادة المسلمين لأحد العلماء، اسمه ماده شين، وكان مساعداه هما القائدين ماهسين (حسين؟) ودوو ين شيو، وفي أول مواجهة انتصر المسلمون على قوات الإمبراطور، واضطرت إلى طلب الهدنة. ولكن الإمبراطور استخدم الحيلة، واستمال إلى جانبه ماده شين بالإنعام والعطايا، كما استمال ماهسين بترقيته إلى رتبة قائد في الجيش الصيني.

وبعد أن تحركت قوات المسلمين واستولت بعد عناء على تالى فو عاصمة المقاطعة، وشقت طريقا إلى بورما للحصول على التموين والسلاح، بعد ذلك نجحت حيلة الإمبراطور، وطلب ماده شين وماهسين من المسلمين إلقاء السلاح. ولكن دووين شيو رفض الاستجابة لدعواهما، وأصر على تخليص يونئان من عرش الإمبراطور، متشبثا بالإنجازات التي حققها المسلمون.

ولقى دووين شيو تأييدا من المسلمين، حتى اختاروه ملكا عليهم، ولقبوه بالسلطان سليمان سنة 1868. فجعل عاصمة ملكه تالى فو، وظل صامدا يقاوم القوات الصينية، ويحول بينها وبين السيطرة على يونئان.

وهنا تروى «دائرة معارف القرن العشرين-فريد وجدي» قصة غريبة ومثيرة للانتباه [66]. تقول: إنه في سنة 1870 وصل إلى الصين القائد الإنجليزي (سلادن) في بعثة سياسية، فسعى بعض زعماء المسلمين إلى لقائه، وطلبوا منه أن يحث حكومته على مساعدتهم في تأسيس مملكة إسلامية بالقرب من بورما، في مقابل تأييدهم للانجلير عند اللزوم. فأشار سلادن على الزعماء المسلمين بان يوفدوا الأمير حسن بن السلطان سليمان إلى إنجلترا، ليبحث الأمر مع الحكومة الإنجليزية.

وبالفعل-تقول الرواية-سافر الأمير حسن إلى لندن، والتقى برئيس الوزراء الإنجليزي، جلادستون الذي لم يرحب بالفكرة، واعتذر عن تدخل إنجلترا في شئون مسلمي الصين.

وعندئذ قرر الأمير حسن أن يطرق بابا آخر، فاتجه إلى الآستانة، والتقى بالسلطان عبد العزيز، الذي اظهر رغبة شديدة في الاستجابة إلى طلبه، ولكنه اعتذر بان الظروف لا تمكنه من ذلك.

وعندما عاد الأمير حسن إلى يونان في سنة 1873، وجد أن الحكومة الصينية قد قضت على مقاومة المسلمين في يونان وأن أباه انتحر بالسم في يناير من السنة ذاتها، وأن ثلاثين ألفا من المسلمين قد ذبحوا، في حملة تأديب عنيفة، بينما لجأ ألوف آخرون إلى بورما!

أما ثورة يعقوب بك التي اندلعت في المناطق الشمالية الغربية، بين المسلمين ذوي الأصول التركية، فقد امتدت جذوتها كالنار فيما بين سينكيانغ وقانصو وشانسى. خلال عام 1855، حتى عصف المسلمون بكل مقاومة حكومية تصدت لهم. واستطاع يعقوب بك أن يثبت سلطانه في كاشغر. ويعلن استقلال تركستان عن الحكومة الصينية، خصوصا وان ثورته لقيت تأييدا كاسحا من المسلمين في تلك المقاطعات.

وكان يقف إلى جواره واحد من اكبر رجال الدين هو: باين هو، الذي سانده وجمع حوله كافة القيادات الإسلامية. ودعم ثورته قائد مسلم آخر في قانصو هو ماهوا لونغ.

وطوال 20 عاما، كانت ثورة المسلمين في تركستان تصد محاولات حكومة المانشو، واحدة تلو الأخرى، التي سعت إلى ضرب الثورة وكسر طوقها. وفي عام 1871 شنت جيوش الحكومة هجوما شرسا ضد شانسى ثم قانصو، فدمرت وخربت وقتلت وسبت كل ما لقيته، وأسرت ماهوا لونغ وزعيما آخر اسمه ماباتسياو، وقامت بصلبهما علنا نكاية بهما، وردعا للمسلمين. وقعت الثورة في المقاطعتين.

وفي عام1874 هاجمت قوات المانشو مقر الزعيم الديني باين هو الذي لجأ إلى الحدود الروسية، حيث ارض تركستان الغربية القديمة. وفي هجومهم على كاشغر قتل يعقوب بك، الذي ظل يدافع عن استقلال مسلمي تركستان حتى آخر رمق.

ولنا أن نتصور ما لحق بالمسلمين ودورهم ودوابهم وأرضهم، بعد قمع هذه الثورة.

ولنا أن نعمم هذه الصورة المأساوية على المسلمين في أنحاء الصين، خصوصا أن الثورات شملت كل مناطق تمركزهم، ولم تنطفئ جذوتها إلا بعدما تعرضوا لضربات قاصمة، أفنت مئات الألوف من البشر. ودمرت مئات القرى. وصادرت حريات الذين بقوا أحياء، فضلا عن ممتلكاتهم.

ولم يقتصر الأمر على هدم الدور والمساجد ومصادرة الحريات والأملاك، بل ذهبوا إلى حد تحريم ذبح البقر، ليضطر المسلمون إلى أكل لحم الخنزير، إمعانا في المهانة والإذلال، الأمر الذي تصدى له المسلمون بكل عنف، وتحدوه بكل قوة. ومنع المسلمون من السفر لأداء فريضة الحج، فكانوا يتحايلون بأساليب مختلفة لأداء الفريضة، فأصدرت حكومة المانشو قرارا يمنع المسلمين الذين يسافرون للحج أو حتى لطلب العلم من دخول الصين عند العودة. فنشأت بينهم عادة غريبة، وهي عادة الحج بالنيابة. وتوافد عليهم فقراء المسلمين من الأمم القريبة لينوبوا عنهم في الحج بأسمائهم.

وقد كان سلاح الضرائب واحدا من السياط الحادة التي ظلت تلهب ظهور المسلمين طوال حكم أسرة المانشو.

وعلى سبيل المثال فان مقاطعات الشمال المسلمة ظلت تعيش في ظل أربعة من أمراء الإقطاع، الذين تولوا استغلال المسلمين وتأديبهم بصورة بشعة [67]. فقد كانت الضرائب المفروضة على أهالي مقاطعة نينغشيا تتسع لتشمل الخيول والأبقار والجمال والخراف، والطيور المنزلية، وحمل الملح، واستهلاك الملح، ولمبات الغاز، والطعام والخشب، والفحم، والجلود، والحفلات، والدخان، وذبح الحيوانات، والري والطواحين، والخضراوات، إلى غير ذلك من محتويات القائمة المذهلة التي لا يمكن أن يصدقها عقل!

وكان الأمراء يحتكرون تجارة الملح. ولذلك كان كل فرد ملزما بان يشتري كل شهر رطلا من الملح، استعمله أم لم يستعمله، وكان محرما أن يبيعه، وإلا عوقب بالجلد، وإذا ما ضبط متلبسا بهذه «الجريمة الشنعاء»، فانه يعاقب بالموت!

يموت المسلم إذا باع حفنة من الملح.. هذه هي قيمته!

بعثة السلطان عبد الحميد في بكين

ويبدو انه ما إن قارب القرن التاسع عشر على نهايته حتى كان المسلمون قد انكسرت شوكتهم في الصين، بعدما هدّتهم تلك الضربات القاصمة. فلجئوا إلى مهادنة الحكومة، مستخدمين «الأساليب السلمية» في ممارسة نشاطاتهم. ومن جهة أخرى، فان حكومة المانشو لم تمانع في هذه المهادنة، وقد اطمأنت إلى أنها قابضة على زمام الأمور في مناطق المسلمين بيد من

حديد، ممثلة في عسكر الإمبراطور وعملائه وقوانينه الصارمة.

لقد رأى كل طرف مصلحة له في المهادنة لكن الجراح بقيت كما هي، غائرة وعميقة ومستعصية على الالتئام.

وتسجل السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، وبدايات القرن العشرين ظاهرة توجه المسلمين إلى مختلف النشاطات التربوية والتعليمية. فقد استطاع أمام مسجد بكين الشيخ الياس عبد الرحمن وانغ، أن يحصل من السلطات الحكومية على موافقة لإنشاء أول معهد إسلامي بالمدينة، سنة 1903، وأول مدرسة ابتدائية لأبناء المسلمين، كانت تدرس-لأول مرة-اللغة العربية إلى جانب اللغة الصينية، وتتداول فيها الترجمة الصينية للقرآن الكريم والأحاديث النبوية. وكان تعليم أبناء المسلمين يتم قبل ذلك-إذا تيسر-من خلال «الكتاتيب» المنتشرة في القرى، ثم من خلال المدارس الحكومية بعد ذلك. (68).

في تلك الظروف-تذكر الانسكلوبيديا الفرنسية-حاول السلطان عبد الحميد أن يقيم علاقات مع مسلمي الصين، وأن يتقصى أخبارهم. فأوفد أحد رجاله، أنور باشا-وهو غير ناظر الحربية الشهير-الذي وصل إلى بكين سنة 1900، ولكن مهمته لم تنجح.

وفي الوقت ذاته زار الآستانة إمام مسجد بكين، الشيخ اليأس عبد الرحمن، الذي أتيح له أن يلتقي بالسلطان عبد الحميد، واقترح عليه إرسال بعثة إسلامية إلى الصين. ولقيت الفكرة قبولا عنده-وهو الذي سعى إلى ذلك من قبل-فأوفد السلطان اثنين من المسلمين الأتراك، هما رضا وحسن حافظا، اللذان أسسا مدرسة ضمت 120 طالبا في مسجد (نيوجاه) القائم إلى الآن في العاصمة. ولكن السلطات الصينية تعقبت المبعوثين التركيين لسبب لا تذكره الانسكلوبيديا الفرنسية. غير أننا نجد ما يبرر هذا التصوف في رواية الأمير شكيب أرسلان للقصة..

فالأمير شكيب يقول-في حاضر العالم الإسلامي-وهو يشير إلى مهمة المبعوثين إنهما «بثا روح الانضمام إلى الخلافة، ورفعا العلم العثماني، وزارا أعظم الحواضر الإسلامية». وإذا صحت هذه الرواية، فان الإجراء الذي اتخذ هذه البعثة يعد منطقيا ومفهوما. إذ انه من الطبيعي أن تتعقب الحكومة الصينية هذين الداعين إلى تحريض مسلمي الصين للانضمام

للخلافة العثمانية، في وقت ارتفعت فيه الأصوات الداعية إلى «الجامعة الإسلامية». وذلك فضلا عن الملابسات والحلفيات الدامية التي تحيط بعلاقة المسلمين بحكومة المانشو [69].

وتضيف الانسكلوبيديا الفرنسية أن المبعوثين التركيين-وقد شعرا بالخطر-فانهما لجئا إلى سفارة ألمانيا في بكين. وأبلغت ألمانيا حكومة الباب العالي بأن سفارتها في بكين ستطلب من الحكومة الصينية حماية التركيين، ولكن حكومة المانشو لم ترد على هذا الطلب، وترك الأمر معلقا مما اضطر المبعوثين التركيين للجوء إلى السفارة الفرنسية، التي تولت حمايتهما، وإعادتهما إلى الآستانة. [70]

ولكن العهد لم يطل بهذه الهدنة إلى الحد الذي يسمح للجراح بأن تندمل، لأن عرش أسرة المانشو كان يواجه أعاصير تزلزله من ناحية أخرى.. كانت الجمعيات السرية قد انتشرت في الإمبراطورية ثائرة على الفساد المستشري في الحكم، وعلى الطغيان والظلم، وعلى تحويل البلاد بصورة مهينة إلى منطقة نفوذ مقسمة لحساب الدول الأوروبية والولايات المتحدة، وعلى تخاذل أسرة مانشو وهزيمتها أمام اليابان.. و... و... الخ.

كان السوس قد استشرى في جسد إمبراطورية المانشو حتى بلغ النخاع، ولم يكن هناك بديل عن الثورة، واستئصال أصل الداء، أسرة المانشو، بل والإطاحة بالعرش الإمبراطوري كله.

وفي حين كان المسلمون يخوضون الصراع ضد أسرة المانشو، ويفجرون الثورات في الجنوب والشمال والغرب، كانت القوى الوطنية الصينية تمهد لخوض معركة مريرة وشرسة ضد الأسرة ذاتها، بكل ما يمثله نظام حكمها من شرور.

كان المسلمون والوطنيون الصينيون يقفون في خندق واحد، لأنهم كانوا في محرقة واحدة، و يكتوون بنار واحدة.

وعندما نجحت الثورة الوطنية وأعلنت الجمهورية في عام 1911، بدأت صفحة جديدة في تاريخ الصين. وبدأت صفحة جديدة في تاريخ مسلمي الصين.

2 على أبواب الأمل

شاهدت في بكين فيلما باسم «جبال ليوبان»، موضوعه: المسلمون ومسيرة ماو الكبرى. وهو يروي قصة فلاح مسلم اسمه هوغ تشن يظهر مريضا وقد هده الوهن، ولكن وكلاء مالك الأرض يقتحمون عليه بيته وينتزعون زوجته وهي تعد له الدواء، لتعمل في بيت المالك وفاء لدين على الفلاح المريض الذي تتدهور حالته الصحية، فيعهد بابنته (شي غي) ذات مائة اليوم إلى أحد إخوانه الفلاحين (لاو نينغ)، ثم يلفظ أنفاسه الأخيرة.

وتمر الأيام، وتكبر البنت، ثم تعود إلى قريتها في جبال ليوبان، بينما مسيرة ماو وجيشه الأحمر يقتربون من منطقة الجبال، ولكن المسلمين يستقبلون خبر قدوم المسيرة بقدر من الحيرة في البداية، وبقدر من التوجس بعدما سمعوا الشائعات التي رددها أمراء الحرب الرجعيون، والتي تحاول أن تنفر المسلمين من ذلك الجيش القادم من الجنوب. ولكنهم يرقبون رجال ماو أثناء مرورهم بالقرية في منتصف الليل، وعندما لاحظوا سلوكهم الحميد، وقرءوا العبارات التي كتبوها على جدران البيوت مثل «للجميع حرية الاعتقاد الديني» و«نرفض انتهاك حرمة المساجد» و«تقاليد هوى

(المسلمين) يجب أن تحترم» و «كل القوميات متساوية».. عندما قرأ المسلمون هذه الشعارات زال الشك من نفوسهم. وحينما اقتحم رجال الجيش الأحمر سجن القرية واخرجوا منه المسلمين الفقراء، اندفع المسلمون نحوهم مرحبين، وفتحوا لهم قلوبهم وبيوتهم.

ولكن جيش ماو كان لابد أن يواصل مسيرته إلى الشمال، وكان عليهم أن يتركوا جبال ليوبان التي سرعان ما عاد إليها مالك الأرض وبطانته من الرجعيين، فتغتم القرية، ولكن الأمل الذي بعثه في نفوسهم الجيش الأحمر لا ينطفئ شعاعه.

وعندما تصل الأنباء إلى القرية، بأن جيش الكومنتانغ اعترض طريق مسيرة جيش ماو، فان ابنة الفلاح هونغ تشي، وصديقه الاونينغ) يقومان بمغامرة للحاق بمكان المعركة وينقذان أحد رجال ماو، بل و يتسللان إلى معسكر «للعدو» و ينقذان منه الأسرى المعتقلين فيه.

ويزداد التحام أهل القرية بالجيش الأحمر. و يدرك أهالي جبال ليوبان أنهم لابد أن يلجئوا إلى النضال، ليستخلصوا حقوقهم، وليواجهوا طغيان مالك الأرض وبطانته. فيؤسس الفلاح لاونينغ أول فرقة لحرب العصابات في جبال ليوبان، تنضم إليها الابنة شي غي تساو وأمها، وتمضي القرية على درب النضال، الذي شقه الجيش الأحمر.. و ينهي الفيلم بينما مسلمو جبال ليوبان قد شهروا سلاحهم معلنين الثورة على الطغيان والاستغلال.

وفيلم كهذا لا يعرض مصادفة في هذه المرحلة. ولكنه يتضمن رسالة ذات أهداف واضحة. ذلك أن الإشارات التي وردت فيه تثير الانتباه. فهو أولا يشير بين الحين والآخر إلى أن منطقة ليوبان المسلمة «لها تقاليد ثورية عريقة»، وهو ثانيا يستثني المسلمين من مربع «الرجعية» الذي لا يزال البعض في بلادنا يصنفهم في إطاره إلى الآن، وهو استثناء يبالغ حتى يشمل أمام مسجد القرية الذي قد يكون طبيعيا أن تلتقي مصالحه مع المالك الكبير وأمراء الحرب «الرجعيين». لكن الفيلم يعطي انطباعا أن اكثر ما يمارسه المالك من استغلال وبطش إنما يتم من وراء ظهر الإمام. ثم إن الفيلم-ثالثا-يقدم باعتباره وثيقة تاريخية، تسجل جانبا من أحداث مسيرة ماو، وموقف المسلمين منها.

وما يمكن أن نقوله عن مضمون الفيلم هو انه بمثابة رد اعتبار للمسلمين،

وإعلان ضمني عن تغير سياسة الحزب الشيوعي الحاكم يستهدف أنصافهم، تاريخيا على الأقل. وذلك رغم تحفظ بعض المسلمين على مشاهد منه، خصوصا تلك التي تظهر عددا من رجال الدين وهم يحتسون «البيرة»، الأمر الذي أدى إلى وقف عرض الفيلم.

وما قاله الفيلم عن موقف المسلمين من مسيرة ماو كله حق. فجبال ليوبان لها وجود مادي في منطقة نينغشياه المسلمة في شمال غرب الصين. ومرور الجيش الأحمر بقيادة الرئيس ماو عبر جبال ليوبان حدث فعلا في خريف عام 1935، وللزعيم الصيني قصيدة نظمها بهذه المناسبة قال فيها:

على قمة جبل ليوبان ترفرف الرايات الحمراء رشيقة مع الريح الغربية.

كذلك فان تجاوب الفلاحين المسلمين مع جيش ماو لم يكن موضع شك أو جدل.

ليس في الموقف الأساسي أو المسرح الأساسي الذي تدور حوله أحداث الفيلم أي خيال أو افتعال. وليس في تصوير سلوك المسلمين إزاء الثورة أي مجاملة زائدة، إلا إذا اعتبرنا أن مجرد ذكر الحقيقة على هذا النحو يمكن اعتباره نوعا من المجاملة.

ذلك أن موقف المسلمين لم يكن عليه غبار من البداية، منذ أعلنت الجمهورية، وأطيح بعرش أسرة المانشو، وطويت تلك الصفحة المحزنة إلى الأبد.

فقد كان طبيعيا أن يرحب المسلمون بإسقاط أسرة المانشو، باعتبارها كانت كابوسا ثقيلا وكئيبا، جثم على أنفاسهم طوال حوالي مائتين وسبعين عاما، حملت معها آلام ألف عام!

ولذلك فانه منذ اليوم الأول لإعلان الجمهورية في الصين-10 أكتوبر سنة 1911- كان معروفا سلفا في أي مربع يقف المسلمون، وربما كان معروفا أيضا أي ثمن دفعه المسلمون بسبب وقفتهم هذه.

ومنذ اليوم الأول لخلع أسرة المانشو، سارع مسلمو جنوب الصين إلى تأييد الجمهورية، واستجابوا لنداء الدكتور صن يات صن الذي دعاهم فيه إلى إقناع مسلمي المناطق الشمالية والغربية بالوقوف وراء الثورة، والتضامن معها في القضاء على فلول أسرة آخر أباطرة الصين.

لذلك لم يكن غريبا أن تبادر الجمهورية الوليدة، برئاسة الدكتور صن

يات صن، إلى الاعتراف بالمسلمين باعتبارهم أحد العناصر الأساسية الخمسة التي تقوم عليها البلاد. وأن يجئ هذا الإعلان في سنة 1913 بالنص التالي:

«إن الصينيين (قومية الهان) والمانشو والتبت والمغول والمسلمين هم جميعا أبناء جمهورية الصين التي لا تفرق بين الأجناس والأديان. ولكل مواطن حرية الاعتقاد ببوذا أو بعيسى أو بمحمد، إذ ليس للدولة دين رسمي. والديانة حرية واختيار، والحرية هي مجموع الحقوق المدنية لكل إنسان، في شخصه وماله وشرفه وعقيدته، وهو ما يحميه القانون».

ولم يكن غريبا أن تظهر إلى الوجود، في عام 1912، أول جمعية لمسلمي الصين، التي حملت اسم جمعية التقدم الإسلامية، وأن يكون مقرها الرئيسي بكين، وقد انتقلت نشاطاتها العملية إلى يوننان فيما بعد، حيث تمركزت هناك وأنشأت فروعا عديدة لها في مناطق المسلمين، حتى وصلت إلى رانجون عاصمة بورما المجاورة، واتسعت نشاطات جمعية التقدم، حتى أنشأت في مقرها بيوننان إدارات للمعارف (التعليم) والهداية (الدعوة) والصلح والإفتاء. وتوفرت لها موارد مالية جيدة، من مساهمات المسلمين وزكواتهم، مكنتها من إصدار مجلة «المنبه الإسلامي» في يوننان باللغة الصينية. وكانت أول جمعية إسلامية صينية استأذنت شيخ الأزهر في إيفاد بعثة من شباب يوننان المسلم للالتحاق بالأزهر الشريف [1].

ولم يكن غريبا أن يتوالى إنشاء جمعيات المسلمين، وإصدار صحف لهم. فأنشئت-بعد جمعية التقدم-الجمعية الإسلامية الصينية في شنغهاي، وتأسست بعدها في نانكين-العاصمة وقتئذ-«الجمعية العامة للمسلمين» بإذن من الحكومة.

وشهدت هذه المرحلة أيضا ظهور مجلة «نضارة الهلال» في بكين، و«نور الإسلام» في تينجان، و«مجلة العلوم الإسلامية» في كانتون، وذلك بالإضافة إلى مجلة المنبه الإسلامي [2] في يوننان.

وأنشأت جمعية التقدم الإسلامية مدرسة ابتدائية إسلامية في عاصمة يوننان، أعقبتها بمدرسة ثانوية، تدرس فيها اللغتان العربية والصينية والعلوم الدينية والعصرية المختلفة. واعترفت بها وزارة التعليم في الحكومة المركزية.

وانشأ أحد كبار الضباط المسلمين (الجنرال مافو شيانغ) مدرسة المعلمين الإسلامية الثانوية في عاصمة مقاطعة شانتونغ، التي نقلت بعد ذلك إلى بكين. وأسست في شنغهاي (مدرسة المعلمين الإسلامية)، ثم أنشئت في ولاية سيتشوان مدرسة أخرى إسلامية للمعلمين.

حدث ذلك خلال فترة عشرين عاما من قيام الجمهورية، حتى شهد مجتمع المسلمين في الصين نهضة ثقافية وتعليمية كبيرة، تجسدت في هذه المعاهد والمدارس، الأمر الذي تطور بحيث دخلت مدارس التعليم الإسلامي كل منطقة تجمع للمسلمين.

انتعشت آمال مسلمي الصين في ظل الجمهورية الوليدة. وتحركوا في اتجاهين أساسيين:

- لملمة صفوفهم في الداخل، التي تبعثرت من جراء الضربات المتلاحقة والقاسية التي وجهت إليهم.

- كسر طوق العزلة الذي فرض عليهم طوال المدة التي حكت خلالها أسرة المانشو. وكما سارعوا إلى إنشاء الجمعيات وإصدار الصحف وتأسيس المدارس، فانهم سارعوا إلى الاتصال بالأزهر الشريف لإيفاد مبعوثين منهم لدراسة العلوم الإسلامية فيه.

ذلك أن القيود التي فرضت على اتصال مسلمي الصين بإخوانهم في الخارج-فضلا عن انطواء الصينيين وعزلتهم الطبيعية-أدت إلى تدهور هذه الصلات بمضي الوقت، وأدت إلى ما هو أفدح، إذ لم تتوفر لمسلمي الصين إمكانية معرفة دينهم بصورة جيدة، حتى نشأت أجيال عديدة من أبنائهم، على إحاطة متواضعة-وربما مشوهة-بالحد الأدنى من الإسلام، خصوصا أن المسلمين كانوا قد منعوا حتى من أداء فريضة الحج. وهي الفرصة التي كانت تسمح لقلة قليلة بالاختلاط بإخوانهم المسلمين من أنحاء العالم، ومتابعة ما يجري في مجتمعاتهم من تيارات فكرية.

وخلال سنوات الانقطاع الطويل عن العالم الإسلامي أخذ مفهوم الإسلام يتشكل بصورة متميزة في الصين، وهي المشكلة التي تعاني منها كافة مجتمعات المسلمين في أطراف آسيا وأفريقيا. إذ منذ فقدت الإمبراطورية العثمانية دورها كدولة حامية للإسلام والمسلمين، وقد حدث ذلك قبل إلغاء المخافة في عشرينات القرن الحالي بزمن طويل، ومنذ ظلت هذه الوظيفة

شاغرة ولم تجد دولة أو حتى مؤسسة ثقافية تشغلها، منذ ذلك الحين انقطعت صلات مسلمي الأطراف النائية بقلب العالم الإسلامي، وأخذت مفاهيم الإسلام تتشكل بصورة مختلفة، وتختلط بالعديد من التقاليد والاعتقادات المحلية.

وحيث تنعدم الإحاطة باللغة العربية، وهي وسيلة المسلمين للتعرف بيسر على منابع الدين المباشرة، وحيث تندثر بمضي الوقت أجيال العلماء والفقهاء الذين أتيح لهم أن يحصلوا قدرا من المعرفة بالدين في مراحل سابقة، فان الأمر يؤول في النهاية إلى عدد محدود من رجال الدين المحترفين.

أي أن الإسلام يصبح بالنسبة للمسلم العادي في تلك الأطراف النائية مجموعة من الأسرار والألغاز، لا يعرفها إلا رجل الدين، الأمر الذي فتح الباب واسعا لظاهرة «الكهنوت» في تلك البلاد.

وفي مناخ كهذا، لابد أن يفتح الباب لنمو الكثير من الأفكار والمعتقدات الغريبة على الإسلام. وهو نمو يتحقق على حساب المعرفة الصحيحة للدين في كثير من الأحيان.

وعندما انقشع ظلام الحكم الإمبراطوري وانزاحت ظلاماته، كان المسلمون يعانون من نقص حاد في الثقافة الإسلامية، لا بمعناها الواسع، ولكن في حدود الثقافة الأساسية للمسلم العادي.

أزمة متعددة الجوانب

لم يكن لدى المسلمين على سبيل المثال مصاحف إلا فيما ندر، حتى اضطر أحد علماء يونان في سنة 1862، واسمه سليمان دووين شيو، أن يحفر بيديه كل سور القرآن الكريم-بأجزائه الثلاثين-على ألواح خشبية، كوسيلة بدائية لطباعة القرآن وتوفيره لمن يريد. وذلك عن طريق صبغ اللوح بالمداد الأسود، ثم تثبيته مضغوطا على قطعة من الورق أو القماش، فتنطبع الآيات الكريمة، وتصبح صالحة للتداول فور جفاف المداد.

وليس معروفا كم استغرقت عملية حفر 114 سورة للقرآن بآياتها التي تتجاوز 6300 آية، على تلك الألواح الخشبية، ولكن المؤكد أن هذه العملية الشاقة احتاجت لجهد عظيم، وصبر لا يقوى عليه إلا من تمكن الإيمان العميق بالله من قلبه وجوارحه، واحتسب عند الله هذا الجهد، فأفنى

عمره فيه راضيا مطمئنا.

وقد رأيت نسخة من مصحف مطبوع بهذه الطريقة ضمن محفوظات الجمعية الإسلامية في بكين، وقيل لي إن بعضا من هذه الألواح الخشبية مازالت موجودة في يوننان.

وغير المصحف، فان ما توفر من كتب إسلامية-وأكثرها مخطوطات- إنما كان خليطا من المؤلفات العربية الفارسية، بحكم أن بلاد فارس هي الأقرب جغرافيا والأكثر اتصالا بالمسلمين الصينيين. وكان الفقيه لابد أن يكون عالما باللغة الفارسية لهذا السبب، ذلك أن المدارس الابتدائية كانت تدرس إلى جانب «تفسير الجلالي»، و«شرح الوقاية» و«عقائد النسفية» وكتب الصرف والنحو والبلاغة العتيقة، كتبا أخرى فارسية في الفقه هي: «أربعة فصول» وهو في أسئلة الإيمان وأجوبتها، ثم «المهمات» و «عمدة الإسلام»، والكتابان في الفقه الحنفي، مذهب المسلمين الصينيين. الأمر الذي أدى إلى تداخل ملحوظ بين ما هو عربي وما هو فارسي، دون أن يدروا.

وفي أوائل الثلاثينات من القرن الحالي، سنة 1931 تحديدا، سافرت إلى مصر أول بعثة من أبناء مسلمي الصين لدراسة الإسلام في الأزهر، وكانت تضم خسة أشخاص، أوفدتهم جمعية المقدم في يوننان على نفقتها، بينهم الأستاذ عبد الرحمن ناجونغ، الذي تخصص في التاريخ الإسلامي، ولا يزال يقوم بالتدريس والترجمة إلى الآن. ومن بين الذين ضمتهم البعثة شاب اسمه محمد مكين، قدر له أن يصبح واحدا من علماء المسلمين البارزين بعد عودته إلى الصين. وقد كتب مكين مقالا في جريدة «الفتح» المصرية بتاريخ 6 ذي القعدة، عام 1351 هـ، وقدمته الجريدة باعتباره صينيا «من المجاورين بالأزهر». وفي مقاله رسم صورة للكيفية التي تشكل بها فهم الصينيين للإسلام في أوائل القرن الحالي. وكان مما قاله في هذا الصدد:[3]

> **«كان العلماء في الصين يبالغون في ثواب النوافل، فاشتغل المسلمون بها عن الواجبات، وأكثرهم لا يصلون ولا يصومون، ولا يزكون، ولا يحجون. بل يهتمون بإقامة المآتم، ويدعون إليها رؤساء الدين والمتعلمين، ليقرأ كل واحد منهم سورا من جزء عم، أو جزءا من أجزاء القرآن الكريم، وليصلوا**

على النبي عليه السلام بالترجيع والتغريد. ثم تقدم إليهم الوليمة الفاخرة والصدقات الجزيلة. وإذا جاء مولد النبي عليه السلام أو مولد السيدة فاطمة رضي الله عنها، أقاموا حفلة الذكرى بصدقات المسلمين. وعملوا الولائم في أروقة المسجد، فحضرها المسلمون والمسلمات جميعا، يسمعون القرآن والصلوات والوعظ. وإذا حان وقت الصلاة صلى بعضهم، وبعضهم يأكلون ويشربون. فلما وجد بعض علماء الدين الخطر في هذه العادات المستبشعة، نصحوا المسلمين بأداء الواجبات بدلا عن النوافل، واخذوا يحرمون الطعام والصدقة لأجل تلاوة القرآن، فعارضهم المتعصبون والمنتفعون بهذه الحال، وانشقت عصاهم، ووقعت الفتنة بينهم غير مرة. وهذه الخصومة تميل الآن إلى الضعف والنقصان بحمد الله».

وفي مناخ كهذا كان طبيعيا أن تنمو ظاهرة الأولياء وأضرحتهم، التي وجدت تربة خصبة في هذا الفقر في المعرفة بالدين، من ناحية، وساعد عليها من ناحية أخرى انتشار المعابد البوذية التي هيأت مناخا نفسيا مواتيا. إذ مادام أن هناك من يخاطب بوذا التمثال والوثن فالمسلمون لن يكونوا أقل منهم إذا ما خاطبوا الولي الراقد في الضريح. وبذلك تتحقق الندية والمساواة بين الجميع!

وكان هناك من يعتقد في أن ماهوا لونغ، الذي قاد ثورة مقاطعة قانصو في عهد أسرة المانشو، إنما هو «قطب»، من الواصلين إلى الله سبحانه وتعالى، والقطب درجة من المعرفة بالله شائعة بين الطرق الصوفية. وثبتت هذه الفكرة، حتى قيل أن منزلة القطب هذه انتقلت إلى خلفائه بعد استشهاده، مما أعطى بعض أقاربه حقا في قيادة بعض مسلمي قانصو، في طريقة منسوبة إلى القطب الأب، ماهوا لونغ، عرفت باسم الجهرية.

وهذه الطريقة الجهرية هي من إفرازات فكرة غريبة سادت في قانصو في أوائل القرن الحالي، وانتشرت بين المسلمين، ووجدت فرقا تؤيدها وتدعو إليها. وخلاصة هذه الفكرة أن كلا من الخلفاء الراشدين له «طريقة» تختلف عما لدى الآخر، وتظهر معالمها في كيفية تلاوة القرآن الكريم،

وقراءة بعض الأدعية والمأثورات عن النبي عليه السلام. فأبو بكر رضي الله عنه طريقته «الخفية» (وينطقونها خوفية) حيث ينبغي أن يقرأ القرآن بصوت منخفض وغير مسموع. أما عمر فطريقته «الجهرية»، واتباعها يقرءون القرآن بصوت جهوري مرتفع. وطريقة عثمان هي «الكبارية أو الكبروية»، على اعتبار أنه كان كبيرا في السن. أما علي ابن أبي طالب فطريقته «القادرية»، والطريقتان الأخيرتان لها أوراد وأدعية خاصة تميزهما عن الغير! [4]

واتباع ماهوا لونغ من هؤلاء الجهرية الذين يقرءون القرآن بصوت عال، ويرخون أيديهم أثناء الصلاة، ويعتقدون في الأولياء وزيارة القبور.

والى جانب هذه الطرق أو الفرق، فقد شهدت بداية القرن الحالي ظهور جماعة أخرى من المسلمين تحمل اسم الأخوان، وهو الاسم الذي كان يحمله اتباع الإمام محمد بن عبد الوهاب، مؤسس المذهب الوهابي في الجزيرة العربية. وقد بدأت هذه الجماعة عندما أتيح لأحد أبناء قرية كويوان (البستان) في مقاطعة قانصو أن يؤدي فريضة الحج عام 1894، وهذا الرجل اسمه الشيخ نوح ماكو يوان، ويعرف بين المسلمين الصينيين إلى الآن باسم «كويوان» أي الحاج بستاني [5].

عاد الحاج بستاني من الحج، وقد راقته تعاليم المذهب الوهابي، التي رأى فيها مخرجا لإنقاذ الإسلام في الصين مما علق به من بدع وشوائب. فمضى يدعو إلى رسالته في ضرورة العودة إلى الدين الخالص، ووضع برنامجا لتحقيق هذا الهدف، يتضمن 30 نقطة في مقدمتها:

ضرورة قراءة القرآن في الصلاة حسب قواعد التلاوة، وإلا بطلت-التركيز على الفرائض في الصلوات قبل السنن-ضرورة إطلاق اللحية-دعوة النساء إلى لبس الحجاب-منع الاحتفال بالمولد النبوي باعتباره بدعة-منع إقامة الحداد والولولة على الميت-تحريم زخرفة جدران القبور بالقماش المكتوب عليه آيات القرآن، لان الآيات مقدسة ولا ينبغي أن توضع في مكان واحد مع جثة غير طاهرة-منع بدعة تقديم المصحف إلى الغير واسترداده، تكفيرا عن التقصير في أداء الفرض، واستبدال النقود التي تعطى للغير ثم تسترد بذلك (خصومهم كانوا يستفزونهم بأن يأخذوا الأموال ولا يردونها!)-تحرم إحياء ذكرى الميت-السماح لأهل الميت وحدهم بقراءة القرآن على

روحه بعد الوفاة، ومنع استئجار آخرين لهذه المهمة-ضرورة خلع الأحذية عند إقامة صلاة الجنازة-ضرورة رفع الإصبع السبابة عند قراءة الشهادة في الصلاة-الاعتماد في بدء وانتهاء شهر رمضان على رؤية الهلال بالعين المجردة (كان الشائع أن يحدد بدء رمضان بين الصينيين باليوم الثالث من الشهر القمري في التقويم الصيني).

شبح الأحزان يطل من جديد

لكن هذه الخلافات كانت تطفو على السطح وتختفي تبعا للظروف المحيطة بمجتمع المسلمين، والتي لم تكن هادئة تماما أو خالية من أسباب التوتر، كما تمنوا عندما اطل عليهم عهد الجمهورية الجديد . وإذا كانوا قد سعدوا بالاعتراف بهم كأحد عناصر الأمة الخمسة، ومارسوا في ظل هذا الاعتراف بعض النشاطات التي كانت محظورة عليهم من قبل، إلا انهم بمضي الوقت تعرضوا لمنغصات أعادت إليهم صور أحزان الماضي وآلامه.

وتكشف الكتابات الصينية [6] المنشورة بعد انتصار ماو على شيانغ كأي شيك ورجال حزب الكومنتانغ (الحزب الوطني)-عن أنه حدث صدام في أواخر عام 1911، بعد إعلان الجمهورية بين المسلمين وحاكم مقاطعة سينكيانغ، أدى إلى مقتل مائة ألف شاب وفتاة من المسلمين.

وفي سنة 1928- كما يذكر الكتاب الذي بين أيدينا-حدث أن قام المسلمون في مقاطعتي قانصو وليمشيا «بثورة مسلحة ضد فساد حكم شيانغ كاي شيك وعصابته، وقد ذهب ضحية هذا الجهاد المسلح العادل ما يربو على عشرة آلاف مسلم، قتلوا في مذابح بشرية بشعة، فضلا عن إحراق منازلهم. وعاث الطغاة في قانصو فسادا . حيث دمروا المنازل واهلكوا الحرث والنسل».

وحينما قام المسلمون يطالبون بحقهم في الحياة-يضيف الكتاب-فان آلافا آخرين ذبحوا فما بين سنتي 1930 و 1941، في ولايتي هايوان وقويوان[7] . وقد بلغت قسوة رجال الكومنتانغ حدا دفعت معه بعض الجنود المسلمين في الجيش إلى أن يقوموا هم أنفسهم بهذه العمليات الوحشية ضد إخوانهم المسلمين.

«ولا ينسى المسلمون في الصين ما قاسوه من فقر مدقع في عصر الكومنتانغ، إذ كان لا يتسنى لأي فرد من المسلمين أن يذبح بقرة أو خروفا

قربانا لله لضيق ذات يده. حتى انهم اسموا عيد الفطر عيد الدموع وأطلقوا على عيد الأضحى اسم عيد الذل.

ذلك فضلا عما قامت به حكومة الكومنتانغ من هدم لبعض المساجد في شيوشين، وبكين، وقرية موجيا تشوانغتسي في تيامستين.

ورغم أن الأمر قد لا يخلو من مبالغة فرضتها اعتبارات الهدف الدعائي الذي كان مطروحا في الخمسينات، بعد انتصار ماو على شيانغ كاي شيك، إلا أن الأمر لا يخلو من بعض الحقيقة على الأقل، ولا يزال هذا التأثير الدعائي مستمرا، لان الحسابات التاريخية لم تصف بعد بين الجانبين ويبدو أنها لن تصفى إلا بعد عودة تايوان التي استقل بها كاي شيك عن الوطن الأم.

وقد حاولت التثبت من صحة تلك الوقائع، خصوصا الأرقام الواردة في السياق، فكان الرد الذي سمعته في كل مرة يتحدث عن «فظائع الكومنتانغ». ولا يخرج بأي قدر عن ذلك أن الإعلامي الذي كان سائدا في الخمسينات. ولأن هذه المعلومات تتحدث عن واقع عانى منه المسلمون، أيا كان حجمه، فان ذلك يقودنا إلى معرفة المربع الذي وقف فيه المسلمون عندما احتدم الصراع بين كاي شيك وماو. الأمر الذي دفع المسلمين إلى تأييد خط القوى الوطنية الذي تزعمه الرئيس ماو. ودورهم في المسيرة الكبرى من جنوب الصين إلى شماله شاهد على ذلك.

وإذا كان فيلم جبال ليوبان قد صور جانبا من الحقيقة في موقف المسلمين من المسيرة، إلا أن الحقيقة الكبرى هي أن المسلمين لم يكونوا مشجعين للمسيرة ومؤيدين لها فحسب، ولكنهم كانوا في فصائلها المتقدمة أيضا.

ومن شيوخهم الذين لا يزالون على قيد الحياة من يقول أن اشتراك المسلمين في المسيرة كلفهم خسائر فادحة في الأرواح. لأنهم كانوا يقدمون على غيرهم، باعتبارهم مقاتلين أشداء مما حملهم عبئا اكبر من الآخرين طوال معارك الطريق.

وقد قال ماوتسي تونغ: حقا انه «من المستحيل علينا أن نحقق رسالتنا ومهمتنا، إذا لم نكسب المسلمين إلى جانبنا ونضمهم إلى جبهتنا [8]»، ولكن مقولته هذه لم تكن تعني أن مسلمي الصين وقفوا بعيدا وكانوا بحاجة إلى

من يدعوهم للانضمام للقوى الوطنية في معركتها، وهو التفسير الذي يردده البعض. وإنما ينبغي أن تقرأ المقولة في ضوء معرفة خط سير الجيش الأحمر، الذي انطلق من الجنوب، بهدف الاستقرار في منطقة الشمال الغربي، أي وسط تجمعات المسلمين الذين كانوا لا يزالون يحكمون بواسطة (أمراء الحرب الرجعيين) بتعبير ماو، ويعانون منهم الكثير بينما كانت المسيرة تضم آخرين من المسلمين الذين ينتمون إلى قومية هوى.

وقد كان مسلمو المناطق الشمالية الغربية وهي المناطق التي ضمت إلى الصين وأهلها ذوو أصول تركية أساسا (عرفوا بقومية أل ويغور)، هؤلاء كانوا يطمحون إلى نوع من الحكم الذاتي على اعتبار انهم كانوا من مواطني دولة (تركستان) التي قدر لها أن تقسم بين الاتحاد السوفيتي والصين، وقد أعلنوا الانفصال من قبل، وأعادوا تأسيس دولة تركستان الشرقية، بقيادة يعقوب بك، خلال سنوات صراعهم مع أسرة المانشو.

ولما كان تقدير ماو أن يجعل من مقاطعة شنشى المسلمة مقرا لقيادته في مقاومة الاحتلال الياباني، فقد بات طبيعيا أن تشغله مطالب هؤلاء المسلمين ويحدد موقفه منها. خصوصا أن هذه المطالب كانت أحد أسباب الصدام مع رجال الكومنتانغ. وعلى ذلك فقد أعلنت الثورة موقفها بوضوح، لكي تفوت على (أمراء الحرب الرجعيين) أي محاولة للدس بين الجيش الأحمر والمسلمين المحليين. ووعدت الثورة المسلمين بوعود محددة هي: إقامة حكومة إسلامية مستقلة ذاتيا-إلغاء كل الضرائب (وقد مر بنا كم كانت فادحة)-إلغاء الديون والفوائد القديمة-إلغاء التجنيد الإجباري في جيوش أمراء الإقطاع-حماية حرية العقيدة الدينية للجميع-حماية الثقافة والتراث الإسلامي.

واصدر تشوتيه قائد الجيش الأحمر أوامر إلى جنوده، من غير المسلمين، يحرم عليهم فيها أربعة أمور تحريما مطلقا، مراعاة لشعور المسلمين، وهي: التزام المحاربين بعدم دخول المساجد-عدم أكل لحم الخنزير أو نطق كلمة خنزير أمام المسلمين-عدم دخول أي بيت من بيوت المسلمين بغير استئذان، وإذا دخل أي شخص بيتا من هذه البيوت بعد الاستئذان فلا ينظر إلى النساء ولا ينتهك حرمتهن بأي صورة-عدم جمع التبرعات أو مصادرة ممتلكات المسلمين (9).

المسلمون في «الجحافل الحديدية»

وعندما دقت طبول حرب المقاومة الصينية ضد الاحتلال الياباني (1937-1945) كان موقف المسلمين يشرفهم حقا، ليس فقط كوطنيين مخلصين، بل كمقاتلين شجعانا أيضا. فقد شكل المسلمون أثناء حرب المقاومة فصيلة قومية هوى التي عرفت باسم الجحافل الحديدية، بقيادة ضابط مسلم دخل تاريخ الصين الحديث، لبسالته الفائقة، اسمه مابن تشاي، وهو من الهويين أيضا.

وتحت قيادة هذا المقاتل الشجاع، خاضت الجحافل الحديدية معارك طاحنة ضد اليابانيين في شمال الصين، حققت فيها انتصارات باهرة، كانت سببا في إيقاف محاولات اليابان الاستيلاء على منطقة سينكيانغ [15].

ولشدة حقد اليابانيين على القائد المسلم مابن تشاي، فانهم استطاعوا إلقاء القبض على أمه، ليضغطوا بها على الابن طالبين منه التسليم، ولكن الأم أضربت عن الطعام حتى ماتت في الاعتقال، وظل «ما» يقاتل اليابانيين وسط جنوده حتى سقط شهيدا في ميدان القتال.

وفي سجل عزائه، كتب رئيس اللجنة الدائمة لمجلس النواب الصيني يقول: لقد كان مابن تشاي نموذجا عظيما للمناضلين في الصين، إذ استشهد هو وأمه دفاعا عن الوطن.

ذلك على الصعيد العسكري. وعلى صعيد آخر، فان المسلمين الصينيين شكلوا وقتئذ أربع بعثات سافرت إلى العالم العربي وبعض دول آسيا الأخرى في مهمة لكسب الرأي العام في تلك الدول إلى جانب الصين في معركتها ضد العدوان الياباني.

وفي المواجهة المسلحة بين شيانغ كاي شيك، مؤيدا بالغرب والأمريكان، وبين ماوتس تونغ مؤيدا بالقوى الوطنية وعلى رأسها الحزب الشيوعي الصيني، وهي ما يسمى في الصين الآن (بحرب التحرير 46- 49)، فان المسلمين وقفوا إلى جانب ماو، الذي كان نجمه يصعد باعتباره رمزا لنضال الشعب وآمال جماهيره الفقيرة، ومن بين ملايين المسلمين في الصين، فان الذين اتجهوا إلى فورموزا-مع رجال كاي شيك-لم يتجاوز عددهم 40 ألفا فقط!

وعندما دخل ماوتسي تونغ بكين وأعلن في أول أكتوبر سنة 1949 انتصار الثورة وبدء صفحة جديدة تماما، فان مسحة من التفاؤل الشديد عمت المسلمين، حتى تجددت ثقتهم في المستقبل الذي بدا مشرقا ومفتوح الآفاق بغير حدود.

البوكسرز والمسيحيون والبرابرة

بينما الستار يفتح على مشهد جديد ومثير في تاريخ الصين ظل للمسلمين رصيدهم الممتاز، وموقعهم المتميز.

لماذا كان ذلك للمسلمين دون غيرهم من أصحاب الأديان السماوية؟

لان المسلمين تجاوزوا-نسبيا-«عقدة الأجانب» عند الصينيين، ولأن الإسلام أسبق الأديان السماوية التي وصلت إلى تلك البلاد النائية، فقد استطاع اتباعه أن يتكيفوا مع شكل الحياة الصينية لفترة من الزمن، ثم صاروا جزءا لا يتجزأ من هذه الحياة فما بعد. وقد مر بنا كيف انهم كانوا شديدي الحرص على ألا يميزوا عن الصينيين، سواء في مظهرهم أو أسمائهم أو في مساجدهم، حتى ألغيت المئذنة من المسجد الصيني لهذا الاعتبار.

وساعد على تجاوز هذه العقدة أن الإسلام وفد إلى الصين من بلاد آسيوية، الجزيرة العربية أو بلاد فارس أساسا، بينما المسيحية مثلا جاءكم من أوروبا، على أيدي المبشرين الوافدين من إيطاليا بوجه خاص، بدليل أن البروتستانت والكاثوليك وحدهم هم الذين عرفوا في تلك البلاد.

ولكي ندرك مدى أهمية تجاوز هذه العقدة، يجب أن نتصور حجم الكراهية والحذر اللذين يحملهما الصينيون للأجانب، الذين كان يشار إليهم في الكتابات الصينية القديمة باعتبارهم «برابرة»، ثم يجب أن نراجع تلك الصفحات المأساوية في التاريخ الصيني، التي ملأها الأجانب بأسطر دامية، مارسوا خلالها ضد الشعب الصيني أبشع صور المهانة والاحتقار. وسجل كل الأجانب مع الصين-بما فيهم اليابانيين أولاد العم-حافل بتلك الصفحات المترسبة في أعماق الفرد الصيني منذ قرون مضت.

وقد أضر بالمسيحية كثيرا في الصين أنها ارتبطت بالمبشرين، الذين مارس بعضهم مهمة التبشير، ليستر بها نشاطات وأطماع سياسة أخرى،

حتى بات مستقرا في الأذهان أن المبشرين هم مقدمة للمستعمرين، تماما كما حدث في القارة الإفريقية.

ولم يستسغ الصينيون فكرة أن يكون المبشرون من جنس أولئك الذين علقوا لافتات بارزة على عديد من الفنادق والمطاعم وحتى الحدائق في معقلهم «شنغهاي»، كتب عليها بحروف صينية ولاتينية: ممنوع دخول الصينيين والكلاب!

وقد انفجر هذا الحقد الدفين ضد الأجانب في ثورة «البوكسرز» أو الملاكمين التي راح ضحيتها آلاف المسيحيين الأبرياء، لا لشيء إلا لأنهم ثبتت بحقهم تهمة أنهم «أجانب»!

فقد حدث أن قتل مبشر إنجليزي في حادث غامض بإحدى قرى الشمال الصيني، فثارت ثورة بريطانيا، وطلبت على الفور اعتذارا وتعويضا، وانتهزت الفرصة لتفرض طلبات أخرى سياسية واقتصادية لا صلة لها بالحادث، وهددت بريطانيا بالتدخل العسكري إذا لم يستجب لهذه الطلبات، الأمر الذي أثار الرأي العام وفجر ثورة «البوكسرز» سنة 1900، بصورة عنيفة زلزلت الصين كلها، على نحو لم يتوقعه أحد.

وكانت البوكسرز جمعية سرية كوّنها فلاح صيني باسم «جمعية قبضة الحق» [١١] لكي تطرد الأسرة المالكة وتبيد الأجانب. وتحت وطأة الظلم والقهر الذي ساد البلاد في أواخر عهد أسرة المانشو، وبسبب كراهية الأجانب المتأصل في النفوس، فان تهديدات بريطانيا بالتدخل وسياسة الابتزاز والاستفزاز التي اتبعتها لاستثمار حادث مقتل المبشر، هذه التهديدات كانت بمثابة عود الكبريت الذي أشعل الحريق الكبير، وفجر الثورة التي انطلقت عارمة وكاسحة، بحجم الظلم الذي حاق بالناس، وبحجم الكراهية للأجانب المترسبة في الأعماق.

وانطلقت قبضات «البوكسرز» تفتك بكل «البرابرة» الذين طالتهم، ولم ينج من القتل واحد مثل سفير ألمانيا في بكين، الذي لم تشفع له لا حصانته ولا مكانته.

اهتز العرش الصيني، وارتعدت الإمبراطورة ذات القبضة الحديدية «يهونالا»، فأرسلت إلى جماعة «البوكسرز» من يقنعهم بأنها تؤيد حركتهم، فصدقها الثوار المتمردون، ورفعوا شعار «أبيدوا الأجنبي واحفظوا العرش<+!

وعندئذ اصبح هدف الثورة هو إبادة الأجانب في الصين، الذين لم يكونوا سوى عدة ألوف من المسيحيين المتمركزين في المدن الكبرى.

فزعت الدول الأجنبية لما تعرض له المسيحيون في الصين، فلجأت إلى تكوين جيش مشترك من قرأت ثماني دول بقيادة المارشال الألماني (والدرس)، اتجه إلى الصين لحماية الأجانب من الخطر، ولتأديب شعب الصين كله من جراء تطاول بعض أفراده على كرامة الرجل الأبيض.

وجاءت الحملة تحت مظلة الدفاع والتأديب، لكنها أقدمت على فظائع تشين حضارة الغرب إلى الأبد. إذ ارتكبت مذابح ومجازر لم تستثن طفلا أو شيخا أو امرأة، حتى قيل إن بعض الصينيين كانوا يلجئون إلى الانتحار حتى لا يقعوا في أيدي جيش الغرب وزبانيته، ويتعرضوا لمختلف صور التعذيب الوحشي. وشارك المبشرون في الحملة، حتى قادوا عصابات شاركت في هذه الفظائع، رفعت شعار «الانتقام من أعداء المسيح».

وخلفت الحملة الغربية دمارا وخرابا وأشلاء ونهبا في كل بقعة بلغتها. وخلفت في الوقت ذاته صفحة جديدة من تلك الصفحات المرة والدامية التي يحفل بها سجل الأجانب في الأعماق الصينية.

ولأنهم تصرفوا «كبرابرة» حقا، فان ذلك أساء بغير حد إلى موقف المسيحية في الصين، وأضاف حاجزا جديدا حال دون ترحيب الصينيين بالدين والمنتسبين إليه.

أما بالنسبة للهودية، فلم يكن لها من البداية شأن يذكر في الصين إذ لم يتجاوز الدين اليهودي حدود مدينة شنغهاي، معقل الأجانب، التي يقال إنه كان يوجد بها كنيس يهودي أقامه بعض هؤلاء الأجانب، في بدايات القرن الحالي، ثم اندثر ولم يعد له وجود.

يضاف إلى هذه العوامل كلها في خلق موقف متميز للمسلمين الصينيين رصيد نضالهم الطويل ضد الظلم الإمبراطوري، وإسهامهم بالقدر الذي أتيح لهم في مسيرة ماو الكبرى، وفي حرب المقاومة ضد الاحتلال الياباني، ثم رفض أغلبيتهم الساحقة النزوح إلى فورموزا مع شيانغ كاي شيك، وإصرارهم على البقاء في وطنهم الذي رفع أعلام الثورة، وهبت عليه ريح عهد جديد.

ذلك بينما كان المسيحيون يؤيدون شيانغ كاي شيك على طول الخط،

سواء بسبب زواجه من سيدة صينية مسيحية هي سونغ موي لينغ (شقيقة زوجة الدكتور صن يات صن)، التي كانت ذات علاقة وثيقة بنشاطات المبشرين، أو بسبب من تأييد الغرب والولايات المتحدة الأمريكية له، وهو المربع الذي اختار المبشرون الانحياز إليه. وهو أمر أساء-أيضا-إلى موقف المسيحيين كثيرا فيما بعد، واثر على موقف النظام الجديد منهم.

هدنة لالتقاط الأنفاس

كانت السنوات التي انقضت فيما بين عامي 1911 و 1949 بمثابة مرحلة التقاط الأنفاس بالنسبة للمسلمين مرحلة النهوض من الكبوة استعدادا لممارسة الحياة الطبيعية بغير كبت ولا قهر ولا اضطهاد.

كانت مدارسهم ومعاهدهم يتزايد عددها، و يتحول فيها المنهج التقليدي العتيق إلى آخر أكثر عصرية وجدوى. وكانت جمعياتهم تتدعم وتوسع من نشاطاتها رأسيا وأفقيا.

وكانت صلاتهم بالعالم الإسلامي قد تجددت. عادت وفود الحجاج الصينيين إلى بيت الله الحرام، وقطعت الجمعيات الإسلامية الأهلية شوطا لا بأس به في اتجاه إيفاد مبعوثين صينيين للدراسة في الأزهر. إذ سافر خمسة أشخاص عام 1931، وخمسة آخرون في العام الذي تلاه، ثم ثلاثة في عام 1933، وستة في عام 1934، ثم 16 مبعوثا دفعة واحدة في عام 1937، وقد أطلق على هذه المجموعة التي سافرت إلى مصر اسم البعثة الفاروقية، مجاملة لملك مصر السابق «فاروق»، الذي حرصت أول بعثة صينية إلى الأزهر على مجاملة أبيه (الملك فؤاد)، فحملت إليه عام 1931 هدية من الشاي الصيني الذي لم يكن قد سمع به من قبل [12]!

وبذلك بلغ مجموع الصينيين الذين درسوا في الأزهر 35 شخصا، في الفترة ما بين عامي 1931 و 1949، رغم أن بعضهم واجه مشاكل في الاعتراف بشهاداتهم في ظل حكومة الكومنتانغ.

وفي الوقت ذاته طبع المصحف الشريف باللغة العربية 4 مرات، و بدأت طباعة بعض الكتب الإسلامية الأخرى.

وكانت هذه هي المرحلة التي أفرزت عددا من علماء المسلمين الذين برزوا فما بعد، وبذلوا جهودا مضنية من أجل تعريف مسلمي الصين بدينهم

على وجه صحيح بالتأليف والترجمة من العربية إلى الصينية، ومن هؤلاء[13]:

● الشيخ وانغ جينغ تشاي المتوفي في عشية التحرير، ومن مواليد تيانجين؛ وقد عمل إماما ومعلما ومحررا لمجلة نور الإسلام التي أنشأها وساهم هو وأفراد عائلته في طبعها وتوزيعها... ولم تتح له فرصة دخول مدرسة نظامية، وان استوعب بجهده الدائب اللغات الصينية والعربية والفارسية، بل وخلف وراءه كثيرا من الترجمات، واشهرها ترجمة القرآن الكريم المطبوع في سنة 1945، وهي أفضل واكمل ترجمة للقرآن ظهرت بالصينية، ثم كتاب «العمدة» وهو الكتاب الفقهي الشائع في الصين منذ اكثر من ثلاثة قرون. و«كلستان» ديوان الشاعر الفارسي المعروف ب «سادي»، ثم القاموس العربي الصيني.

● الشيخ محمد تواضع بانغ شي تشيان المتوفي في سنة 1958. وهو عالم أزهري، كان ضمن المجموعة الأولى التي التحقت بالأزهر من أبناء مسلمي الصين، وقد عمل إماما ومحررا ومعلما، فضلا عن أنه أول من جلب حروف الطباعة العربية إلى الصين مما قدم مساهمات كبيرة في نشر الثقافة الإسلامية. وإضافة إلى ذلك فقد ألف كتابا بعنوان «ذكريات تسع سنوات في مصر»وترجم كتاب«تاريخ التشريع الإسلامي» وكتاب «رسالة الإسلام» وكتاب «مذاهب الدين الإسلامي» وغيرها من الكتب. كما نشر عديدا من المقالات في مجلة «هلال الصيني» المطبوعة آنذاك. وقد كان الشيخ تواضع على اتصال بجماعة الأخوان المسلمين خلال سنوات دراسته في مصر حتى أصدرت الجماعة له في الثلاثينات رسالة باسم (المسلمون في الصين).

● لشيخماليانغ غيون المتوفي في سنة 1957: كان وما يزال موضع الاحترام والتقدير لدى المسلمين الصينيين وخاصة في سينكيانغ، حيث يعتبرونه إمام الأئمة هناك. وكان يواظب على تأليف وترجمة الكتب الدينية باللغات الصينية والعربية والفارسية بل ولجأ في الظروف السيئة جدا إلى كل الوسائل الممكن اتباعها لنشر المطبوعات. حتى ليقال إنه قد أنفق أمواله في طبع الكتب ومساعدة فقراء و يتامى المسلمين، وعاش حياة زهد وتقشف، ولم يخلف بعد وفاته غير سيرته العطرة، وبعض الكتب وعمامة ومسبحة. ولم تلق أعمال الشيخ ماليانغ عناية من أحد، على كثرة ما ألف وترجم.

ولكن ما عرض من ترجماته لا يتجاوز «المبسوط» للسرخسي «والمخمسات» باللغتين الصينية والفارسية، وهي مجموعة كبيرة من القصائد الدينية.

● لأستاذ محمد مكين-عضو أول بعثه درست الإسلام في الخارج-الذي أشرنا إليه من قبل: اكمل دراساته في الجامع الأزهر ودار العلوم. وبعد وقت قصير من عودته من مصر ظل طوال 30 سنة يعمل أستاذا في جامعة بكين حتى توفاه الله في عام 1978.. ومن مؤلفاته: «سيف محمد» صلى الله عليه وسلم و «موجز شرح القرآن الكريم» وفي مقدمة ترجماته: القرآن الكريم-لم يطبع-و «رسالة التوحيد»، و«حقيقة الدين الإسلامي» و «تاريخ علم الكلام» و «تاريخ التعليم الإسلامي» و «منهاج التقويم الهجري»، و«تاريخ العرب» الذي نشر بعد وفاته بسنتين (عام 1980).

ونسبيا، فإننا نستطيع أن نعتبر هذه الفترة فيما بين سنتي 1912 و 1949، واحدة من الفترات الغنية والخصبة، رغم ما مر بها من منغصات. وقد نستطيع أن نضعها في مرتبة مماثلة لتلك التي عاشها المسلمون في ظل أسرة يوان، خلال العهد الإمبراطوري.

ولعل العلامة البارزة التي تسجل لهذه الفترة-بالإضافة إلى الرصيد الذي استعرضنا بعض جوانبه-هو ذلك الإعلان الرسمي الذي اعتبر المسلمين أحد عناصر الأمة، ثم الاعتراف في الدستور بحقهم في التمثيل بالبرلمان، مما أتاح للمسلمين انتخاب 17 منهم للجمعية الوطنية عشية التحرير، في عام 1947.

وتلك كلها دلائل كانت تعني أن باب الأمل قد انفتح أمام المسلمين، وأن طريق الانطلاق نحو المستقبل بات ممهدا، وأن الغد-أخيرا-صار اكثر إشراقا.

وظلت هذه الأحلام والطموحات تداعب خيالات المسلمين بينما السلطة الجديدة بقيادة الرئيس ماو تثبت أقدامها في الصين، بعد انتصاره على الكومنتانغ، ودخوله بكين.

3 عندما حدثت القفزة الكبرى

« ...وعلى النقيض مما قاساه المسلمون في الماضي، وما عانوه من حرمان، ولاقوه من اضطهاد، وعدم اطمئنان على حياتهم، بل ولم يتمتعوا بأبسط حقوقهم، عوضهم عهد تحرر البلاد-عهد الجمهورية-الكثير عما فقدوا. فأبدل قلقهم أمنا، وظلمهم عدلا، وفقرهم رخاء، وحرمانهم عطاء. فإذا بالمسلمين في الصين اليوم يرفلون في حلل من السعادة و يغدون في بحبوحة من الرخاء، حتى انتعشت أحوالهم الاقتصادية والثقافية».

وأتيحت الفرصة لعدد كبير من عامة المسلمين أن يشتركوا كأعضاء في الدورة الأولى للمؤتمر الاستشاري الوطني التي عقدت في البلاد، ثم اشتركوا بعد ذلك في أول مجلس لنواب الشعب، بعدما اصبحوا ممثلين بنواب في المجلس...

«هذا فضلا عن اشتراك عدد كبير من المسلمين في المجالس الإقليمية، بينما اصبح منهم عدد لا يستهان به يشغلون مناصب هامة في الدولة، سواء في الحكومات الإقليمية، أو الحكومة المركزية. ومنهم من أصبح يساهم في الخدمات العامة للدولة، و بذا صاروا يتمتعون بكافة حقوقهم كمواطنين-من كتاب الصين المتحررة-صدر في بكين عام 1957».

«حققت الجمعية الإسلامية الصينية منذ تأسيسها عام 1953، الكثير من النتائج الحميدة تحت قيادة الحزب الشيوعي الصيني، ورعاية وتأييد الحكومة الشعبية... لكن أعمال الجمعية ونشاطاتها توقفت كليا خلال السنوات العشر المضطربة التي عربد فيها لين بياو و «عصابة الأربعة»، بسبب عرقلة وتخريب ذلك الخط اليساري المتطرف. أما الآن-بعد سحق عصابة الأربعة-فقد استأنفت الجمعية أعمالها تدريجا، نتيجة تطبيق سياسات الحزب المختلفة»-من تقرير الحاج محمد علي تشانغ نائب رئيس الجمعية الإسلامية الصحية (رئيس الجمعية فيما بعد) إمام المؤتمر الإسلامي الصيني الرابع، في 6 إبريل 1980.

«لقد ديست السياسة الدينية في الصين بالإقدام إبان حكم «عصابة الأربعة» الشريرة، شأنها شأن سائر السياسات. في ظلها كانت كثير من المساجد مغمقة الأبواب، وشعائر المسلمين الدينية عرضة للتدخل. و بعد تحطيم عصابة الأربعة، أكدت الحكومة من جديد أن الحرية في العقائد الدينية هي سياسة طويلة الأمد للحزب؟ الدولة»-من مقال نشرته مجلة الصين المصورة (عدد واحد لسنة 1980) تحت عنوان «المسلمون في الصين»، كتبه محمود لي هوا أن.

هذه النصوص تعبر بقدر عن واقع للمسلمين، تفصل بين طرفيه فترة زمنية تصل إلى حوالي ربع قرن. رؤية ما بعد «التحرير»، بعد تولي الحزب الشيوعي الصيني السلطة في عام 1949، ورؤية ما بعد ماو، في أعقاب «سحق عصابة الأربعة». بين أحلام العهد الجديد ووعوده، و بين أشواك الطريق وممارسات الواقع.

وهي رؤية تحمل عصابة الأربعة مسئولية ما أعاب الإسلام والمسلمين في الصين، وبالتالي فإنها تحصر «تلك السياسة الشريرة» في فترة الثورة الثقافية، التي امتدت طوال عشر سنوات، من 66 إلى 76.

أين انتهى الحلم، ومتى أطلت الحقيقة؟... وهل الحقيقة نسبية، مرهونة بظروف الزمان والمكان، أم إنها حقيقة ثابتة، تتدخل فيها اعتبارات الزمان والمكان بتأثيرات في الدرجة وليس في النوع؟ والى أي مدى تتحمل الثورة الثقافية مسئولية تخريب السياسة الدينية؟.. وما هي-من الأساس-تلك السياسة الدينية؟... وهل هو موقف استراتيجي، أم أنها مبادرات تكتيكية؟

شأن كثير من القضايا التي يمكن أن تكون موضع جدل أو حوار في الصين، فان الأسئلة دائما تظل اكثر من الأجوبة، والحقيقة دائما صعبة المنال، وإذا سألت فان كرم الناس-من السائق إلى أعلى مسئول-في توزيع الابتسامات لا يعادله إلا شحهم في إعطاء المعلومات.

ثم إن هناك «خطأ للحزب» يتعذر على الجميع أن يحيدوا عنه، سواء كان موضوع الحديث في التاريخ أو في الجغرافيا، أو في الفن أو الفضاء. والكلام الموجود في الكتب هو ذاته الموجود في المجلات، هو ذاته الذي تنقله الإذاعة والتلفزيون، وهو ذاته الذي يردده عامـــل المصعد في الفندق!

فما من سؤال طرحته حول المسلمين، مساجدهم أو معاهدهم أو كتبهم أو شعائرهم، إلا وقذفت الكرة في مرمى عصابة الأربعة، عندما يتطرق الحديث إلى أي نقيصة أو ظاهرة سلبية، وما من مرة حاولت فيها أن أختار منهجا لتتبع مسيرة المسلمين في الصين منذ عام 49، إلا وجاء الرد: سياسة الحرية الدينية كانت منفذة جيدا، حتى آل الأمر إلى عصابة الأربعة، فتوقفت عجلة التطبيق السليم لهذه السياسة مدة عشر سنوات (مدة الثورة الثقافية) ثم صحح الموقف إلى ما كان عليه وصار كما ترى.

لكني اكتشفت من خلال المناقشات أن ذلك وجه واحد للحقيقة، وان مسيرة المسلمين بعد التحرير يمكن أن تقسم مراحلها إلى أربع هي: مرحلة الإعداد لتأسيس الدولة (49- 58)-مرحلة بدء التطبيق الفعلي للنظام الشيوعي (58- 66)، مرحلة الثورة الثقافية (66- 76)-مرحلة ما بعد الثورة الثقافية، التي بدأت منذ عام 78 فصاعدا.

أي أن هناك مرحلة ساقطة في الخط الإعلامي للحزب هي تلك التي بين عامي 58- 66، ولأنها تسبق مباشرة أحداث الثورة الثقافية، فإنها تلقي الضوء على طبيعة المقدمات التي أسفرت عن تلك النتائج، ومن هنا تكتسب هذه المرحلة أهميتها، ومن هنا أيضا ينبغي أن تستوقفنا، لان ما جرى فيها يعد أخطر بكثير مما فجرته الثورة الثقافية، ذلك أن التركيز على الثورة الثقافية وحدها إنما يلقي اللوم على الثمار ويعيب عليها أشواكها ومرارتها، بينما تظل محاولة فهم طبيعة تلك المرحلة التي سبقتها هي نوع من اكتشاف نوع الغرس ذاته. والمواجهة الحقيقية لأي ظاهرة «شريرة» تكون باستئصال

أسبابها، وليس بعلاج نتائجها في مرحلة معينة.

دعونا نر.....

بعد التحرير: انتظار وترقب

لابد لنا أن نتصور الجو النفسي الذي عاشته قيادة الصين في أعقاب تولي ماو السلطة عام 1949. عندما اصبح على قمة بلد تعداده 500 مليون نسمة-وقتئذ-أنهكته المظالم والحروب والمجاعات، وصارت القيادة في موقعها الفريد هذا مطالبة بأن تضمد جراح الشعب، وتعوضه عما فاته، وتبدأ على الفور في الحشد والترميم والبناء. وهو عبء عظيم وجسيم ينوء به كاهل أي قيادة عادية مهما بلغت قدراتها، ما لم تكن قيادة فذة وغير عادية، وقد تمثلت في شخص ماوتسي تونج في ذلك الحين.

كانت القضية الأولى هي تثبيت السلطة للنظام الجديد، وكأي سلطة ثورية، فان شعاراتها ومثالياتها تظل مرحلة البداية عادة، حتى تغوص في الواقع وتتمكن منه، فلا تمانع بعد ذلك في التنازل عن بعض هذه الشعارات والتنازلات، لمقتضيات قد تتعلق بطبيعة الممارسة ذاتها، أو بالتوازنات الداخلية والخارجية، أو لضرورات الاستمرار والبقاء.

وفي الصين منذ الأزل سلطة مركزية قوية قابضة على الزمام بقوة (ابن السماء)، وبالنظام الدقيق المتبع في كل شيء، وبالانضباط الشديد الذي جبل عليه ملايين البشر. وسواء تحقق ذلك لأسباب تاريخية أو جغرافية، فالمهم أنه تحقق، و بات من الطبيعي أن تبادر السلطة الجديدة ليس فقط إلى تثبيت أقدامها، ولكن أيضا إلى الإمساك بكل الخيوط من جديد. وهو موقف ليس نابعا فقط من فكرة «ديكتاتورية البروليتاريا»، كما قد يتوهم البعض، لان نظام الدولة القابضة على مقدرات الحياة معروف في الصين منذ سنوات ما قبل الميلاد. وتدخل ديكتاتورية البروليتاريا هنا من باب الصياغة النظرية لهذا الموقف. الأمر الذي يدعونا للقول بأن الحزب الشيوعي عندما رفع هذا اللواء، لم ينشئ وضعا جديدا، ولكنه أعاد تجربة قديمة مستوحاة من تعاليم كونفوشيوس. في ثياب جديدة، وبتنظير عقائدي جديد.

فالإمبراطور وو-دي دعا في القرن الثاني قبل الميلاد إلى ملكية الدولة

لكل الموارد الطبيعية. ليمنع الأفراد «أن يختصوا أنفسهم بثروة الجبال والبحار، ليجنوا من ورائها الأموال الطائلة، ويخضعوا لها الطبقات الدنيا» وبعد ذلك باثني عشر قرنا، وضع الإمبراطور تاى تسوه أول أباطرة أسرة سونغ نظاما لإشراف الدولة على النشاط الاقتصادي، وقال وزيره الأول وانغ آن-شي الذي حمله هذه المسئولية: «يجب أن تسيطر الدولة على جميع شئون التجارة والصناعة والزراعة وتصرفها بنفسها، وأن يكون هدفها من ذلك هو حماية الطبقات العاملة.» [1].

في الصين كان يقال ذلك ويطبق، بينما الحضارة في طفولتها، وبينما الاشتراكية لا تزال في بطن الغيب.

لقد كانت القيادة الجديدة في سنة 49 وخلال السنوات التي أعقبتها تتحدث بلغة الثورة، ولم تكن قد تمرست بعد على حسابات قاموس لغة الدولة.

وفي هذا المناخ فان قضية المسلمين لم تكن مثارة إلا بالقدر الذي يحسن علاقات الصين مع دوال العالم الإسلامي، التي تقبل أكثرها باستياء فكرة قيام دولة شيوعية في الصين. وأقلقها في الوقت ذاته مصير ملايين المسلمين في تلك البلاد النائية.

ونحن نستطيع أن نرصد معالم محددة للواقع الذي اصبح عليه المسلمون، بينما العهد الجديد يبدأ خطواته الأولى في عام 49، على الوجه التالي:

- كان هناك موقف قانوني استقر منذ إعلان الجمهورية، يعترف بكيان المسلمين، و يعطيهم الحق في التمثيل البرلماني.
- كانت هناك بوادر نهضة تمثلت في انتشار الجمعيات والمعاهد والمدارس الإسلامية، وهو ما كان مصحوبا بعدد من الصحف التي تعكس هذه النشاطات وتعبر عنها.

كانت هناك محاولة لإعادة الاتصال بالعالم العربي والإسلامي، عبر قناتين محددتين: الحج، وتبادل الزيارات الودية.

يضاف إلى هذه العناصر ذلك التعاطف النسبي الذي كان يبديه قادة الثورة تجاه المسلمين، تقديرا منهم لذلك الرصيد المتميز الذي تمتعوا به، ووقفتهم الدائمة إلى جوار-بل وفي طليعة-المناضلين ضد الظلم الإمبراطوري، ثم وقوفهم في صف القوى الوطنية بعد إعلان النظام الجمهوري، واشتراكهم

في مسيرة الرئيس ماو عام 1935، ودورهم المشرف في الحرب الصينية اليابانية، ثم-أخيرا-رفضهم الانحياز إلى شيانج كاي شيك أثناء صراعه مع الرئيس ماو.

ولم يكن هناك سبب جوهري يدعو إلى قلق المسلمين بعد عام 1949، ولكن الواضح انهم كانوا في حالة ترقب، انتظارا لما ستسفر عنه التطورات الجديدة. وما يثير الانتباه هنا أن الجمعيات الإسلامية العديدة التي كانت نشطة قبل التحرير بدأت تحتفي واحدة تلو الأخرى في عام 1949، حتى إننا لا نكاد نعثر على نشاط يذكر سواء للجمعيات الإسلامية أو لبقية المسلمين طوال الفترة التي أعقبت التحرير مباشرة. فلا حجاج سافروا إلى الأراضي المقدسة، ولا بعثات سافرت للدراسة خارج الصين منذ مغادرة «البعثة الفاروقية» إلى القاهرة.

ولكننا نعثر فقط على بوادر نشاطات للمسلمين في عام 1953، بعد أربع سنوات من تولي السلطة الجديدة. ففي ذلك العام ظهرت إلى الوجود «الجمعية الإسلامية الصينية» كجمعية وحيله ممثلة للمسلمين في الصين.

وقد حاولت أن أتقصى بعض المعلومات عن الظروف التي أحاطت بهذه الخطوة، ومصير الجمعيات التي كانت قائمة، فلم أجد ردا شافيا، باستثناء القول بان بعض المسلمين وفي مقدمتهم الحاج برهان شهيدي، والحاج نور محمد (دا بوشنغ) تقدموا «باقتراح» إنشاء هذه الجمعية الجديدة، وتمت الموافقة على الاقتراح، ونفذ في عام 1953. وقد قدر للحاج برهان شهيدي أن يظل رئيسا لتلك الجمعية منذ عام 1953 وحتى أوائل عام 1980، وقد انتخب غيره للرئاسة (نائبه محمد علي تشانغ جيه) بعدما أقعدته الشيخوخة عن الاستمرار في الموقع، ولا يزال يعد رئيسا فخريا للجمعية.

ويمكننا أن نستنتج أنه في إطار اتجاه السلطة الجديدة إلى فرض سيطرتها تدريجا على كافة النشاطات، فقد كان طبيعيا أن تضيق الفرصة أمام النشاطات الأهلية، وأن يفتح الباب واسعا للمؤسسات التي تنمو من خلال النظام الجديد. وأيا كانت الدوافع التي حدت بهذه المجموعة من المسلمين لأن تقدم هذا الاقتراح، فانه من الثابت أن الجمعية الإسلامية الصينية ولدت وتربت على حجر السلطة ظروف ميلادها توحي بذلك، وظروف استمرارها إلى الآن تؤكد ذلك.



حرصت أول بعثة صينية تخرج إلى الحج عام 1955 بعد التحرير على زيارة المسجد الأقصى. وهي هنا في صورة تذكارية أمام قبة الصخرة.

أول بعثة سافرت إلى الحج من بكين عام 1955 في ملابس الإحرام.



صورة تذكارية لفترة ما بعد التحرير مباشرة حيث كان للنشاط الإسلامي بقية، والصورة لسيدة تعظ أخريات في أحد مساجد شنغهاي.

نلاحظ أيضا أن الجمعية أوفدت بعثة للحج عام 1953، فور إنشائها، ربما لتكتسب شرعية التعامل مع العالم الإسلامي، ولكن البعثة وصلت إلى باكستان فقط، ولم تواصل رحلتها إلى الأراضي المقدسة.

والطريف أن كتاب «الصين المتحررة» يشير إلى هذه الواقعة، فيقول: «وفي سنة 1953، أدى فريضة الحج عدد من المسلمين الصينيين، ومع انهم تعذر عليهم أن يقطعوا المسافة الطويلة من موطنهم في الصين إلى مكة، لعوائق خاصة خارجية، فقد التقوا مع الحجاج الآخرين، الذين وفدوا إلى سنغافورة وباكستان، حيث مكثوا بعض الوقت مع إخوانهم في الدين، مما اثبت أن مسلمي الصين لا تتوفر لهم الحرية الدينية فقط، بل ولهم مطلق الحرية في الاتصال بإخوانهم المسلمين في جميع أنحاء العالم»!

لماذا لم تواصل البعثة رحلتها إلى مكة؟

طرحت السؤال على اكثر من واحد من شيوخ المسلمين، فلم أجد ردا، حتى قال لي أحدهم هامسا: إن المملكة العربية السعودية رفضت إعطاء الوفد تأشيرة دخول لأراضيها، لأنه قادم من دولة شيوعية.

ويبدو أن هذا التعليق صحيح، لأن موضوع حج المسلمين الصينيين أثير في المؤتمر الافروآسيوي الذي عقد بباندونج في العام التالي مباشرة، وذلك في اجتماع خاص بين شواين لاي رئيس وزراء الصين وبين الأمير فيصل ابن عبد العزيز وزير خارجية المملكة آنذاك (الملك فيصل فيما بعد) وفي هذا الاجتماع وافق الأمير فيصل على أن تسمح المملكة لمسلمي الصين الشعبية بالحج كل عام. ومنذ ذلك الحين والاتفاق سار لم يطرأ عليه تعديل.

وسافرت أول بعثة صينية للحج من بكين إلى السعودية في عام 1955.

في هذه المرحلة أيضا، نلاحظ انعقاد أول مؤتمر للمسلمين الصينيين في شهر مايو عام 1953، ثم إصدار مجلة باسم مسلمي الصين في العام الذي يليه، وإنشاء معهد إسلامي تابع للجمعية في عام 1955. ثم طبع القرآن الكريم باللغة العربية لأول مرة في عصر ما بعد التحرير.

وفي المرحلة ذاتها، صدر دستور 54 الذي تضمن إعلانا للحريات، نص في المادة 88 منه على «حرية الاعتقاد الديني».

وكانت تلك الفتوة قد شهدت اشتراك المسلمين في مجس نواب الشعب

(البرلمان)، وفي مختلف المجالس الإقليمية، كما ذكرت الفقرات المنقولة عن كتاب «الصين المتحررة»، في مدخل هذا الفصل.

وربما نستطيع أن نصف هذه المرحلة-فيما يتعلق بالمسلمين-بأنها مرحلة «تأميم» النشاط الإسلامي، ونقل إدارته وتوجيهه من الجمعيات الأهلية إلى الدولة والحزب.

حتى جاء عام 1958 الذي يصنف في القاموس السياسي الصيني بأنه عام «القفزة الكبرى»، وجرى ما جرى..

الثورة الثقافية: المقدمة

تمثلت تلك القفزة الكبرى في: إنشاء الكوميونات الشعبية، وتعميمها على الصين كلها، من أقصاها إلى أقصاها. واعتبرت هذه الكوميونات الانطلاقة الحقيقية في اتجاه التطبيق الاشتراكي. وكان واضحا أن السلطة أقدمت على هذه الخطوة لإحكام الهيمنة على النشاط الاقتصادي، بعدما استطاعت خلال الفترة من 49 إلى 58 ترتيب البيت من الداخل، وتثبيت السلطة السياسية.

ورغم أن إنشاء الكوميونات الشعبية أحدث هزة اقتصادية عنيفة في الصين، ورغم أننا لسنا في مجال تقييم هذه الخطوة وتتبع نتائجها، فإنها كانت أكثر ما مس مشاعر المسلمين في ذلك الوقت، وأيقظ فيهم عوامل القلق التي دفنت مع إعلان الجمهورية.

ولم يكن قلق المسلمين نابعا من أي تأثير اقتصادي أصابهم، رغم الأهمية الحيوية لهذا الجانب، إلا أن قلقهم نشأ أساسا من أن تطبيق نظام الكوميونات، وتوزيع كل العاملين عليها، كل في اختصاصه، هذا التطبيق شمل رجال الدين، ودفع بهم إلى المزارع والمصانع فجأة، ودون أي مقدمات!

صدم المسلمون لهذا الأجراء. وكان متعذرا وسط الحملة الإعلامية الضخمة التي صحبت تحقيق «القفزة الكبرى»، أن يتحدث أحد من المسلمين في هذه القضية، فضلا عن أنه لم يكن هناك أحد مستعدا لمناقشة الأمر مع المسلمين.

وسكت المسلمون على مضض.

وكانت الخطوة التالية التي زادت من قلق المسلمين هي تلك الكتابات

التي بدأت تظهر في الصحف، متسائلة عن جدوى ذلك العدد من المساجد المنتشرة بكثافة شديدة في بعض المقاطعات وداعية إلى استغلال أمثل لهذه «المنشآت»، «يوفر للأقليات حرية العبادة و يتيح الفرص لتوظيف تلك المنشآت توظيفا اقتصاديا ملائما».

وتراوحت تلك الإشارات بين التلميح والتصريح والتنديد.

وكانت هذه الحملة الإعلامية التي تصاعدت. نغمتها تدريجيا مقدمة لقرارات اتخذت بإغلاق بعض المساجد، وتحويلها لأغراض اقتصادية تخدم «القفزة الكبرى».

وكانت هذه هي المرة الأولى منذ عام 1949، التي تغلق فيها مساجد للمسلمين.

وبصدور مثل هذه القرارات-وتنفيذها-تلقى المسلمون صدمة ثانية، أشد وقعا من تجنيد رجال الدين في الكوميونات، رغم أن الخطوة التي اتخذت بحق رجال الدين ابتداء أدت من الناحية العملية إلى تفريغ المساجد من الأئمة، وتعطيل إقامة الشعائر فيها.

ثم لوحظ أيضا أن المعهد التابع للجمعية الإسلامية توقف عن استقبال الدارسين في عام 59، بعد أربع سنوات فقط من إنشائه. وكان هذا المعهد على تواضعه هو النافذة الوحيدة المتاحة أمام مسلمي الصين لدراسة الفقه والحديث وعلوم القرآن واللغة العربية، خصوصا أن الموقف من إرسال بعثات الدراسة في الأزهر لم يطرأ عليه أي تغيير، وظل هذا الباب مغلقا منذ آخر بعثة في عام 1937.

وبذلك أصبح كل الذين أتح لهم أن يدرسوا شيئا عن الإسلام-منذ عام 49 وحتى عام 1980 على الأقل-لا يتجاوز عددهم مائة شخص فقط هم مجموع الذين تخرجوا من ذلك المعهد خلال سنوات عمله الأربع!

وبإغلاق معهد بكين الإسلامي، لم يبق أمام مسلمي الصين منفذ واحد يستطيعون من خلاله إعداد كوادر إسلامية تقوم حتى بتلك المهام البسيطة، من الإمامة إلى الخطابة ووعظ الناس.

ولم يعد أمام المسلمين إلا أن ينقلوا نشاطات تعليم الدين إلى البيوت خصوصا في مناطق الكثافة السكانية الإسلامية، مثل يوننان وسينكيانغ، ولم يملك المسلمون إلا أن يلجئوا في توفير مصادر لتلك المعرفة المتواضعة

بالدين إلى مخطوطات الكتب العتيقة، ينسخونها، و يتبادلونها.

ومع إغلاق المعهد توقف إصدار مجلة «المسلمون في الصين»، رغم أن الطبعة الثانية من القرآن الكريم بعد التحرير قد صدرت في ذلك العام، 1959.

وكان الإجراء الثاني الذي اتخذ في هذه المرحلة هو: وقف سفر بعثات الحج بعد عام 1964.

ثم حدث ما هو اشد خطرا، فقد تمت عمليات تهجير واسعة في بداية الستينات من والى مناطق الكثافة السكانية للمسلمين. نقلت آلاف الأسر الصينية من قومية إلهان-القومية اللادينية ذات الأغلبية الساحقة-إلى سينكيانغ على وجه التحديد. ونقلت آلاف الأسر المسلمة من يوننان إلى مختلف مقاطعات الجمهورية.

وهذه الخطوة أحدثت ردود فعل غاضبة بين جماهير المسلمين، حتى يقال إن انفجارا شعبيا حدث لهذا السبب في مقاطعة سينكيانغ عام 1962، وأن ألوفا من المسلمين لجئوا إلى داخل الحدود السوفيتية بعد تدخل السلطة الصينية لقمع هذه الثورة. وهو ما لم أستطع أن أتثبت منه أثناء أحاديثي مع أبناء سنكيانغ، كما أني لم أسمع تكذيبا محددا له.

وما يثير الانتباه هنا أن الجمعية الإسلامية الصينية دعت وسط هذا المناخ إلى مؤتمر للسلمين، عقد في نوفبر من عام 63، ولم يعرف على وجه التحديد جدول الأعمال الذي طرح على المؤتمر، ولا ما أسفر عنه من نتائج. إلا أنه من الثابت الآن أن انعقاد المؤتمر لم يكن حدثا ذا أهمية من الناحية العملية، الأمر الذي يمكن تفسيره بان أهدافا سياسية كانت وراء تلك الدعوة، سواء كانت تتمثل في محاولة تهدئة المسلمين إذا صح أن تمردا حدث في سينكيانغ، أو تخفيف وقع الإجراءات التي اتخذت ضدهم في ذلك الوقت.

الثورة الثقافية: الذرة

ولاحت نذر الثورة الثقافية في منتصف الستينات.

ولسنا هنا في مجال تحليل الدوافع التي حدت بالرئيس ماو إلى تفجير هذا الزلزال الذي قلب الصين رأسا على عقب طوال عشر سنوات، ولا ما

أسفرت عنه هذه الثورة من نتائج، فتلك كلها مسائل مازالت مثار جدل، فضلا عن صعوبة تحري الحقيقة سواء فيما يطرح من أسباب أو فيما يرصد من نتائج. وفي مناخ كالذي تعيشه الصين منذ عام 78، فان الجو كله معبأ ضد الثورة الثقافية ولا كل لمناقشة موضوعية هذه القضية.

ولكن الذي يعنينا في هذا المقام هو تأثيرات هذه الثورة على مسيرة الإسلام والمسلمين في الصين، وهو جانب يمكن الخوض فيه بلا محاذير، لان عناصره سلبية على طول الخط. وأي استطراد أو تفصيل في شرور عصابة الأربعة (لا يستخدم تعبير الثورة الثقافية في الإعلام الصيني)، هو مقبول بل مطلوب، لأنه ينسجم مع «الخط» المرسوم.

... تريد أن تعرف ماذا فعلت بنا عصابة الأربعة-سألني الحاج الياس شين نائب رئيس الجمعية الإسلامية-هذه مسألة يطول شرحها، بل يتعذر الإلمام بها، لأنهم خربوا كل شيء. في بلادنا.

- سمعت أن رئيس الجمعية، الحاج محمد علي تشانغ، تعرض للضرب من قبل شباب الحرس الأحمر.

- الملاعين، لم يتركوا واحدا منا إلا وأهانوه. لقد كان الأذى الذي تعرض له الحاج محمد علي محدودا من الناحية المادية، وهو فادح وكبير إذا ما راعينا منصبه. أما ما جرى معي فلا يمكن وصفه، ضد كان من الناحيتين المادية والمعنوية شيئا فظيعا للغاية. الحمد لله، فقد ذهبوا وراحت أيامهم السوداء!

قالها الحاج الياس بمرارة، وعيناه زائغتان في الفضاء، تبحثان عن شيء أو تستعيدان شيئا..

وعلمت فيما بعد أن الرجل ضرب ضربا مبرحا في «قانصو»، حيث كان نائبا لرئيس الجمعية الإسلامية في المقاطعة، وواحدا من تسعة نواب للرئيس يباشرون نشاطات الجمعية في مختلف أنحاء الصين.

كما علمت أن رجال الدين الذين كانوا متواجدين في العاصمة لم ينلهم كأشخاص أذى بدني كبير، بسبب وجود سفارات الدول الإسلامية في بكين. وحتى لا يطلع الأجانب على عمليات كهذه يقوم بها شباب الحرس الأحمر. ولكن الذين كانوا في الأقاليم لقوا الكثير من الإهانات. فقد اعتقل كثيرون من رجال الدين، مئات منهم اقتيدوا إلى السجون، وعذبوا تعذيبا

شديدا. والذين لم يسجنوا ضربوا في الشوارع، أو اقتيدوا وسط تهليل الجماهير وسخريتهم، وقد علقت على ظهورهم كلمات مثل الشياطين والأشباح والغيلان.

ليس هذا فقط، ولكن هؤلاء الشبان اقتحموا بيوتهم، وأخذوا ما لقوه من مصاحف وكتب، وأحرقوها علنا في الشوارع، على اعتبار أن هذه الكتب تروج للخرافات. وبسبب هذه الحرائق فقد المسلمون مئات من الكتب المخطوطة والنادرة. وهي خسارة فادحة لأن الأسر المسلمة، ورجال الدين خاصة، يحتفظون بعشرات المخطوطات المتوارثة منذ قرون مضت، والتي كان يلجأ المسلمون إلى كتابتها بخط اليد نظرا لتعذر طباعتها.

أهدر هذا الكنز الثمين من الكتب التراثية، وتحول إلى رماد داسته أقدام تلك الحملة المجنونة.

وسمعت من الأستاذ عبد الرحمن ناجونغ، أستاذ التاريخ الإسلامي في معهد اللغات الأجنبية ببكين، أن مكتبته الخاصة التي أفنى في تكوينها ثلاثين عاما من عمره انتهبت كلها، وألقيت مراجعه حيث أحرقت، ولم يستطع أن ينقذ من هذا المصير المحزن سوى كتب بعدد أصابع اليدين!

لقد ظلت أعداد كبيرة من رجال الدين حبيسة البيوت أشهرا طويلة، خشية الخروج إلى الشارع والتعرض للإهانة والسخرية، ولكنهم لم يسلموا من ذلك المصير المؤلم، فقد كانوا ينتزعونهم من منازلهم، و يوجهون إليهم الشتائم والسباب وكلمات التجريح، باعتبارهم رموزا للرجعية.

وامتدت الحملة إلى المساجد، التي أغلقت جميعها في خارج بكين، وهدم بعضها وحول البعض الآخر إلى ورش ومخازن ومحال تجارية. وتعرضت المقاطعات ذات الكثافة السكانية المسلمة إلى قدر متزايد من هذه الإجراءات. حدث ذلك في مقاطعات سينكيانج وقانصو ونينغشيا بوجه أخص.

وقد أبقوا على مسجد واحد في بكين (مسجد تونج سي بالوا) ليصلي فيه الدبلوماسيون العرب في الأعياد والمناسبات. وقد قال لي أحد هؤلاء الدبلوماسيين انه ذهب إلى مسجد العاصمة لصلاة الجمعة في ذلك الحين، فلم يجد سوى خمسة أشخاص فقط: الإمام، ومساعده، والمؤذن، وخادمان.

وقال لي الحاج محمد علي رئيس الجمعية الإسلامية إن من كان يريد

أن يؤدي الصلاة العادية في بيته آنذاك كان يتخفى في ركن جانبي، ويؤدي الفريضة بينما هناك من يحرسه ليحذره من أي قادم يضبطه «متلبسا» بالوقوف بين يدي الله!

وكان طبيعيا أن يتعرض ما تبقى من أضرحة يقصدها المسلمون إلى عمليات الهدم والإحراق، وسط تهليل وصيحات شباب الحرس وأشياعهم. حدث ذلك بوجه خاص في مقاطعتي نينغشيا وجيلين.

والى جانب هذه الإجراءات، فقد اتخذت خطوات أخرى في الاتجاه ذاته.

- ألغيت عطلة عيد الأضحى والفطر، «حتى لا يتعطل الإنتاج»، وكانا من الأعياد المعترف بها، والتي يسمح للعاملين من المسلمين بالتغيب أثناءها. وهما يومان فقط في العام، كانا ثلاثة من قبل حيث اعتبرت ذكرى المولد النبوي عطلة للمسلمين، ولكن لاعتبارات «استمرار عملية الإنتاج» حذفت عطلة المولد من الأعياد المعترف بها للمسلمين.

- أغلقت المطاعم الإسلامية، التي كانت تقدم وجبات للمسلمين خالية من شحم ولحم الخنزير.

- منع المسلمون في مقاطعة سينكيانج من استخدام الحروف العربية في الكتابة، وأجبروا على استخدام الحروف الصينية. وهذه الحروف العربية يستخدمها المسلمون ذوو الأصول التركية، الذين يعرفون بقومية «الاويغور»، وعددهم ستة ملايين نسمة-حسب الإحصاء الرسمي-في سينكيانج.

- منع المسلمون في مناطق الكثافة السكانية الإسلامية من ارتداء ثيابهم القومية، وأجبروا على استخدام الثياب الرسمية الزرقاء اللون (الجاكيت المغلق والبنطلون).

- جرت عمليات تضييق على المسلمين في تقاليدهم وحياتهم الخاصة. فقد أعلن وقتئذ أن كل مسلم-مثلا-يموت يأخذ 15 قدما من القماش الأبيض للكفن، وذلك بمقتضى كوبونات خاصة تعطي المسلمين هذا الحق في حالات الوفاة، مراعاة لتقاليدهم. ولكن قيادة الثورة الثقافية اعتبرت هذا الاستثناء عبئا اقتصاديا على الدولة، فضلا عن أنه «عادة رجعية» يجب التخلص منها. وفعلا أوقف صرف هذه الكوبونات للمسلمين!

وكان مما أثار انزعاج المسلمين اكثر واكثر أن أصواتا دعت أثناء الثورة

الثقافية إلى إحراق جثث موتاهم، أسوة بغيرهم من الصينيين، بحجة أن مقابر المسلمين تحتل مساحات من الأرض، مما يعيق فرص استثمار هذه الأراضي بصورة اقتصادية أفضل. و يبدو أن رد فعل المسلمين كان عنيفا بدرجة أوقفت تنفيذ هذا الاقتراح.

وسمعت من شاهد عيان عاش تلك التجربة أن المسلمين ذهبوا بأنفسهم لحماية مقابر موتاهم، وكانوا مستعدين للصدام مع شباب الحرس الأحمر إذا اقتربوا منها. وروى هذا الشاهد كيف أن المسلمين في بكين ذهبوا لتطويق المقبرتين المخصصتين لها في أطراف العاصمة، فتجنب شباب الحرس الصدام معهم. بينما هدموا مقابر المسيحيين، التي كانت بغير حراسة واستقدموا جرارات لتسوية الأرض وحرثها، بحجة تحويلها إلى أرض زراعية لزيادة الإنتاج!

وخلال هذه المرحلة أيضا تم تهجير بعض المسلمين من مراكز تجمعهم وتوزيعهم على مختلف المقاطعات، واستقدام صينيين من قومية إلهان «وزرعهم» وسط تجمعات المسلمين.

وقد تم ذلك كله وسط جو إعلامي شن حملة عنيفة على الأديان جميعا، وكل «الغيبيات الموروثة عن عصور المجتمع القديم، داعية إلى «القضاء على بورجوازية الفكر والتقاليد التي تقف حجر عثرة في طريق التطبيق الاشتراكي» 00 إلى آخر تلك الصياغات التي تهدم في حقيقتها كل ما أعلنته الثورة في عام 1949 من شعارات وضمانات تحمي المتدينين وحرية الاعتقاد.

وكما كان للإسلام موقع متميز بين الأديان الأخرى منذ بداية الثورة، فقد كان له نصيب متميز-بنفس القدر-من إجراءات القمع وعمليات التشهير والتجريح. حتى إن الثورة الثقافية شكلت منذ بدايتها «مجموعة ثورية لمقاومة الإسلام». تولت ترتيب وإصدار كل هذه الإجراءات، وغيرها بطبيعة الحال.

وحتى يتوفر غطاء قانوني لهذا الاتجاه، فقد تم تعديل المادة 88 من دستور عام 54، التي تنص على ضمان حرية الاعتقاد الديني لمواطني الجمهورية الصينية ضمن التعديلات الدستورية التي تمت في عام 1957. وكان نص المادة 28 من الدستور المعدل على النحو التالي: للمواطنين حرية

الكلام والمراسلة والنشر والاجتماع والتنظيم والمسيرة والتظاهر، وتكوين الأحزاب. ولهم حرية الاعتقاد الديني، وحرية عدم الاعتقاد في الأديان، ونشر الإلحاد.

وهو نص مماثل للمادة التي يتضمنها الدستور السوفيتي، ويدلل بها على الضمان الدستوري لحرية الأديان، وليس مستبعدا بطبيعة الحال أن يكون النص منقولا في الأساس عن الدستور السوفيتي، مع تغيير طفيف في الألفاظ.

وبهذا التعديل الذي أدخل على الدستور الصيني، لم تعد حرية الاعتقاد الديني تنفرد بمادة مستقلة، بل أدمجت في قائمة مطولة من الحريات، يجيء الاعتقاد الديني في الترتيب التاسع منها.

لكن الأهم من ذلك أن النص يكفل-في الورق على الأقل-حرية الاعتقاد فقط، بينما يكفل في الجانب الآخر ليس فقط حرية الإلحاد، ولكن أيضا حرية الدعوة إلى الإلحاد، وهي ميزة لا تتوفر لأصحاب الأديان، وتعنى بوضوح أن حجم الحريات غير متكافئ بين المؤمنين والملحدين.

ورغم أن النص بصيغته هذه قد يبدو مفهوما في دولة لا تؤمن بالأديان، حتى ولو لم يكن مقبولا، فانه حتى في حدود المساحة الضيقة المتاحة للمتدينين، فان حرية الاعتقاد بقيت مصادرة. اللهم إلا إذا كان المقصود بالنص ليس الاعتقاد بما يرتبه من تكاليف وواجبات، وإنما الاعتقاد بمعنى الإيمان وحده، الذي لا يمكن أن تطوله يد القانون، ويخرج عن نطاق عمل «المجموعة الثورية لمكافحة الإسلام».

بهذه الصورة مرت على المسلمين سنوات الثورة الثقافية العشر-من 66 إلى 76- التي أعادت إلى أذهانهم ظلامات العهود الغابرة، وبددت كل ما تعلقوا به من أحلام وأوهام، وأهدرت كل ما أنجزوه وبنوه منذ إعلان الجمهورية في عام 1911، وسدت طريق الأمل الذي انفتح أمامهم عشية «التحرير» في عام 49، وبدا المستقبل أمامهم قاتما وكئيبا، لا يرون في آفاقه سوى سحابات حزن لا نهائي.

الحرية الدينية بين «الاستراتيجية والتكتيك»

تلاحقت الأحداث بسرعة في منتصف السبعينات. بدءا بمحاولات ماو

كبح جماح الثورة الثقافية، وحصار نشاطاتها، ثم وفاة الرئيس الصيني سنة 76، ثم الصراع على السلطة الذي انتهى «بسحق عصابة الأربعة»، والإعلان عن طي صفحة الماضي وبدء مرحلة جديدة عام 78.

وفي السياق الذي نحن بصدده، فان هذا التطورات أسفرت عن «إعادة تنفيذ سياسة الحزب الشيوعي الصيني، حول المساواة القومية وحرية الاعتقاد الديني» كما أعلن رئيس الجمعية الإسلامية في تقريره إلى المؤتمر الرابع لمسلمي الصين، الذي عقد في إبريل سنة 1980.

وهنا ينبغي أن نتوقف قليلا، في محاولة للإجابة على السؤال الذي يتبادر إلى الذهن مباشرة، عند طرح هذه المقولة، والسؤال هو: ما هي بالضبط سياسة الحزب في شأن حرية الاعتقاد؟

وضعت السؤال أمام الحاج محمد علي تشانغ، فكان رده أن الإجراءات التي اتخذت بعد سحق عصابة الأربعة كفيلة بالرد على السؤال. فقد حذف النص الذي كان قد أضيف إلى دستور 75 واستبدل به نص آخر اكثر تقدما في دستور 78 يقضي بما يلي: جميع المواطنين لهم حرية الاعتقاد الديني، كما أن لهم الحق في عدم الاعتقاد، وفي الدعوة إلى الإلحاد.

ولضمان عدم الإساءة إلى المتدينين ورجال الدين-وأعرابا عن حسن النية من جانب السلطة الجديدة التي جاءت بعد وفاة الرئيس ماو-فقد أضيفت في عام 79 مادة إلى قانون العقوبات (برقم 147) تنص على أنه: يعاقب موظفو الحكومة بالسجن-بحد أقصى-سنتين، أو بالحبس، إذا ما أفرطوا في تجريد المواطنين من حريتهم في عقيدتهم الدينية، أو انتهكوا أعراف وعادات أبناء الأقليات القومية، على نحو غير شرعي.

وأضاف رئيس الجمعية: إن هذا النص الجديد الذي أضيف إلى قانون العقوبات صدر بناء على اقتراح من رجال الدين (يقصد الجمعية). حتى لا يتكرر ما حدث خلال تلك السنوات العشر المشئومة.

ثم عدد الحاج محمد علي الخطوات الإيجابية التي اتخذت منذ عام 78، في اتجاه مراعاة مشاعر المسلمين واحترام شعائرهم وتقاليدهم، والتي تدور في فلك أحياء بعض نشاطات الجمعية الإسلامية (الوعد بإعادة فتح المعهد الإسلامي-طبع القرآن الكريم-للمرة الثالثة منذ عام 49- إعادة إصدار مجلة المسلمون في الصين)، ثم استئناف إيفاد بعثات للحج، الذي تم في

عام 1979، ومحاولة إعادة جسور الاتصال المختلفة مع العالم الإسلامي، مثل تبادل الزيارات وحضور الندوات والمؤتمرات الإسلامية (أول مؤتمر من هذا النوع مثل فيه مسلمو الصين كان الملتقى الإسلامي بالجزائر الذي عقد في سبتمبر 79)، تم فتح المساجد المغلقة (في سينكيانغ وحدها أعيد فتح اكثر من 1900 مسجد).. وإعادة عطلة المسلمين في عيدي الفطر والأضحى.

ورغم إن هذه الإجراءات يمكن اعتبارها إيجابية نسبيا، إذا قورنت بتجربة المسلمين خلال الثورة الثقافية، إلا أن الإطار القانوني الذي يفترض أنه يحمي نشاطات المسلمين والمتدينين عموما من العدوان والانتهاك. هذا الإطار تمت صياغته بأسلوب غريب ومثير للدهشة.

ذلك أنه إذا صحت الترجمة-وأغلب الظن أنها صحيحة لأنني وجدت النص منشورا بالصيغة ذاتها في بحث حول المسلمين في الصين بمجلة الصين المصورة (عدد واحد لسنة 80)-فان كلمات النص الذي أضيف إلى قانون العقوبات، تعاقب الذي «يفرطون» في تجريد المواطنين من حريتهم في العقيدة الدينية، والذين ينتهكون أعراف وتقاليد الأقليات القومية «على نحو غير شرعي». وذلك معناه أن النص لا يجرم تجريد المواطنين من حرية العقيدة، من حيث المبدأ، ولا يعارض انتهاك تقاليد الأقليات من الأساس. أي أن التجريد إذا تم بغير إفراط، والانتهاك إذا تم على نحو شرير، فانه يصبح قانونيا، ومقبولا، وربما كان مطلوبا!

حقا إن النصوص لا يمكن أن تحمي حقا، طالما أنها تستمد قيمتها وقوتها من السلطة وحدها، فضلا عن أن العبرة دائما ليست بمدلول الكلمات، ولكن بطبيعة الممارسات ذاتها. ولكن أهمية النصوص في حالتنا هذه أنها تعبر عن رؤية المشرع للقضية التي يريد أن يعالجها، وتعكس موقفه والإطار النظري الذي يتحرك فيه.

إنها تؤخذ في حالتنا هذه لا باعتبارها «ضمانا» يقرره حق قانوني ولكن باعتبارها «رأيا» سياسيا في قضية مثارة.

إن القلق الذي يثيره وجود نص بهذه الصيغة-يفتح باب التجريد والانتهاك تحت مظلة القانون وفي حمايته-لا يمكن أن ينفصل عن مرحلة ما قبل الثورة الثقافية التي استمرت فيما بين عامي 58 و 66، والتي يخرجها الخط

الإعلامي للحزب من نطاق الإدانة، معتبرا أن تخريب سياسة الحريات الدينية بدأ فقط في عام 66، وفي ظل سيطرة عصابة الأربعة.

وإذا كانت تلك السنوات الثماني مصنفة باعتبارها إحدى مراحل التطبيق السليم لسياسة الحريات الدينية فان ذلك يصبح مدعاة للتشاؤم الشديد في المستقبل. أما إذا اعتبرت ممارسات تلك المرحلة من قبيل عمليات تخريب السياسة الدينية، فلماذا تم تجاهلها إذن، وإسقاطها تماما من كل صور التقييم الإعلامي، ولماذا العزوف عن إدانتها؟

ذلك أن قراءتنا الثانية لأساليب وممارسات السنوات التي أعقبت «القفزة الكبرى» في عام 58 توحي على الفور بأن أحداث الثورة الثقافية كانت امتدادا لأحداث المرحلة التي سبقتها، مع اختلاف في سرعة الاندفاع نحو الهدف. وتؤكد لنا هذه القراءة أن الثورة الثقافية لم تنشئ طريقا جديدا ولكنها مضت على طريق كان قد تم شقه فعلا في المرحلة التي سبقتها. الأمر الذي يدعونا إلى استنتاج أن المسألة ليست موقفا تخريبيا انتهجته عصابة الأربعة، خلال الثورة الثقافية، بقدر كونها خطا سياسيا رسمه الحزب ونفذ منذ بدء «القفزة الكبرى»، في عام 1958، بدرجات متفاوتة بين التعقل والتهور والجنون!

هل هي حقا سياسة الحزب؟

الذين سألتهم في بكين لم تخرج إجاباتهم عن حدود الخط الإعلامي الرسمي. الحزب مع حرية الاعتقاد، وتاريخ الشر في الصين الحديثة بدأ بظهور «عصابة الأربعة» على مسرح السياسة!

يقولون هذا الكلام بصياغات مختلفة، ويتركونك تضرب أخماسا في أسداس، وتصدق أو لا تصدق، واثقين من أنك بعد الإلحاح والتكرار، لابد أن تصدق.. إذ هكذا يفعل الصينيون مع أنفسهم على الأقل!

ومع ذلك كله، فلا أحد ينكر أن سنوات ما بعد عام 78 قد جاءت بانفراج نسبي، عبرت عنه مجموعة الإجراءات الإيجابية التي اتخذت بحق المسلمين، وساعدت عليه عوامل كثيرة ذكرنا بعضها فيما قبل. لكن المشكلة أن هناك نوعا من الجراح يصعب التئامه، لكثرة النزف من ناحية، ولما يصيب خلايا الجسم من وهن وضعف، من ناحية أخرى. ثم إن هناك نوعا من الضربات لا تحدث جروحا أو ندوبا فقط، لكنها تحدث عاهات مستديمة أيضا. وفي

الجسد الإسلامي الصيني العديد من تلك الجراح الصعبة الالتئام، ومثلها من العاهات المستديمة!

نعم إن الكيان الإسلامي لا يزال حيا لم يمت، يشهد أن لا اله إلا الله وأن محمداً رسول الله، تراه في المساجد أحيانا، وفي الجنازات والمدافن أحيانا، وفي حفلات طهور الأطفال والزفاف والأعياد كثيرا، لكن الجراح والعاهات ومسيرة الأحزان غيرت منه الكثير. هدت قواه و بدلت ملامحه، ولم يبق فيه سوى القلب. وباتت حالته فريدة من نوعها، كأي جسد تلفت أعضاؤه وتعطلت وظائفه وماتت خلاياه، ولكن شاءت حكمة الله أن يظل نبض القلب فيه مسموعا، تتردد دقاته، متحدية كل حسابات العقل والعلم.

4 "النبوءة المزعجة!"

كم عدد المسلمين في الصين؟

ربما كان هذا هو اكثر الأسئلة شيوعا، بين ما يطرح من استفهامات حول أوضاع المسلمين هناك، بل إن بيننا من ترك كل ما يحيط بمسلمي الصين من ملابسات وظروف، وانشغل بإحصائهم، وهل هم عشرة ملايين أو ثلاثون أو ستون؟

ورغم كثرة ترديد السؤال بين الكتاب والباحثين في الشرق والغرب، فان أحدا لم يستطع أن يعثر له على إجابة محددة، حتى جاءت التقديرات متضاربة في كل مرة، بحسب اجتهاد كل باحث، وتفاؤله أو تشاؤمه، وربما بحسب مصلحته وغرضه.

أزعم أن هذه الصفحة من ملف مسلمي الصين هي من اكثر صفحاته إبهاما وغموضا، وان لم تكن أكثرها أهمية أو خطرا. فثمة اعتبارات عملية تحول دون الوقوف على حقيقة عدد المسلمين هناك، من أهمها:

● إن الإحصاء في الصين لا يعني بتصنيف الناس بحسب دياناتهم، وإنما يصنفهم فقط تبعا لقومياتهم التي ينتمون إليها، وهو أمر ينسجم مع منطق دولة لا دينية منذ فجر التاريخ، وقبل الشيوعية بقرون بعيدة. وذلك يعني أنه ليس هناك

رقم رسمي يحدد عدد المسلمين، وإنما ثمة تقدير يقوم على إحصاء تعداد القوميات التي ثبت انتماؤها للإسلام منذ قرون عديدة.

*إن الحجم الهائل للصين أرضا وسكانا لا يمكن أي طرف خارجي من أن يضع تقديرا سليما يطمئن إليه في تعداد المسلمين الصينيين. أما ممثلو المسلمين في الداخل فليسوا في وضع يمنكهم من أن يكون لهم تقدير مستقل يخالف خط الدولة الرسمي، ويتعين عليهم دائما أن يظلوا ملتزمين بحدود الأرقام المعلنة من قبل الجهات المسئولة في الحزب والحكومة.

● إن الأقليات عموما تعامل في دول العالم الثالث-والصين من بينها- باعتبارها «عورات» يتعين إخفاؤها لسبب أو لآخر. ولذلك فان بعض تلك الدول تمتنع عن إجراء إحصاء السكان من الأساس بينما البعض الآخر يقوم بالإحصاء ويخفي نتائجه كلها أو بعضها. وثمة دول كثيرة تلجأ إلى التهوين من حجم الأقليات فيها، الأمر الذي يقابل من جانب الأقليات بالمبالغة في الإعلان عن ذاتها، مما يضيع فرصة التقدير السليم لأي طرف محايد

ولا يبقى بعد ذلك أمام أي باحث سوى أن يحاول مناقشة الأرقام المتداولة، ثم يجتهد في تقريبها من الحدود التي يراها متفقة مع المنطق ومعبرة عن رؤيته للواقع. وهو اجتهاد يحتمل الخطأ والصواب بكل تأكيد، كما أنه يترك الباب مفتوحا لاجتهادات وتقديرات أخرى، لا تحسم الجدل حول القضية.

في مصلحة شئون الأديان ببكين حاولت أن أتعرف على التقديرات الرسمية. قال لي رئيس المصلحة شياو شيان فا-وهو بدرجة وزير-إنه لا يوجد إحصاء دقيق لأتباع كل دين، «فالإيمان في القلب ولا يمكن إحصاؤه». ولكن ثمة تقديرات تقريبية مستقرة في أبحاث وعند خبراء شئون الأديان، وهي تشير إلى أن في الصين «خمسة أديان»، يمكن ترتيبها بحسب عدد أتباع كل منها على النحو التالي:

● البوذية (دعوة الانعتاق الذاتي تخليصا للجنس البشري) وقد كانت اكبر «الأديان» أثرا في القديم، منذ قدمت من الخارج (الهند). والبوذيون أرقامهم غير معروفة، ولكن عدد رهبانهم في الصين عشية التحرير كانوا نصف مليون راهب وراهبة.

● «دين» التاو (صوفية صينية تدعو إلى عبادة الروح والطبيعة والآلهة)،

وهؤلاء أيضا لا نعرف لهم عددا سوى أن كهنتهم عشية التحرير كانوا في حدود 8 آلاف كاهن وكاهنة. غير أن أعدادهم في تناقص مستمر.

والبوذية والتاوية هما-تقليديا-ديانتا قومية إلهان، ذات الأغلبية الساحقة في الصين.

● الإسلام، والمسلمون وصل عددهم في سنة 80 حسب تقريراتنا، إلى 13 مليون نسمة.

- الكاثوليكية، وتشير إحصاءات عام 1949 إلى أنهم كانوا في ذلك الوقت 3 ملايين نسمة.

● البروتستانتية: واتباعها في تقديرات عام التحرير في حدود 700 ألف نسمة.

وقال إن لمختلف الأديان منظماتها الدينية الوطنية: الجمعية البوذية الصينية، والجمعية التاوية الصينية، والجمعية الإسلامية الصينية، والجمعية الكاثوليكية الوطنية الصينية، والهيئة الوطنية للكنائس البروتستانتية.

ثم أضاف إن اليهودية اندثرت من الصين ولم يعد لها وجود، وقد كان اليهود قلة من الأجانب لا تذكر متمركزة في شنغهاي، منذ كانت معقلا لرأس المال الأجنبي.

متغاضيا عن خلطه بين ما هو دين سماوي وما هو أفكار وفلسفات من صنع البشر-إذ الأمر سواء عند من لا يؤمنون بالله-وعن اعتباره الكاثوليكية دينا متميزا عن البروتستانتية، قلت له: فما يتعلق بعدد المسلمين، فان رئيس الوزراء شواين لاي أعلن أثناء مناقشات المؤتمر الافروآسيوي الذي عقد في باندونج بإندونيسيا عام 54 أنه يتكلم باسم عشرة ملايين مسلم، وكان تعداد الصين وقتئذ 600 مليون نسمة. وإذا سلمنا بصحة هذا التقدير وقارنا بين نسبة الزيادة في أعداد المسلمين، وبين نسبتها في مجموع الصين، فإننا سنكتشف خللا بحاجة إلى تصحيح.

وإذا كان تعداد الصين في صيف 1980 هو 980 مليون نسمة، فذلك يعني أن سكان الصين زادوا في الفترة بين عامي 1954 و 1980 بما يزيد على 50٪. وإذا سلمنا بأن المسلمين صاروا 13 مليونا في عام 1980، فذلك يعني أنهم زادوا في الفترة ذاتها 30٪ فقط. والخلل الذي أعنيه له شقان: الأول أن سكان الصين كلهم زادوا بمعدل، بينما زاد المسلمون بمعدل أقل، وهو أمر

غير منطقي، والثاني أن المسلمين هم اكثر تناسلا من غيرهم في كل أنحاء الكرة الأرضية، حيث يعتبر أكثرهم أن الإنجاب توجيه إسلامي. فضلا عن أن الكتابات الصينية ذاتها تقول إن الاستجابة لبرامج تحديد النسل فاترة أو منعدمة بين مجتمعات المسلمين.

وقلت: من الناحية المنطقية، فان أعداد المسلمين إذا لم تكن قد زادت بنسب أعلى من مجموع الصينيين فهم على أسوأ الفروض يكونون قد زادوا بنفس معدلات زيادة الآخرين، أي أن عددهم لا يقل عن 15 مليونا بأي حال.

قال مسؤول شئون الأديان: لا اعتراض لي على هذا المنطق، ولا على النتيجة التي انتهيت إليها، لأن إحصاءات أصحاب الأديان عندنا ليست دقيقة، وهي تقريبية في الأغلب. بل أضيف أن افتقادنا لمثل هذه الإحصاءات الدقيقة لا ينصب على المسلمين وحدهم، وإنما ينسحب على الكاثوليك أيضا. وبعض الناس في الخارج لا يفهمون لماذا لا تصنف الصين سكانها بحسب أديانهم، ويستسهلون بعض الخرافات التي راجت في الخمسينات، والتي تزعم أن النظام الشيوعي أقام مذابح للمتدينين أفنت ملايين منهم.

ثم قال: إن 90٪ من سكان الصين بلا دين، ونظامنا يحترم الأديان ولكنه لا يؤمن بها، وتلك حقائق لا يريد البعض أن يفهمها. والتخريب الذي أحدثته «عصابة الأربعة» في التزامنا بخط حرية الاعتقاد ينبغي إلا يحسب على سياسة الحزب والدولة. ولكنه يجب أن يحسب على تلك العصابة الشريرة وحدها.

كان رئيس الجمعية الإسلامية الحاج علي تشانغ جيه حاضرا المناقشة، وقد جلس إلى جواره أحد مساعديه الرئيسيين، الحاج سليمان، الذي تطوع بتقديم «فتوى» في تأييد الرقم الذي ذكره رئيس مصلحة شئون الأديان في تحديد عدد المسلمين، وكان مما قاله: إن الرئيس شو اين لاي عندما تحدث أمام مؤتمر عدم الانحياز لم يقل إن مسلمي الصين هم عشرة ملايين بالتمام والكمال، ولكنه قال إنهم عشرة ملايين «تقريبا». وذلك يعني أن الرقم قد يكون أقل من عشرة، ثمانية أو تسعة ملايين، وإذا طبقنا على المسلمين نسبة الزيادة السكانية التي حدثت فيما بين 1954 و 1980 وهي في حدود 50٪ فانه يصبح صحيحا أن المسلمين الآن حوالي 13 مليون نسمة. وهز رئيس الجمعية الإسلامية رأسه مؤيدا، وقال مسئول شئون الأديان:

يجوز!

عندئذ قلت للحاج سليمان، إذا كان رقم الملايين العشرة هو تقريبي كما تقول، فان ذلك يعني أنه قد يكون قابلا للنقصان، صحيح، لكنه قابك للزيادة أيضا، لماذا اخترت الفرض الأول، وأسقطت الفرض الثاني؟؟

وضحك الجميع. واعتبروها «نكتة»!

رويت قصة هذا الحوار لصديق صيني، طلب عدم ذكر اسمه، فقال والابتسامة الصينية تغطي وجهه: لماذا لا ترح نفسك من هذا الجدل؟ لا أنا ولا غيري سيقول لك كلاما غير الذي تقوله الحكومة... فهمت؟؟

لكني تعاميت عن النصيحة، ورحت أواصل المناقشة مع الأستاذ عبد الرحمن ناجونغ، أستاذ التاريخ الإسلامي، ومن المخضرمين الذين عاشوا العهدين، قبل وبعد التحرير، وكان مما قاله:

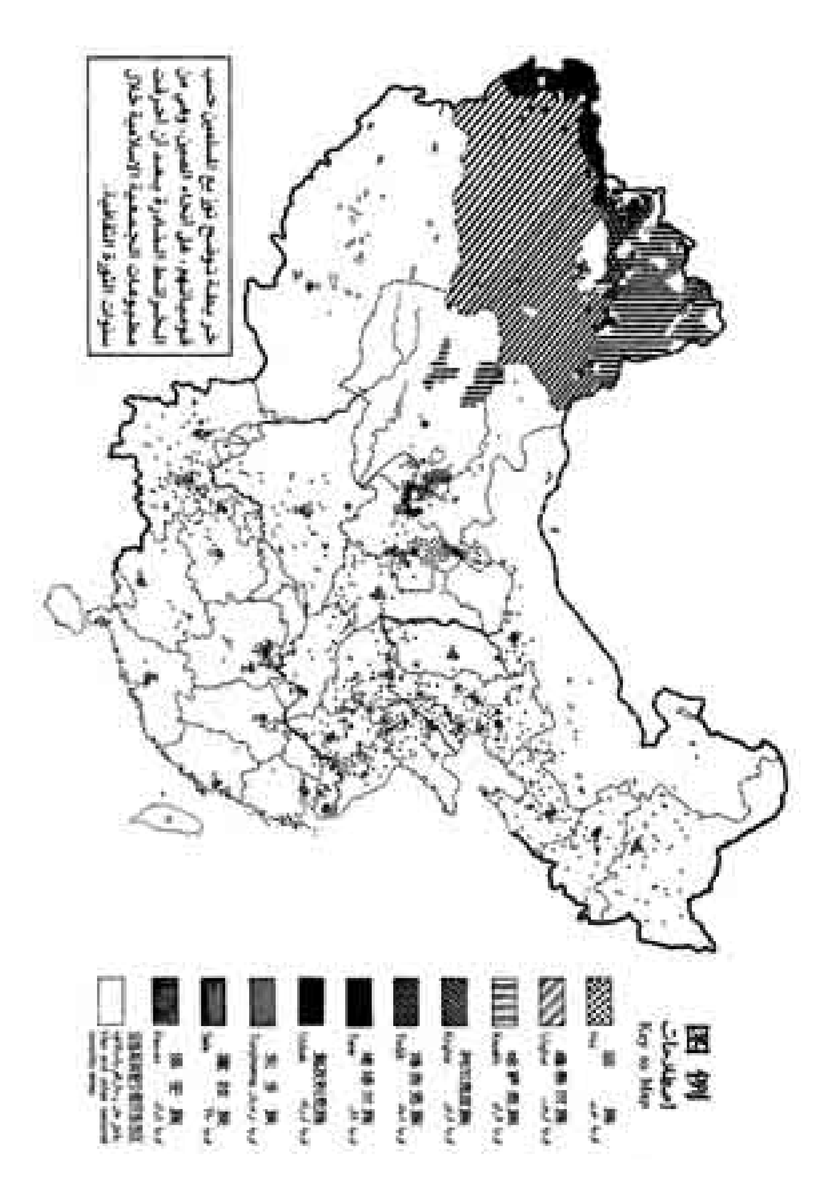
- إنه حدثت مبالغات كثيرة في أعداد مسلمي الصين في الماضي، وهي مبالغات لها ما يبررها، وقد شاركت بنفسي في الترويج لها طوال سنوات الدراسة العليا بمصر في الثلاثينات. فقد كنا نعيش في ظروف صعبة، وكنا نواجه اضطهادا من حكومة الكومنتانغ في ذلك الحين، خصوصا في مقاطعة يوننان. وحتى نوصل أصواتنا إلى العالم الإسلامي ونحثه على إنقاذنا، فقد كنا نعلن في كل مناسبة أن عدد مسلمي الصين 50 مليونا مرة و 60 مليونا مرة أخرى. ذلك فيما يتعلق بالخارج، أما في الداخل فقد كنا حريصين أن نبدو في حجم اكبر أمام الحكومة، لنحصل على مناصب تتكافأ مع التمثيل العادل لهذا العدد، وعلى مقاعد اكثر في المجالس النيابية، إذ كلما زاد عددنا زادت نسبة تمثيلنا في البرلمان.

وأضاف: لقد كنا نقول مثلا إن مسلمي يوننان التي انتمى إليها عددهم مليونان، وكانت الحقيقة أقل من ذلك بكثير، بدليل أنهم الآن لا يزيدون على نصف مليون نسمة. ورغم الأرقام الكبيرة التي كانت تتردد عن أعداد المسلمين عشية التحرير، فقد كانوا أقل من عشرة ملايين، لذلك فان القول بأنهم الآن في حدود 13 مليونا يمكن الاطمئنان إليه إلى حد كبير.

في تيه الأرقام المتضاربة

أن أي باحث في هذا الموضوع لابد أن تنتابه حيرة شديدة، فلا هو

مقتنع تماما بما يقال، ولا هو قادر تماما على تكذيبه. وإذا استقر على عدم صحة الرقم المعلن فانه يظل عاجزا تماما عن تكوين قناعة سليمة برقم جديد.



فكتاب الصين السنوي الذي صدر عام 1935، والذي أصدرته المطبعة التجارية المحدودة في شنغهاي يسجل أن عدد مسلمي الصين في ذلك الوقت 50 مليونا. وكتاب الصين السنوي الذي صدر في «تايوان» عام 1963-1964 يعتمد نفس التقدير في الإشارة إلى عدد المسلمين عام 1949. ودائرة المعارف الإسلامية الفرنسية تقول: إنه لا يمكن الاعتماد على تقدير وثيق في عدد مسلمي الصين، بينما تقدرهم بعثة أولون الفرنسية التي جابت الصين في أوائل القرن الحالي بحوالي 5 ملايين، و يتحفظ تقريرها فيقول إن هذا الرقم ليس مقطوعا به. ونقل الأمير شكيب إرسلان في كتاب «حاضر العالم الإسلامي» «أن بعض العلماء من مسلمي الصين جاءوا إلى الآستانة ومصر وقالوا أن عدد المسلمين في بلادهم حوالي 60 مليون نسمة» ويحصي تيرسان صاحب كتاب «المحمدية في الصين» عددهم بخمسة وعشرين مليونا. و ينقل الجغرافي الفرنسي الشهير اليزي ركلوس عن الباحث الروسي سكاتشكوف انه قدرهم-في القرن الماضي-بعشرين مليونا، ثم يقول أن هذا العدد يظل ضئيلا بالقياس إلى مؤرخين آخرين.

وفي أوائل الثلاثينات (سنة 1931) نشرت جريدة «الأهرام» القاهرية حديثا لرئيس البعثة الإسلامية الصينية إلى الأزهر الشريف، قال فيه إن مسلمي الصين 50 مليونا، وفي العام التالي نشرت الجريدة ذاتها حديثا آخر لعالم صيني في الستين من عمره اسمه سعيد الياس أو «واي ون كين»، كان يقوم بجولة في العالم الإسلامي، قال فيه أن تعداد مسلمي الصين 75 مليونا، وعندما زار اثنان من علماء مسلمي الصين مدينة القدس في عام 31، قادمين من القاهرة، فانهما قالا في حديث نشرته مجلة «الجامعة العربية» وقتئذ، إن مسلمي الصين 50 مليونا.

وفي كتاب «الإسلام في القرن العشرين» قال الأستاذ عباس العقاد عن مسلمي الصين: يختلف المقدرون لعددهم من خمسة ملايين إلى مائة مليون، فتقويم جوثا يقدرهم بثلاثين مليونا، وجلال نوري بك صاحب كتاب«اتحاد المسلمين»، يقدرهم في داخل الحدود الصينية وفي منشورية وأنام وسيام والهند الصينية وفي الجزر التابعة لإنجلترا من أرخبيل ملقا بنحو ستين مليونا، أما إحصاءات بعثات التبشير فهي تقدرهم تارة بثلاثة ملايين وتارة أخرى بخمسة ملايين في داخل حدود الصين، و يرتفع الرحالة عبد الرشيد

إبراهيم بعددهم إلى مائة مليون، و يقول هانوتو أحد وزراء الخارجية السابقين بفرنسا إنه «قد انبعثت شعبة منه في الصين فانتشر فيها انتشارا هائلا حتى ذهب بعضهم إلى القول بأن العشرين مليونا من المسلمين الموجودين في الصين لا يلبثون أن يصيروا مائة مليون فيقوم الدعاء لله مقام الدعاء لساكياموني».

«ويعقب السيد توفيق البكري على هذا في رسالته عن مستقبل الإسلام فيقول إن تاجرا بلوجيا (من بلوشستان) جاء القاهرة وكان قد ذهب إلى الصين مرارا يؤكد القول بأن مسلمي الصين يبلغون ثمانين مليونا، وأن علماءهم يهزءون بقول الأوروبيين إنهم أربعون مليونا».

ثم يقول الأستاذ العقاد: «إن الصحف الأوروبية تلقت برقية من الجماعة الإسلامية في الصين أرسلتها أثناء حرب الصين واليابان تقول فيها إنها تتكلم بلسان خمسين مليونا من المسلمين».

وينتهي العقاد أخيرا إلى القول بأنه «لا مبالغة-مع ملاحظة هذه الإحصاءات جميعا-في تقدير مسلمي الصين اليوم بنحو ستين مليونا، يضاف إليهم ثلاثون مليونا في التركستان».

ولست أسوق هذه الأمثلة والتقديرات المتضاربة لنتعرف منها على الرقم الصحيح، ولكن لكي ندرك أي قدر من التخبط والتيه يمكن أن يقع فيه الباحث وهو يحاول التعرف على الحقيقة في هذا الشأن. خصوصا وأن نسبة ليست قليلة من تلك التقديرات تعتمد على حسابات وانطباعات شخصية، حتى سجلت الموسوعة الإسلامية أن المبشرين الأجانب تضاربت أقوالهم في الموضوع. «فمن صادف منهم تجمعات إسلامية كثيفة ظن أنهم خلق كثير، ومن وقع على بيئة يندر فيها المسلمون هوّن من عددهم بقدر انطباعه الذي حصله». وهو ما يدخل في إطار تعميم الجزء على الكل. وعندما يكون «الكل» بحجم بلد كالصين، فان هذا الخطأ المنهجي يقود إلى نتائج مغلوطة بشكل فادح.

وما نستطيع أن نقوله في هذه القضية هو:

- إن الرقم المقطوع به غير موجود، وهو ما أكده مسئول الشئون الدينية في الحكومة الصينية.

● وان الحد الأدنى لعدد مسلمي الصين لا يجوز بأي حال أن يقل عن 15 مليونا.

● إن الباب يظل مفتوحا لإضافة أية زيادة في ذلك الرقم، لان الإحصاء الصيني عندما حصر المسلمين في قوميات محددة، استقرت منذ قرون على انتمائها الإسلامي فانه أسقط من الحسبان-عن قصد أو عن غير قصد-من يكون قد اعتنق الإسلام من القوميات الأخرى، وهذه نقطة مطعون فيها بشدة. إذ لا يعقل مثلا أن تظل قومية إلهان اللادينية والرئيسية في الصين (915 مليونا) مغلقة في وجه الإسلام وغيره من الأديان طوال القرون الماضية. نعم، هناك تقليد متبع في الصين يعتبر أن الفتاة من قومية إلهان التي تتزوج رجلا مسلما من قومية هوى، قد انفصلت عن قوميتها الأصلية واكتسبت بالزواج القومية الثانية، خصوصا وأن أكثر أولئك الفتيات يعتنق الإسلام بالزواج. وكثيرا ما يحدث العكس، فيتزوج شاب من إلهان فتاة مسلمة، فيلحق في أغلب الأحوال بقومية هوى، لأنه كثيرا ما يضطر إلى أن يسلك سلوك المسلمين. وهو أمر يسير للغاية، إذ يكفي أن يمتنع عن أكل الخنزير، فيقبل إسلامه عند الهويين، وتلك مسألة سنتعرض لها فيما بعد.

وخارج نطاق الزيجات، فمن الثابت تاريخياً أن المسلمين بذلوا جهدا في الدعوة إلى دينهم بين الآخرين. وقد ذكرنا من قبل تقرير أحد حكام الولايات الذي بعث به إلى الإمبراطور بعد إلقاء القبض على أحد الدعاة المسلمين، الذين راحوا يبشرون بالإسلام في ظل ظروف بالغة القسوة مثل فترة حكم أسرة المانشو. كما أن كتاب برومهول عن الإسلام في الصين-الذي نشر عام 1911- يتضمن اسم كتاب وجد في كانتون يرجع تاريخه إلى عام 1668، باسم «الهداية إلى قواعد الدين الصحيح»، يثني على نشاط الدعوة إلى الإسلام، و يشير إلى الذين دخلوا الإسلام حديثا من الوثنيين.

هل أثمرت هذه الجهود شيئا عبر القرون الماضية؟. إن تصنيف الصينيين حسب قومياتهم يصادر إمكانية الإجابة على هذا السؤال، لكنه لا يلغيه بأي حال.

● أخيرا فإننا ينبغي أن نتعامل بحذر مع التقديرات المبالغ فيها، لأن هذه المبالغة ربما كانت متعمدة لتحقيق أهداف كالتي ذكرها الأستاذ عبد الرحمن ناجونغ، وربما كانت غير متعمدة، وإنما أجريت قياسا على تقديرات

قديمة للمسلمين، دون أن تضع في الاعتبار أن هؤلاء المسلمين تعرضوا في الماضي لمذابح وعمليات إبادة يقدر توماس أرنولد ضحاياها بالملايين، الأمر الذي أدى إلى تناقص فعلي في أعدادهم.

إن مشكلة تجدد المسلمين في الدول الشيوعية لا حل لها، لأن «خانة» الدين ملغية في جداول الإحصاءات الرسمية. وقد حدث أثناء زيارة قمت بها لمسلمي الاتحاد السوفييتي في الستينات أن كان التقدير المعلن لعدد المسلمين في جمهورياته المختلفة هو عشرة ملايين وهو ما سمعته من مسئولي الشئون الدينية، ومن مفتي المسلمين هناك. ولكني سمعت كلاما مغايرا تماما من الأشخاص أنفسهم في السبعينات، إذ ارتفعوا بعدد المسلمين من 10 ملايين إلى 40 مليونا. وما لم يصدر هذا «التصحيح» من المصادر السوفيتية ذاتها يظل الرقم المتداول هو عشرة ملايين مضروبا في معدلات زيادة السكان العادية.

هل تتكرر القصة في الصين؟

من يدري؟!

القوميات: نعم... الحروف العربية: لا

سنتعامل مع الرقم 15 مليونا مؤقتا، وحتى إشعار آخر!

قلت لمسؤلي الجمعية الإسلامية الصينية، إذا كانت إجابتكم قد توفرت على السؤال: كم؟ فقد بقى عندي سؤالان في هذه النقطة، هما: من؟ وأين؟

قالوا في صوت واحد، وبمنتهى التهذيب والابتسام: هذا من اختصاص مصلحة القوميات.

في اليوم التالي كنت في مكتب مدير مصلحة القوميات، الذي فتح ملفا أمامه ودخل في الموضوع مبتدئا بالديباجة المقررة: إن شرور عصابة الأربعة امتدت إلى تخريب السياسة القومية أيضا. غير مكتفية بما أحدثته من تخريب في السياسات الأخرى. أعاد إلى مسامعي ما سبق أن حفظته عن شرور الملاعين الأربعة، والشمس التي أشرقت على الصين بعد سحقهم ثم قال:

في الصين 56 قومية، تتنوع أصولها بتنوع شعوب وأجناس القارة الآسيوية، خصوصا منطقة الوسط فيها، بينها قوميات روسية وكورية ومنغولية وتبتية

ومانشوية وغيرها، وقومية إلهان هي اكبر القوميات، وهي العمود الفقري الذي تقوم عليه الصين، وتلتف حوله بقية شعوبها. وتعداد شعب إلهان حوالي 915 مليون نسمة، كلهم ينتمون إلى اصل واحد، وعرق واحد. و يعيشون على مساحة 45٪ من ارض الصين الحالية. والباقون وعددهم 65 مليون نسمة موزعون بين بقية القوميات، التي تعيش على مساحة 55٪ تقريبا من ارض البلاد. أي أن الأقليات تمثل 6٪ من شعب الصين.

وفيما يتعلق بالمسلمين فانهم موزعون بين 15 قوه جات هي: هوى-ويغور-قازاق-أوزبك-قرغيز-تتار-طاجيك-سالا-دونغشيانغ-باوآن.

ودخلنا اكثر في التفاصيل...

فأغلبية المسلمين من أبناء قومية هوى وهو الشعب الذي ينتمي إلى أصول عربية وفارسية، ويقدر عدد هؤلاء الهويين رشة ملايين ونصف مليون نسمة، أما الويغوريون ذوو الأصول التركية فهم في حدود خمسة ملايين ونصف مليون، والقومية الثالثة في الترتيب هم القوازق وهم اقل قليلا من مليون شخص. أما الباقون فأعدادهم قليلة، مجرد ألوف متناثرة هنا وهناك.

وأبناء قومية هوى منتشرون في أنحاء الصين، في الجنوب والوسط والشمال، و يتركزون في مقاطعات نينغشياه، و يوننان، وخنان، وقانصو.

والويغوريون والقوازق والقرغيز والطاجيك والأوزبك والتتار جميعا في مناطق الغرب. وتضمهم إلى حد كبير مقاطعة سينكيانغ، ومعناها بالصينية «الوطن الجديد»، وليس «المستعمرة الجديدة» كما يروج البعض. فكلمة «سين» تعني الجديد، و «كيانغ» هو الوطن. وان كان ذلك لا يغير من حقيقة أن هذه المنطقة كانت تركستان الإسلامية الشرقية في الماضي، وإنها كانت تعامل رسميا باعتبارها مستعمرات، حتى ضمت إلى الصين وصارت «الوطن الجديد».

أما القوميات الثلاث الأخيرة فهي موزعة في مناطق وسط الصين.

وطبقا للدستور الصيني فان مقاطعتي سينكيانغ (مركز الويغوريين) ونينغشيا (مركز الهويين). تتمتعان بنظام الحكم الذاتي، الذي يفترض فيه قدر كبير من الاستقلال الداخلي. وهو ما اعتبر من قبيل «تقدير» وضع المسلمين واحترام كيانهم الخاص. وبناء على ذلك فان حاكم كل من هاتين

المقاطعتين من المسلمين الويغوريين أو الهويين، وكذلك كبار المسئولين في كل مقاطعة.

ومن الأمور المستقرة أن تعطي كل قومية حق استخدام لغتها في حدود موطنها، وأن تعلم هذه اللغة في المدارس، والمعاهد، و يعمم استخدامها في دواوين الحكومة. كما أن طلبة المدارس يجب أن يدرسوا لغة الوطن الأم، وهي اللغة الصينية، أو لغة قومية الهان التي هي أيضا لغة المسلمين من قومية هوى. غير أن هذه القاعدة مطبقة على كافة القوميات، باستثناء قومية واحدة هي: الويغور!

ووراء هذا الاستثناء قصة، وللقصة قصة أخرى!

فقد دعيت لزيارة معهد القوميات في بكين، وهو واحد من عشرة معاهد تتولى مهمة تذويب الحس القومي، وتخريج «كوادر» حزبية تكون مؤهلة لتحمل المسئوليات القيادية عند العودة إلى الموطن الأصلي. ودخلت فصلا اجتمع فيه أبناء القوميات الإسلامية، حيث كان الدرس في اللغة الويغورية. وتصادف إن جاءت وقفتي إلى جوار طالب كان يكتب الدرس في كراس بحروف عربية، بينما الدرس على السبورة مكتوب بحروف لاتينية!

استوقفتني المفارقة فسألت المدرس عما وراءها، فقال إن هناك محاولة جرت «لتطوير» لغة الويغور، وكتابتها بحروف لاتينية، ولكن البعض لا يزال في المرحلة الراهنة يستخدم حروفها العربية الأصلية.

استثارني هذا التعليل، فطلبت في لقاء رتب لي مع بعض أساتذة المعهد- وكان الحاضرون كلهم مسلمين-أن أناقش معهم قضية كتابة لغة الويغور بحروف لاتينية. وقلت إن هذه مسألة قد تكون لها دلالة سلبية للغاية، ليس فقط لأنها لغة أقلية مسلمة والتقاليد المستقرة في احترام القوميات تفرض الإبقاء عليها بغير إخلال أو تشويه، ولكن أيضا لأن هذه لغة القرآن الذي يؤمن به هؤلاء المسلمون، وإلغاؤها على هذا النحو هو تصرف يسيء إلى مشاعرهم كمسلمين، وليس فقط كويغوريين.

رد أحد الأساتذة قائلا إن اللغة التي يستخدمها الويغوريون بحاجة إلى تطوير، وقد رئى أنه من الأسهل على الناس أن يستخدموا في كتابها الحروف اللاتينية، وهم ليسوا ممنوعين على أي حال من استخدام الحروف العربية.



شىنجاڭ گېزىتى

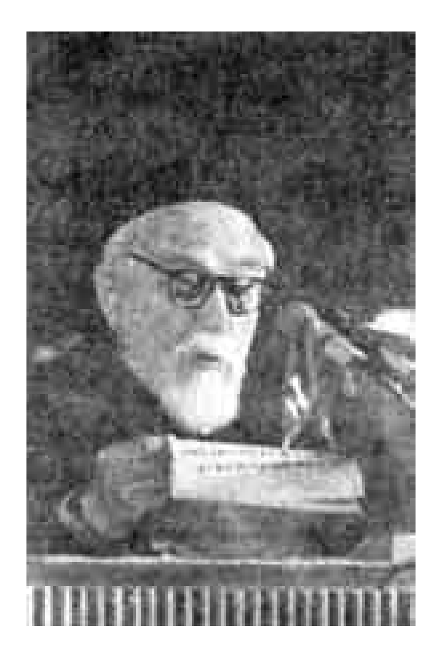
新 疆 日 报

30

واجهة صحيفة سينكيانغ، وقد كتبت الويغورية وبالحروف العربية، وإن تعذرت قراءتها.



البراق كما تصوره الفنان الشعبي المسلم، وهذه الصورة يتهافت المسلمون الصينيون للحصول عليها، وتباع أمام المساجد القديمة للسياح والمصلين.



برهان شهيدي - الرئيس الفخري للجمعية الإسلامية الصينية وأول رئيس لها بعد الثورة.

قلت: إذا سلمنا بحاجة لغة الويغور إلى تطوير فهل يتحقق تطوير أي لغة بإلغاء حروفها تماما؟... ثم أن اللغة ليست حروفا. الحروف هي صياغة للغة أو شكل لها. ولم يحدث أن حاول بلد تطوير لغته بمثل هذا الأسلوب.

قال: لقد لجأ كمال اتاتورك إلى نفس الحل ليطور اللغة التركية.

قلت: نعم اتاتورك فعل ذلك. ولكنه اتخذ هذه الخطوة في سياق اتجاهه إلى مسخ الشخصية الإسلامية للشعب التركي، وقطع الأواصر التي تربطه بدينه وتراثه الثقافي.

قال أستاذ آخر، أن للقصة خلفية خاصة. فقد منع الويغوريون من استخدام لغتهم أثناء الثورة الثقافية (كما منعوا من ارتداء زيهم القومي)، وتقرر في ذلك الوقت إلزامهم باستخدام اللغة الصينية، وإلغاء الحروف العربية. واستبدال حروف لاتينية بها، ونفذ هذا القرار طوال سنوات تحكم عصابة الأربعة في السلطة (من 66 إلى 76). ولم تكن فكرة الحروف اللاتينية جديدة تماما، ولكنها كانت مطروحة للبحث قبل ذلك بسنوات، وبدأ تنفيذها من عام 62 في الطباعة وإرسال البرقيات، على أن يتم التقدم تدريجيا في هذا الاتجاه. ولكن عصابة الأربعة دفعت الأمور إلى مدى صدم مشاعر الويغوريين.

ثم أضاف: إن الموضوع أثار سخطا وجدلا كبيرا بين مسلمي سينكيانغ، حتى رفض كبار السن أن يتعاملوا بالحروف اللاتينية، وأنقذ الموقف مؤتمر نواب شعب المقاطعة الذي اجتمع في اورموش العاصمة في عام 79، وقرر استخدام الحرفين العربي واللاتيني جنبا إلى جنب، ملغيا بذلك قرار استخدام الحروف اللاتينية وحدها.

قلت: أليس مثيرا للدهشة أن تثار مشكلة حول حروف لغة عريقة كالعربية، فيدعو البعض إلى استبعادها، بينما تقبل حروف لغات منقرضة من العالم مثل التبتية والمنغولية، أو حتى لغات منقرضة لقوميات منقرضة أيضا مثل قومية «ل» وقومية «تاي»... هؤلاء جميعا تقبل لغاتهم بحروفها الشبيهة بكتابات الإنسان البدائي، ثم لا تثار إلا مشكلة الحروف العربية ولغة المسلمين؟

قالوا باستياء: مثل هذه الأشياء تقررها القيادة العليا، وتستطيع أن تناقشها مع المسئولين إذا أردت!

وذكرني هذا الموقف بصورة مماثلة في الاتحاد السوفيتي، عندما كانت

تكتب اللغة الأوزبكية بالحروف العربية، فقرر ستالين أن يلغي تلك الحروف ويستبدل بها اللاتينية. وظلت كل قوميات الاتحاد السوفيتي تستخدم لغاتها بغير تعديل، باستثناء المسلمين الأوزبك، الذين حرموا إلى الآن من استخدامهم حروف القرآن الكريم!

وفي مدينتي أورموش وتورفان في سينكيانغ، نبهوني-في مجال الاعتزاز بحروف لغتهم-إلى أن العملة الورقية المتداولة في الصين كلها (اليوان) تحمل منذ سنوات ما بعد التحرير كتابة باللغة الويغورية، بحروفها العربية، تعبيرا عن تقدير المسلمين. وقال لي أحدهم هامسا «الآن يريدون استبدال حروف الكفار بها»!

ولاحظت في أورموش أن واجهات المتاجر في شارعها الرئيسي تحمل لافتات كتبت بالحروف اللاتينية. وعندما زرت مدرسة ابتدائية كانت المناهج تدرس للصغار بالحروف اللاتينية، فضلا عن دروس اللغة الصينية.

لكن كبار السن يداومون على قراءة صحيفة شنجاك كيزتي اليومية التي تصدر بالحروف العربية، منذ تأسيسها عام 1934. واسم الصحيفة يعني-بعد الترجمة-جريدة سينكيانغ، ذلك أن شنجاك هي سينكيانغ، وكيزتي هي جازيت بالإنجليزية!

وحروف الصحيفة عربية في الأساس، لكن اللغة خليط من التركية والعربية والإنجليزية، وذلك ليس غريبا على الإطلاق، فاللغات الفارسية في إيران والأردية في باكستان، والباشتو في أفغانستان، هذه اللغات جميعها لا تخلو من هذا التداخل الملحوظ.

وواضح في اللغة أنها بحاجة فعلية إلى مراجعة وتنقيح، فكلمة محمد في العربية، التي هي في التركية «مهمت»، يكتبونها في لغة الاويغور «مه هه ممه ت»! أي أن حروف الكلمة أربعة في العربية والتركية، لكنها ثمانية حروف عندهم. وعبد الشكور مثلا، تكتب «ئابدو شوكور»، التي تكاد تكون صياغة عربية للنطق الإنجليزي للكلمة.. وهكذا.

إن حاجة اللغة إلى تطوير تشخيص صحيح لمشكلتها التي هي وثيقة الصلة بالتدهور الثقافي الذي عانى منه مسلمو هذه المناطق، ولكن الاعتراض ينصب على العلاج فقط، لأن منطوق الكلمات ذاته لو تمت صياغته بحروف لاتينية لما تقدمت اللغة خطوة واحدة إلى الأمام، بل ربما ازدادت تدهورا

وتشويها. وإذا خلصت النوايا فانه يمكن بغير شك أحداث التطوير وعلاج المرض بأساليب أخرى، ليس بينها قتل المريض على أي حال!

ومع ذلك أقول إن اللغة الويغورية وهي في وضعها الراهن، ليست بأي مقياس اكثر سوءا من لغة قومية لي أو قومية تاي، وحتى لغة التبت، التي لا تختلف في شكلها كثيرا عن نبش الدجاج، كما نقول في لغتنا الدارجة!

أوول شرو ي أمان؟

كنت أول صحفي عربي أو مسلم دخل مقاطعة سينكيانغ، التي فتحت للأجانب عام 78 فقط، ولأول مرة منذ عام 1949.

قبل عام 78 لم تر عيون الناس وجها لأجنبي، الأمر الذي بسببه يظل الأجنبي طوال زيارته موضع استغراب شديد، حيث يعامله الناس باعتباره أحد الكائنات العجيبة.

ولا تنفك عيونهم تلاحقه وترصد تحركاته، برغم الكثافة النسبية التي تزحف بها أفواج السياح الأجانب على تلك المنطقة المتميزة عن بقية أنحاء الصين في الشكل والمضمون.

ذلك أن سنوات الانغلاق التي عاشتها-30 سنة تقريبا-أفادت في الإبقاء على المسحة الخاصة للمقاطعة، رغم محاولات تغيير معالمها.

فأنت في سينكيانغ في مجتمع مسلم شديد الوضوح، لا تميزه-في الشكل-عن أي بلد إسلامي. وإذا كانت عمليات تهجير أبناء قومية الهان ليعيشوا وسط الويغوريين قد حاولت أن تغير من معالم هذه المسحة الخاصة فإن تلك العمليات لم تفلح إلا في تحقيق قدر من هدفها في العاصمة أورموش وحدها، أما في القرى المنتشرة في الصحاري الواسعة فمازالت الحياة فيها كما هي، لم يتغير في ظاهر حياة الناس شيء عما كانوا عليه في عهد تركستان الإسلامية الشرقية.. حتى معدلات الإنجاب العادية، وأسر ستة وثمانية الأطفال لا تزال كما هي!

ورغم أن سكان المقاطعة عددهم 12 مليونا، بينهم سبعة ملايين مسلم تقريبا، إلا أن الملايين الخمسة الأخرى-وهم نتاج عمليات الزرع والتهجير-يعيشون في مجتمع منفصل، سواء تمثل في قرى مستقلة، أو أحياء مستقلة في القرى المسلمة.



قازاقية أطلت علينا من باب الخيمة وابتسمت للكاميرا.



خيام القازاق المسلمين منتشرة في شمال وشرق الصين، ومضاربهم حيث العشب والمراعي.

ولأن مسلمي سينكيانغ الويغوريين شديدو التمسك بتقاليدهم الإسلامية، تماما مثل مسلمي يونان الهويين، فقد فشلت عمليات التهجير-برغم حجمها الكبير نسبيا-في أن تحقق هدف خلخلة هذه المجتمعات الإسلامية المتماسكة.

حقا لقد أصبح مسلمو يونان «أقلية» في المقاطعة، بسبب التهجير من ناحية ونتيجة للمذابح وعمليات الإبادة التي جرت من ناحية أخرى، ولكن تدهور أعدادهم لم يؤثر على تمسكهم بالتقاليد الإسلامية الراسخة في أعماقهم.

وإحدى ميزات التواجد في سينكيانغ أنه يتيح الفرصة للاقتراب من القوميات الإسلامية الأخرى، وأبرزها قومية «القازاق» التي تضم حوالي مليون مسلم، يعيشون كرعاة مقرهم الرئيسي سفوح جبال التاي في أقصى نقطة شمال غرب الصين، ولأنهم رعاة، فهم كثيرو التنقل بخيامهم اللبادية، وبخيولهم وأغنامهم، يحطون رحالهم حيث يوجد العشب الأخضر. ومراعي التاي لها سمعة ممتازة، وأغنامها أكبر الغنم وأغناها باللحم والشحم. فحجم الخروف ليس أقل من حجم العجل العادي، وإذا سقطت إحدى رؤوس الغنم على الأرض فإنها لا تستطيع أن تنهض إلا بمساعدة أحد الناس بسبب ضخامة «الإلية».

وهم في أغلبيتهم مسلمون اسما، وفي كل جماعة راحلة أحد الشيوخ الذي يحال إليه كل ما يتعلق بإسلام الجماعة، وهو الذي يدعوهم إلى صلاة الجمعة، ليقفوا وراءه صامتين بين يدي الله. ومظاهر إسلامهم محصورة في صلاة الجمعة والاحتفال بعيدي الفطر والأضحى، والأضحى عندهم أهم بسبب الذبائح التي تتم فيه، وهم أهلها وأولى بها.

لكن كل ما يشغلهم هو البحث عن الخضرة، ومطاردة الذئاب التي تهدد الغنم. وكل من يقتل ذئبا مكافأته معزيان. والقازاقي يحيي زميله لا بقوله السلام عليكم، ولا حتى كيف حالك، ولكنه يسأله على الفور: أوول شروي أمان؟

وأوول معناها الخيمة، وشروي تطلق على الماشية، و«أمان» نعرفها بطبيعة الحال. ذلك أنه إذا كانت الخيمة بخير، والماشية بخير، فقد تم المراد من رب العباد!

إن السؤال الذي يطرح نفسه-بعد هذه الرحلة-هو لماذا ظل الإسلام محصورا في إطار تلك القوميات العشر، لم يتجاوزها ولم يتقدم أبعد من حدودها؟

لقد راودت بعض المسلمين قبل قرون فكرة أن تصبح الصين دولة مسلمة. وربما كان الشاه رخ بهادر واحدا من هؤلاء الذين خطر لهم هذا الحلم في أوائل القرن الخامس عشر الميلادي، عندما كتب إلى أحد أباطرة أسرة مينغ يدعوه إلى تطبيق الشريعة «لنيل سلطان الآخرة بدلا من سلطان الدنيا».

وهذا الخاطر شغل البعثات التبشيرية كلها التي ذهبت إلى الصين خصوصا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وهو أيضا ظل شاغل كتاب الغرب ومؤرخيه الذين عنوا بالصين ومستقبلها.

وكان الكاتب والرحالة الروسي فاسيليف-الذي زار الصين في عام 1867موفدا من قبل حكومة القيصر لتقصي أحوال الصين-قد كتب يقول إن الإسلام مهيأ لأن يصبح الدين القومي للإمبراطورية الصينية، ولأن يقلب تبعا لذلك الأوضاع السياسية في العالم الشرقي رأسا على عقب. وكان مما قاله إنه «إذا انتشر الإسلام في الصين، كما انتشر مذهب بوذا ينقلب العالم».

ولكن توماس أرنولد يعقب-في كتابه الدعوة إلى الإسلام-على هذا الكلام بقوله: وقد مر ما يقرب من نصف قرن على هذه «النبوءة المزعجة»، ولم يحدث ما يحقق التكهنات التي تضمنتها بل على العكس من ذلك يبدو أن الإسلام كان خلال القرن الأخير-التاسع عشر-آخذا في التأخر بدلا من التقدم.

وتوماس أرنولد الذي نعرفه عالما راسخا ومدققا يتخلى عن حياده العلمي عندما يتعلق الأمر باحتمال-مجرد احتمال-أن تصبح الصين بلدا مسلما. وهو عندما يصل إلى هذه النقطة نشم في حديثه رائحة التعصب، الذي لا يرى في فكرة انتشار الإسلام في بلد عند آخر أطراف المعمورة سوى أنها «نبوءة مزعجة»!

المهم أن ذلك لم يحدث، وهو أمر يثير الدهشة والغرابة والتساؤل: لماذا تعثرت خطى الإسلام في الصين، وهو الذي غرست بذوره هناك منذ 13 قرنا؟

يطول الشرح في الرد!

5 مسلمون: كيف؟

قال لي الحاج أمين بن إسلام-أحد شيوخ سينكيانغ القدامى-إنه لم يتبادل حديثا باللغة العربية مع أحد منذ 50 عاما، أي منذ سافر إلى السعودية للحج، وقضى هناك سنتين، تعلم خلالها العربية وعاد إلى وطنه في الصين. وفي بكين عندما كنت أناقش عبد الرحمن ناجونغ أستاذ التاريخ الإسلامي الذي قضى في مصر تسع سنوات، وتخرج من كلية دار العلوم في آخر الثلاثينات، كان الرجل يستخرج الكلمات من ذاكرته بصعوبة، حتى اعتذر لي بأن هذه هي أول مرة يتكلم فيها باللغة العربية مع عربي منذ أربعين عاما.

وفي شنغهاي دخلت «الدكان الإسلامي للحلاوة والفطائر»، وألقيت السلام على جماعة من المسلمين الجالسين، فتطلعوا إلي بدهشة، واحتاروا بماذا يردون، ثم لزموا الصمت وواصلوا الأكل. وفي حجرة جانبية من الدكان الشهير في العاصمة الصناعية للصين التقيت بمديره والعاملين فيه، وبدأ اللقاء بكلمة لواحدة من العاملات «ميه كوي غو» واسمها الإسلامي «سليمة» استهلتها بقولها: «إن الدكان الإسلامي للحلاوة والفطائر أنشئ تحت رعاية الحزب الشيوعي بعد التحرير». وبعدما عرفتنا

بماضي المتجر وحاضره، سألتها عبر المترجم: مسلمة أنت؟

ردت على الفور: نعم. مسلمة من قومية هوى.

قلت: ما الذي تعرفينه عن الإسلام؟

قالت بعد لحظة صمت تبادلت خلالها نظرات الحيرة مع الجالسين: أبي هو الذي يعرف في الواقع. لكني مسلمة وأعمل في متجر حلويات إسلامي. هذا كل ما في الأمر.

وتدخل في الحوار أحد العمال قائلا: إنه يحفظ الفاتحة، ثم قرأها في كلمات خجولة ومتكسرة، وعندما وصل إلى نهايتها كان يلهث، كما لو كان قد ركض مسافة عشرة أميال!

وعندما لاحظ مرافقي اهتمامي بهذا الموضوع، دعاني إلى زيارة أسرة مسلمة في إحدى ضواحي شنغهاي. واكتشفت أن بين أفراد الأسرة «جدة» عمرها 84 عاما، طلبوا منها أن تنهض من فراشها، وتجلس بيننا لتقرأ على مسامعي بعضا من الآيات القرآنية لأتأكد من أن الإسلام بخير وأن «الحرية الدينية» مكفولة. قدمت إلينا الجدة تجرجر أقدامها الصغيرة، التي تنتمي إلى عصر حبس أقدام السيدات في أحذية حديدية لتظل في رشاقة حوافر الغزلان. وهو التقليد الذي نشأ في بلاط الإمبراطور لي هو غو (القرن العاشر الميلادي). قرأت العجوز بصوت مرتعش آيات من سورة ياسين، وقد غطت رأسها بخمار أسود وضمت يديها على صدرها، كما كان يفعل تلاميذ الكتاتيب في الماضي.

وسألت ابنها ورب الأسرة، عبد الله، عما إذا كان هو أيضا يحفظ شيئا من القرآن، فاعتذر، وقال إنه يحفظ فقط «لا اله إلا اله»، ثم تلجلج، وسكت، وحاول مرافقي مندوب الجمعية الإسلامية الصينية أن يلقنه خلسة عبارة «محمد رسول الله»، لكن صوته كان خفيضا، ولم يستطع عبد الله أن يلتقط الكلمات. فنكس رأسه وتمتم بكلمات لم أفهمها.

ولما قادونا إلى صلاة العصر في مسجد شنغهاي، كان إلى جواري نائب رئيس الجمعية الإسلامية، الذي لاحظ أن فريقا من العجائز الحاضرين شرعوا في صلاة ركعتي تحية المسجد. فنظر إليهم الرجل مليا، وفعل مثلما فعلوا. بدأ الصلاة ووقف صامتا، وعندما ركعوا ركع، ثم فوجئ بهم سجدا على الأرض، فخر ساجدا هو الآخر، دون أن يقوم من ركوعه، ولم يعرف

كيف ينهي الصلاة، فبعضهم جلس يقرأ التحيات، وبعضهم كان واقفا، فظل على هذه الحال، أربع ركعات متواصلة، يقوم ويركع ويسجد، بغير توقف، حتى التفت خلسة ليرى ماذا يفعلون للخروج من الصلاة، حتى استطاع أخيرا أن ينقذ نفسه من هذه «الورطة»!

وفي صلاة الجمعة في شيآن، وقف الخطيب محمد يونس، ينشد تراتيل ومدائح بالعربية والفارسية، ثم قال كلمات باللغة المحلية، وختم الخطبة بأدعية بالعربية كان آخرها: اللهم أمّن دولة السلطان المعظم!

أما في بلدة تورفان الشهيرة في مقاطعة سينكيانغ، فقد دخلت ساحة مسجد في «كوميونة هونغ وان» فإذا بالحجرات الجانبية، التي كانت مخصصة للإمام ولتحفيظ القرآن في الماضي، قد حولت واحدة منها إلى ورشة تجارة، والثانية صارت مخزنا لعلف الحيوان، والثالثة بقيت مهجورة وغير مستعملة. أما قاعة المسجد ذاته فقد غطت أرضيتها بطانيات حمراء صوفية بالية، وعلى طاولة جانبية وضعت كراسة عتيقة كتبت فيها سورة الكهف بخط اليد، وكانت هذه الكراسة البالية هي مكتبة المسجد!

وعندما دخلت أحد فصول معهد القوميات في العاصمة بكين، وقيل لي إن هذا الفصل مخصص للطلاب المسلمين، كان هناك واحد فقط من بين 30 طالبا وطالبة مسلمين يحفظ الفاتحة. كانت كلماتها مازالت محفورة في ذاكرته، منذ لقنه أبواه إياها في الصغر!

وفي كانتون، مركز العرب الأقدمين، سألت جمعا من الأئمة وممثلي الجمعية الإسلامية: هل يوجد في المدينة أحد يعرف العربية من رجال الدين أو غيرهم؟ فهزوا جميعا رؤوسهم بالنفي والاعتذار.

وطوال جولتي في الصين، كانت هذه النماذج تتكرر في كل بلد بدرجات متفاوتة، وفي مجتمع «باطني» سمته التكغ والغموض كالصين، فان ما يظهر أمام أعين الغريب غير المرحب به دائما، هو جزء متواضع جدا من الحقيقة، وربما كان الجزء الذي تعذر إخفاؤه لسبب أو لآخر.

غير أن هذه الملامح ترسم على أي حال جانبا من الصورة التي آل إليها أمر المسلمين في الصين. ولن نستغرب ذلك على الإطلاق، إذا تذكرنا أن قنوات المعرفة السليمة بالإسلام مغلقة تقريبا منذ سنوات طويلة، فمنذ عام 1937، وحتى سنة 1980 لم يتح لأحد من المسلمين أن يدرس علوم الدين

في أي معهد أو جامعة خارج الصين. نعم، هناك صينيون أوفدوا للدراسة- في الجامعات العربية، ولكنهم جميعا ذهبوا لدراسة اللغة العربية فقط، وهم يختارون بدقة لأنهم سيعملون عادة بالترجمة في مواقع هامة وحساسة بالدولة والحزب حين عودتهم، الأمر الذي بسببه يستبعد المسلمون من مثل هذه البعثات.

الفرصة المتواضعة الوحيدة التي أتيحت للشبان المسلمين لدراسة علوم الدين كانت خلال السنوات الأربع التي فتحت خلالها أبواب المعهد الإسلامي ببكين، حتى تخرج منه مائة شخص فقط، وزعوا على مختلف الوظائف والمهن، وبعضهم يعمل في فروع الجمعية الإسلامية.

وإذا تذكرنا أن اكثر كتب المسلمين أحرقت خلال سنوات الثورة الثقافية، مما أدى إلى نقص فادح في مصادر المعرفة الأخرى، حتى وان كانت مخطوطة وبالية، فإننا نستطيع أن نستقبل الواقع الراهن بصدمة مبررة. إذ هل نتوقع أي قدر من الفهم الصحيح للإسلام، حتى في حده الأدنى، بينما أجيال الشيوخ القدامى انقرضت أو في سبيل الانقراض، والأجيال التالية سدت أمامها أبواب المعرفة والدراسة؟ وحتى المصاحف وكتب الفقه ذاتها اندثر معظمها، ذلك فضلا عن أن المناخ العام السائد مناهض بطبيعته لأي فكر أو ثقافة دينية.

ألا نظلم مسلمي الصين إذا طالبناهم بأن يكونوا افضل مما هم عليه الآن؟ أليست الصدمة مبررة، كما قلت؟!

إن ثمة وجوها أخرى للمسلمين في الصين، تتوزع بين الواقع الاعتقادي والثقافي والاجتماعي، وفي شبه قارة مثل الصين يتوزع فيها المسلمون من أقصاها إلى أقصاها، بينما هم أقلية محدودة بالنسبة لمجموع السكان، فانه يتعذر تعميم كل الملاحظات التي يمكن أن ترصد، أو كل المعلومات التي يمكن أن تجمع. فليس كل تقليد أو عادة شائعا بين جميع المسلمين، إذ لكل منطقة تقاليدها وعاداتها، وظروفها التاريخية والعرقية التي تقف حائلا دون «تسريب» عادات الآخرين بسهولة.

أحناف ولا تسال عن التفاصيل

حاولت جهدي أن أرصد ما هو شائع بين أغلبية المسلمين من تلك

الاعتقادات والتقاليد، واضعا في الاعتبار مع ذلك بان الاستثناء وارد دائما. فهم من أهل السنة في غالبيتهم العظمى، يتبعون المذهب الحنفي، لكن بصمات التأثير الشيعي واضحة في ثقافتهم وممارساتهم! وهناك نسبة ضئيلة للغاية من الشيعة الإسماعيلية (يقال إنهم 20 ألفا فقط) ينتمون إلى قومية الطاجيك، و يتوزعون على الحدود الصينية الأفغانية. وقد استقبلوا ممثلا للثورة الإيرانية-السيد جعفر خاتمي-بعد نجاح الثورة في عام 1979، الذي قدم إلى المنطقة بترتيب من قبل الجمعية الإسلامية الصينية.

واكثر المسلمين لا يعرفون شيئا عن المذهب الحنفي، ولا يدركون أن في ثقافتهم وممارساتهم خلطا بين ما هو سني وما هو شيعي، ولا بين ما هو عربي و فارسي. فقد أراحوا أنفسهم-عن غير قصد-من الجدل الذي يمكن أن تثيره هذه القضايا. مسلمون وكفى، وأحناف عند رجال الدين، واكثر من ذلك لا تجهد نفسك في السؤال والتحري!

وقد نشأت التأثيرات الشيعية والفارسية نتيجة الصلات القديمة، التي كان لتجار بلاد فارس دور كبير فيها. وهناك نسبة ملحوظة من الآثار الإسلامية الباقية حتى منذ عهد أسرة تانغ (بين القرنين السابع والعاشر) تحمل كتابات فارسية إلى جانب العربية.

وقد مر بنا أن بعض كتب الفقه الحنفي المتداولة هناك مكتوبة باللغة الفارسية. ليس هذا فقط، بل إن الصلاة وما يرتبط بها، ومسميات الفرائض الخمس كلها فارسية. فالصلاة «نماز» والأذان «رانك» والوضوء «آبديس». والصبح «بام بداد»، والظهر «بيشين» والعصر «دكر» والمغرب «شام»، والعشاء «خوفت».. وهكذا

وهم يترقبون المهدي المنتظر (الإمام الغائب) في جنوب الصين. و يفضلون اللون الأخضر، لون عامة «السادة» عند الشيعة، وقد كانت الجبة الخضراء هي الزي المميز للفقهاء في الماضي، ويحتفلون بذكرى السيدة فاطمة، و يعظمون الإمام (الذي يرتبط باسم علي بن أبي طالب) اكثر من لقب الخليفة، فيعتبرون الأستاذ إماما، وتلاميذه خلفاء. وفي تراثهم القديم مقطوعة شعرية يتداولها الأجداد والآباء تقول:

إن أصول الدين ثمانية، المؤمن الحق هو الذي يلتزم بها: الاعتراف بوحدانية الله سبحانه، والاعتراف بعدل الله جل جلاله، وتبجيل النبي

عليه الصلاة والسلام، واحترام الأئمة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والابتعاد عن الخيانة، والاقتداء بالصالحين.

والملحوظ عن هذه الأصول إنها تدعو إلى احترام «الأئمة» والمقصود بهذا الوصف أئمة الشيعة الاثنا عشر، بينما تسقط تلك الأصول الخلفاء الراشدين من القائمة، إلا إذا اعتبرنا انهم يندرجون ضمن الصالحين المشار إليهم في آخر القائمة.

لكن ذلك لا يهم، فهم عرفوا الإسلام وشعائره على هذه الصورة.

الأغرب من ذلك انه مازالت بينهم بقايا للطرق الصوفية، وكان ابن بطوطة قد أشار إلى وجود هذه الطرق عند زيارته للصين قبل ستة قرون.

وهذه البقايا متمركزة في مناطق تجمع المسلمين، سينكيانغ في الشمال الغربي التي تضم اكبر كثافة سكانية مسلمة في الوقت الراهن. و يوننان في الجنوب، التي كانت معقل النشاط الإسلامي في الماضي، قبل تفريغها من سكانها.

لا يزال هناك من ينتمي إلى الطريقة الخوفية (القريبة من النقشبندية)، والطريقة الجهرية (الأقرب إلى القادرية) اللتين سبقت الإشارة إليهما في مقال الأستاذ محمد مكين الذي كان مبعوثا إلى الأزهر عام 1931.

الخوفية: الذين يتلون القرآن الكريم بصوت منخفض، وهم موجودون في قانصو وسينكيانج.

والجهرية: الذين يقرءون القرآن بصوت عال، و يعظمون الأولياء ويقيمون الأضرحة أو المزارات لشيوخهم، وهم موجودون في نينغشيا وقانصو، وأشهر مزاراتهم في قرية شاقوه بمقاطعة قانصو. وهناك قرية بأكملها تتبع الطريقة الجهرية في مقاطعة يوننان الجنوبية، اسمها طاهوى سون، أو سوق هوى الكبير، وهوى قومية المسلمين المشهورة في الصين كما نعلم.

وقد التقيت بأحد أئمة المساجد في بكين، الذين ينتمون إلي الطريقة الجهرية. وكان مما قاله أن مؤسس الطريقة في الصين اسمه الإسلامي وقاية الله، واسمه الصيني ما من شين. وانهم يقومون الليل. و يقرءون مجموعة من الابتهالات والتسابيح، كل ابتهال 100 مرة، مثل: سبحان ذي الملك والملكوت. سبحان ذي العزة والعظمة والكبرياء والجبروت. سبحان الحي الذي لا يموت سبوح قدوس، رب الملائكة والروح.-ثم: استغفر الله من

كل ذنب وأتوب إليه-ولا اله إلا الله (99 مرة)، ومحمد رسول الله (مرة واحدة)-ثم اللهم صل على محمد وعلى آل محمد (100 مرة).

وهم يرددون هذه الابتهالات قبل الفجر كل يوم. و يقرءون سورة يس بعد الفجر. ولهم (وردٌ) يقرأ بعد صلاة العصر. وبعد صلاة العشاء يقرءون سورة «المُلك». ويرددون في حلقات قصيرة «المخمس» في مديح النبي (ص)، والبصرية للحسن البصري.

وغير الخوفية والجهرية فهناك السلفيون والمحدثون.

وكل من هذين الوصفين له مدلول مختلف عما هو معروف في عالمنا العربي. فالسلفيون أو القدامى هم المتمسكون بكل التقاليد والبدع القديمة والمتوارثة، مثل قراءة القرآن بأجر، والتلحين في التلاوة والصوم على التقويم الصيني، غير مظاهر أخرى تتعلق بصلاة الجنازة ورفع الإصبع أثناء قراءة الشهادة في الصلاة..

أما المحدثون وهم امتداد «اللاخوان» الوهابيين وأطلق عليهم السلفيون ذلك الوصف للتشهير بهم، فهم ضد الأضرحة، وضد التدخين، وضد ارتداء ثياب الحداد والولولة على الأموات، ومع الصوم بناء على رؤية الهلال، وقراءة القرآن بغير أجر. وهو ما تعرضنا له من قبل عن ظهور الوهابية في الصين.

وفي ولايات ومحافظات الشمال الغربي أيضا تنتشر الأضرحة، التي حطم الكثير منها أثناء الثورة الثقافية. لكن بعض المسلمين لا يزالون يتعلقون بها.

ففي بلدة جيري تشيه مزار شيد باسم الشيخ صوفيان. واشهر الأضرحة في كاشغر باسم «حظرت» اباجوجان. وفي محافظة كوشار مزار للشيخ غريباني، وفي تورفان ضريح تويوغوخوجان الذي هدم ولم يرمم. والذي يقام له «مولد» في أبريل من كل عام، والى هذه الأضرحة وغيرها يتوافد المسلمون باستمرار، حيث يفعلون بالضبط كل ما يفعله عامة المسلمين في العالم العربي والإسلامي، وما ينكره الدين وتنهي عنه الأحاديث النبوية!

وثمة ضريح شهير في شرق الصين، يحمل اسم بهاء الدين، الذي يقال

إنه من آل البيت وفد إلى يانجتشو في القرن الثالث عشر، مبشرا بالإسلام، ومات في المدينة. و يعتبر هذا الضريح ذا قيمة أثرية وتاريخية كبيرة. لكن «الإقبال» عليه ضعيف، بسبب بعده عن مناطق الكثافة السكانية للمسلمين.

اسم الصين واسم الدين

وفي قاموس اللغة الصينية المتداولة فان الإسلام يشار إليه بتعبير: تشينغ تشن، أو الصفاء الحق (سبقت الإشارة إلى أن واحدا من أحفاد «السيد الأجل» هو الذي استصدر اعترافا من إمبراطور الصين في القرن 14 بهذه الصفة للإسلام). فهم لا يعرفونه بذاته، انه دين الإسلام مثلا، ولكنهم يعرفونه ببعض من صفاته وهي طريقة في التعبير متأثرة بتعاليم كونفوشيوس. القديمة، التي تخاطب الناس بلغة القيم الاجتماعية والسلوكية، دون أن تكترث بالغيب أو ما وراء الطبيعة. وهو أول ما يتبادر إلى الذهن إذا استخدمت كلمة «دين» مثلا.

والشائع بين المسلمين أن «أعمدة الدين» الأربعة هم: الإمام والخطيب والمؤذن وخادم المسجد. والإمام غير الخطيب في كثير من المساجد. حيث يلقى الخطيب خطبته يوم الجمعة مثلا، ولكن الإمام هو الذي يقوم ليؤم في الصلاة.

والإمام له وضع خاص ومتميز في مجتمعات المسلمين. وله دوره عندما يولد الشخص، وعندما يتزوج، وعندما يموت، وحتى تخرج جنازته ويدفن!

فبمجرد أن يولد الطفل يدعى الإمام، ليتلو إلى جواره بعضا من آيات القرآن الكريم والأدعية، ثم يلقى «البانك»-الأذان-في أذنه، حسب السنة عند المسلمين، فيكون أول ما اخترق إذنه هو أذان الصلاة. ثم يقوم الإمام باختيار اسم للمولود ذكرا كان أم أنثى.

وفي قومية هوى-المسلمين ذوي الأصول العربية والفارسية-فإن المسلم له اسمان كقاعدة، اسم الصين، واسم الدين، كما يقولون. الأول هو الاسم الرسمي، المدون في شهادة الميلاد وأوراق الوثائق الرسمية، وهو عادة ذو منطوق وتركيب صيني، في شكله على الأقل، أما اسمه الديني فهو أحد الأسماء المتداولة في مجتمعات المسلمين، محمد أو محمود أو علي أو حسين، أو فاطمة أو مريم أو سليمة أو خديجة.. إلى آخر تلك الأسماء.

وهم اكثر إقبالا على الأسماء المعروفة في سلالة الرسول عليه السلام.

وقد مر بنا من قبل أن المسلمين الذين ينتمون إلى هذه الأصول العربية والفارسية قاموا فوق ذلك بتصيين «الأسماء العربية، حتى أصبحت محمد «مو» ومحمود «ما» ويحيى «يى» ونصر الدين «نا».. وهكذا، وهو ما لم يخل بالعرف السائد، إذ اعتبرت هذه الأسماء العربية التي وضعت في القالب الصيني أسماء صينية، وبات الواحد منهم يتسمى إلى جوارها باسم عربي أو إسلامي صريح، بحيث يكون مثلا «عبد الله ما» الذي هو «عبد الله محمود»، ذلك فضلا عن اسم العائلة الأخير الذي ينبغي أن يظل صينيا صرفا، وليس فيه مجال للمساومة.

ولأن أجداد هؤلاء المسلمين قادمون في الأساس من الخارج، ولم يكن لهم أرض أو عرق ينتمون إليه في الداخل، فقد كانوا مضطرين إلى الانتشار في مختلف أنحاء الصين من البداية، وكانوا مضطرين إلى التكيف مع عادات وتقاليد مجتمعهم الجديد، ليتجاوزوا «عقدة الأجنبي» التي تستثير الصينيين. وبينهم نشأت فكرة بناء المساجد بلا مآذن للسبب ذاته، وهم الذين تزيوا بأزياء الصينيين وأغطية رءوسهم وقلدوهم حتى في إطلاق ذقونهم وتسريح شعورهم، كما سبق أن ذكرت.

سلالة هؤلاء «الهويين» هم الذين لجئوا إلى فكرة تصيين الأسماء الإسلامية، وإطلاق اسم إسلامي على كل شخص، بالإضافة إلى اسمه الصيني. بحيث يعرف بين أقرانه المسلمين بالاسم الأول، وتحمل هويته الرسمية الاسم الثاني.

وشيء قريب من هذا لجأ إليه المورسكيون في الأندلس بعد سقوط دولة المسلمين في القرن الخامس عشر الميلادي. إذ كان هؤلاء من أبناء المسلمين الذين ولدوا وعاشوا في الأندلس. وتزاوج آباؤهم مع أهل البلاد حتى عرفوا «بالمدجنين». ثم اضطر هؤلاء إلى أن يعيشوا في ظل حكم أعدائهم من ملوك قتالة، وإزاء عمليات المطاردة والإرهاب الذي عاشوا فيه، فقد كان الطفل المسلم يعتد بعد ولادته باعتباره مسيحيا، ويطلق عليه اسم مسيحي، بينما يتلى آذان الصلاة في أذنه سرا، و يطلق عليه اسم إسلامي آخر، يتداول في نطاق الأسرة فقط. إلى أن انكشف أمرهم وطردوا جميعا.

هذا بين مسلمي قومية هوى. أما المسلمون الآخرون الذين يتركزون في مقاطعة سينكيانغ وما حولها فللواحد منهم اسم إسلامي صريح، هو وأبوه وعائلته، واسمه العرفي هو اسمه الرسمي المسجل في شهادة الميلاد، وكافة وثائقه. وليس هناك اسم للدين وآخر للصين، أو قل إن اسم الدين هو السائد، ولا مكان لاسمه الصيني في تلك المناطق.

وتفسير هذه الظاهرة مفهوم. ذلك لأن هؤلاء المسلمين ينتمون في أصولهم المتعددة إلى الأرض التي يقيمون عليها. وهم من هذه الناحية أفضل حالا من إخوانهم «الهويين»، إذ لم يكونوا مضطرين إلى المجاملة والتخفي والمداراة. لأن هذه الخلفية التاريخية منحتهم شجاعة اكثر في إعلان أسمائهم الإسلامية صريحة وبغير تحريف. يضاف إلى ذلك انهم يعيشون منذ مئات السنين وحتى الآن في مجتمع إسلامي، بعكس الهويين، الذين قدموا على غير أرض أو موطن، فانتشروا وسط الآخرين، وتاهوا-أو غرقوا-في المحيط الكبير.

بسبب هذه الملابسات، فان مسلمي الويغور والقازاق والأوزبك وغيرهم لا يحملون فقط أسماء إسلامية صريحة، بل إن ظاهرة وجود المآذن فوق مساجدهم ملحوظه أيضا، على عكس اكثر مساجد المسلمين في بقية أنحاء الصين.

وتقليديا فإن الطفل المسلم يختتن بعد أربع سنوات. مستشفيات المدن تقوم بهذه العملية، وفي القرى يفضلون أن يقوم بها واحد من ذوي الخبرة المجربين. مثل «حلاق الصحة» في بلادنا. وفي العادة فانه بعد العملية تطعم الأم طفلها بيضا بالسكر، استرضاء له، وتمسكا بتقليد لا يعرف مصدره.

وفي سن الخامسة يلقن الطفل الشهادتين وفاتحة الكتاب. ومثل هذه الأعمال «الهامشية» يقوم بها الوالدان، لكن الإمام يظهر على المسرح بعد ذلك في مرحلة تعليم الطفل وتحفيظه القرآن.

يذهب الطفل إلى المسجد ليجلس في حضرة الإمام، مع غيره من الأطفال، تماما كما يحدث في اكثر بلدان العالم العربي والإسلامي. ويتولى الإمام تعليمه الحرف العربي، وتحفيظه 18 سورة من القرآن الكريم، أكثرها من جزء عم، وبعد مضي بعض الوقت يلقنه بعضا من النحو والفقه. يدرس

كتب «فصل» و«مهمات» و«عمدة» التي ينطقون أسماءها على هذا النحو، وقد أشرت إليها من قبل، والكتب الثلاثة باللغة الفارسية، وهي تتناول مسائل الإيمان وقصص الأنبياء وأحكام الفقه الحنفي.

وعندما يمضي الصبي في هذا الاتجاه، فانه يصبح هو ذاته على عتبات طريق الإمامة.

وإذا لقنه الإمام محتويات أربعة أو خمسة كتب أخرى في التفسير والصرف والنحو فانه يصبح مؤهلا فعلا ليباشر الإمامة. وإذا حدث ذلك فان الإمام يهديه «الجبة الخضراء»-استمرار للتقليد القديم-وتقام له احتفالات التهنئة والتكريم.

وقد كان الأئمة يقومون بهذه المهمة حتى بداية الثورة الثقافية، ولكنهم توقفوا عنها تماما طوال سنوات الثورة العشر. وقد قال لي بعض شيوخهم إنهم بدءوا يعودون تطوعا إلى تعليم الصغار، خصوصا في مدينة كاشغر، عاصمة تركستان في الماضي، والتي كانت إحدى منارات الإسلام حتى عشرين عاما مضت، حتى انه ليشبهها كثيرون ببخارى في وسط آسيا.

عرس في سينكيانغ

لكن للإمام دورا لا يزال مستمرا في زواج المسلم أو المسلمة.

وتقليد زواج المسلم من فتاة تنتمي إلى قوميته-وليس دينه فقط-هو القاعدة. ونظام الزواج المدني هو السائد طبقا للقوانين الصينية بطبيعة الحال. لكن المسلمين يصرون على أن يعقدوا عقدا شرعيا يتولاه الإمام بنفسه، و يسمونه في شمال غرب الصين «الإجابة» لان العروس تجيب فيه بالموافقة على الزواج.

فبعد التسجيل في مكتب الزواج يقيم الأهل احتفالا في المنزل يدعى إليه الأقارب والأصدقاء، و يتصدره الإمام، الذي يبدأ بقراءة بعض الأدعية بصوت قريب إلى الغناء، ثم يتلو آيات القرآن الكريم، ويقف ليلقي «خطبة النكاح»، التي يفترض أنها موعظة للزوجين اللذين يتزوجان على سنة الله ورسوله. لكن إمام مسجد شيآن، الشيخ محمد يؤنس، يحفظ منذ عشرين سنة خطبة واحدة، لقنها له أبوه الذي ورث عنه الإمامة. وقد كان جالسا إلى جواري في السيارة عندما تطرقنا إلى هذا الموضوع، فاستأذن رافقي

أن يلقي الخطبة أمامي، ثم اعتدل وتنحنح واستهلها بقوله: الله المحمود. ثم مضى يخطب بالعربية وبصوت عال:

«النكاح بإذن الله تعالى، وبسنة نبينا محمد، وبسنن الأنبياء، وبإجماع العلماء رحمهم الله، وباختيار الوالدين، وبسبب الوسيلة، وبشهادة الشاهدين الحاضرين، وبالمهر المسمى، هذه المخطوبة لهذا الخاطب».

ثم شرح لي، عبر المترجم، انه بعد ذلك يتوجه إلى العروس ويسألها: هل قبلت؟

عندئذ يتعين عليها أن ترد بكلمة «كردم»، وهي كلمة فارسية معناها قبلت!

وسألته: لماذا بدأت بعبارة: الله المحمود، ولم تقل: بسم الله الرحمن الرحيم؟

عندئذ دهش الرجل لسؤالي، ونظر إلي نظرة اتهام بالجهل، وقال هذه هي الأصول. هكذا تعلمتها من أبي رحمه الله. وقد كان عالما كبيرا درس في بخاري والهند.

سألته: كم تبلغ قيمة المهر؟

قال: المسألة رمزية طبعا. وبعد «التحرير» صار المهر يتراوح فيما بين 2 و 5 يوانات (الدولار الأمريكي يعادل يوان وربع). وقد كان العريس في الماضي يهدي عروسه خاتما ذهبيا ولكنه يهديها الآن ساعة، لأنه لا توجد محلات للمجوهرات في الصين، والمصنوعات والمشغولات الذهبية خواتم أو حلقات تباع فقط للأجانب في الأسواق الحرة، وأضاف مرافقي، وهو من يونان أصلا، إنهم في يوننان يقدمون 2 يوان فضة مهرا للعروس.

وتتم حفلات الزواج بهدوء وبغير صخب في بيوت المسلمين بمختلف أنحاء الصين، باستثناء الأطراف، مثل الشمال الغربي. حيث العرس فيها شرقي كالذي نعرفه واكثر!

وقد حضرت زفافا من هذا النوع في «تورفان» بمقاطعة سينكيانغ، كان العريس فيه إسماعيل عبد الرقيب والعروس مريم حبيب الله، والاثنان من عائلة واحدة، وقومية واحدة (و يغور) وفي «فيلق» زراعي واحد.

كان ذلك يوم أحد، وفرصة العطلة دفعت بالناس إلى الشوارع وملأت بهم الأسواق، حتى الذين في القرى، جاءوا في قوافل بالعربات التي تجرها

الحمير والخيول أحيانا. كل أسرة فوق عربة، الجدات وضعن خمارا أبيض غطى الرأس والكتفين، والأمهات عصبن رءوسهن بمناديل ملونة، والفتيات عقدن المنديل الملون في آخر ضفيرة الشعر، وكبار السن كلهم ملتحون، ولا أثر للبدلة الصينية الزرقاء.

ولم يكن الأحد يوم عطلة فقط، ولكنه وافق فترة انتهاء موسم المشمش الذي جاء بمحصول جيد، منافسا محصول العنب والتفاح الغنيين في تورفان، وربما كان ذلك سببا في تعدد حفلات العرس في ذلك اليوم.

موسيقى الويغور كانت تتردد أصداؤها القوية في سماء القرية، العازفون وقفوا أمام البيت، «الطبالات» وضعت فوق مقطورة معارة من الكوميونة، وبقية الآلات المحلية تناثر حاملوها ما بين المقطورة وأرضية الشارع. وناس الحي اجتمعوا، يتنافسون في الرقص على الأنغام. رجال وعجائز وشبان وفتيات صغيرات، جميعا تناوبوا الرقص في الحلبة التي يكسوها التراب. دامت رقصاتهم طوال اليوم، من الصباح حتى دخل الليل، في بيت العريس، وحتى الظهر في بيت العروس، أي حتى حان موعد رحيلها إلى بيت زوجها.

البيت كان مكدسا بالبشر، النساء في جانب والرجال في جانب. مع الرجال جلسنا، حيث قدم فنجان شاي إلى الإمام حاجي أمين بن إسلام، اكبر الشيوخ سنا في البلدة، رشف الرجل منه رشفة ثم دار الفنجان على الجميع، كل واحد اخذ رشفة، تيمنا وتبركا، كيف؟ لا يهم، فبهذا تقضى التقاليد.

قال الإمام موعظته، وانشد، ورفع كفيه بالدعاء. ثم ألقى خطبة النكاح، وناب الأبوان عن العروسين اللذين احتجبا حياء وخجلا. وجاءت أطباق الأرز واللحم، حيث وضعت أمامنا ونحن جلوس فوق «الفرن»، سرير الأسرة المبني بالطوب والذي يجنب النائمين شتاء برد المنطقة القارس. في الختام وضع الأب «فوطة» أو منشفة صغيرة بحجم المنديل أمام كل واحد من قراء القرآن، الذين زاد عددهم على عشرة ودس في كل فوطة «يوان»، أجرا لهم، وهو ما يشجعه القدامى (السلفيون) و يرفضه المحدثون. غادرتهم والرقص لم يتوقف أمام المنزل، بينما أصوات المغنيات بالتركية تتردد رخيمة حلوة، لا يفسد وقعها سوى دقات الطبول، القريبة من طبول الحرب، لان الرقص الشعبي عند الأتراك هو في الأساس نوع من القتال الناعم!



سيدات الأسرة والحي يهنئن أم العروس. ملامحهن لا تختلف بأي حال عن أي مجتمع شرقي مما نعرفه.



الرجال يقرءون الفاتحة بعد خطبة النكاح، ليبارك الله في الزواج و يطيل عمر العروسين.



في عرس سينيكانغ، غناء الأطفال عنصر هام وممتع.

وعندما ينصرف الإمام، فان ذلك إيذان بانصراف المدعوين، وإشارة إلى الأهل والأصدقاء القريبين جدا بان يرفعوا التكليف، ويرقصوا ويغنوا بغير حرج.

وكما هو «نجم» حفل الزواج، فان الإمام يظل نجما في الوفاة أيضا! الغسل يتم تحت إشرافه، و يتولاه خادم المسجد، الذي يأخذ بعضا من ملابس المتوفي كجزء من أجرته. وفي الجنوب توضع على رأس الميت عمامة بيضاء كتب عليها «لا اله إلا الله» وفي الشمال تكتب العبارة على قبره. ويعطر الكفن بماء الورد في الأغلب، ثم يوضع في نعش مصنوع من خشب الجوز أو الزنك المطلي باللون الأصفر الغامق. وعندما يخرجون إلى الجنازة، فان الإمام يقف في صدارتها، وأهل الميت يعصبون رؤوسهم بطاقيات أو قطع من القماش الأبيض. ويوضع الجثمان في لحد مستطيل الشكل، ربما نثر على أرضيته المسك والعنبر. ويتم الوضع بحيث يكون الرأس متجها إلى الشمال، والقدمان إلى الجنوب، والوجه مقابل للكعبة الشريفة.

ويحتفل بذكرى الميت في اليوم الثالث لوفاته، ثم بعد أسبوع، وبعد أسبوعين، وفي الذكرى الأربعين. وتقام له الذكرى السنوية، وعندما تمر عشر سنوات يقام عزاء كبير، يتناوب فيه القراء تلاوة القرآن، وهو ما يتكرر بقدر اقل في كل من هذه المناسبات.

وذلك كله تحت إشراف الإمام، إن لم يباشر بنفسه العملية، من تلاوة وموعظة وتراتيل. وأحيانا يقرأ القرآن كله، خصوصا في ذكرى السنة العاشرة، وكثيرا ما تتلى ال 18 سورة فقط من سور القرآن في المناسبات التي تسبقها.

وفي الأعياد تتم الاحتفالات في أفنية المساجد. واحتفال مسلمي الجنوب (يوننان) بعيد الفطر أكبر من احتفالهم بالأضحى، على عكس مسلمي الشمال، الذين يهتمون أكثر باحتفالات عيد الأضحى. وفي الحالتين يكون الاحتفال بالغناء والرقص ثم الولائم.

والتقليد في الشمال أن كل سبعة من الرجال والنساء يذبحون بقرة، وكل بالغ يذبح ماعزا، يسمونها «قربة». وذبح الأبقار والماعز يتم في فناء المسجد، بعيدا عن مكان الصلاة.

ويحتفل بعيد الفطر ليوم واحد، أما في عيد الأضحى فيحتفلون لمدة

ثلاثة أيام (العطلة الرسمية يوم واحد) وابتهالاتهم لا تتوقف في ذكرى الإسراء والمعراج، أما في ليلة القدر فانهم لا ينامون الليل.

وفي الجنوب يذبحون الأبقار في المساجد عندما تحل ذكرى المولد النبوي، وفي المساء يجلسون في حلقات وينشدون:

اشــــرق الـــبــــدر عــــلـــــيــــنـــــا
فــــاخــــتــــفــــت مــــنـــــه الـــــبــــدور
مــــثـــــل حــــســــنــــك مـــــا رأيــــنـــــا
قـــــط يــــــا وجــــــه الـــــســــــرور

وبينما اثنان من الحاضرين ينشدان مثل هذه الأبيات، فان الآخرين يرددون: يا نبي، سلام عليك-يا رسول، سلام عليك-يا حبيب، سلام عليك.

ومن الأناشيد المتداولة أيضا في مديح النبي (صلى الله عليه وسلم):

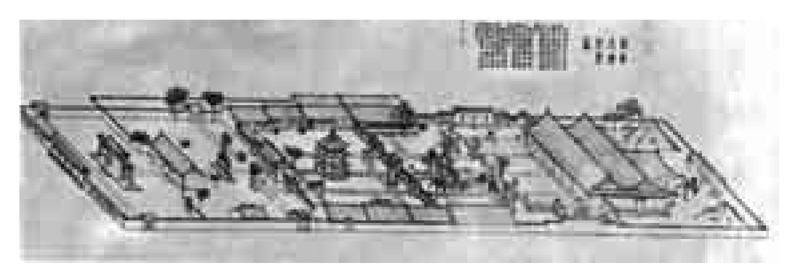
أنـــــت شــــمـــــس أنــــــت بـــــدر
أنـــــــت نــــــور فـــــــوق نـــــــور
أنـــــت إكــــســــيــــــر وغـــــــال
أنــــت مــــصــــبـــــاح الــــصـــــدور

وهي أناشيد منتشرة في اكثر مناطق المسلمين، ولكن كل منطقة ترددها بلحن مختلف، وعندما سمعت الشيخ محمد يونس إمام مسجد شيآن ينشد هذه الأبيات، رأيت أن طريقة اللحن والأداء كانت مطابقة تماما لطريقة لحن وأداء القصائد المعروفة عند الشيعة في «الحسينيات».

بلاد عشرة الآلاف مسجد

ويوم الجمعة هو يوم الإمام بغير منازع، وان كان الأمر يتوقف على موقع المسجد ومرتبته، أي ما إذا كان المسجد في إحدى مناطق الكثافة السكانية الإسلامية، أو في أحد أحياء المسلمين بالمدن فقط. ثم ما إذا كان «المسجد الجامع» أي الرئيسي، أو مسجدا عاديا. هذه كلها اعتبارات تؤثر في حجم «جمهور» المسجد، وجمهور الإمام بالتالي.

وليس هناك إحصاء معلن لعدد المساجد، وان كان مسئولو الجمعية الإسلامية في بكين يقدرون عددها في الصين بعشرة آلاف مسجد، بينها 4، آلاف في مقاطعة سينكيانغ وحدها.



مسجد مصمم على الطراز المعماري في بلدة شيآن غرب الصين، يسمونه «تشينغ تشن داسي» أو «بيت الله العظيم»المئذنة قائمة في الوسط، وسكن الإمام والمؤذن في جانب، وقاعات للتعليم والدراسة في الجانب المقابل، أما المكان المخصص للصلاة ففي الطرف الأيمن ويرى خلفه تلاّن ترابيان أقيما على هذا النحو خصيصاً لاستخدامهما في رؤية هلال رمضان.

وليس في هذه الأرقام-على كبرها-أية مبالغة فيما يبدو. فقد نشرت مجلة «بناء الصين» الرسمية في عددها رقم واحد لسنة 80 أنه- في الفترة ما بين 78 و 80-أعيد فتح 1900 مسجد في مقاطعة سينكيانغ، من جملة المساجد التي أغلقت أثناء الثورة الثقافية. وأن السياسة المتبعة تقضي بفتح المساجد بالتدريج. خصوصا وأن بعضها هدم أثناء الثورة الثقافية، وترميمه يحتاج إلى وقت ليس قصيرا.

وخلال زيارتي لشيآن، فقد كان ظهور الشيخ محمد يونس أمام المدينة معي يعني على الفور أنني لن أدرك موعدا، ولن أنجز شيئاً، لكثرة ما يستوقفه الناس للسؤال والتحية، ولكثرة ما كان هو يستوقف الناس لبث الأشواق وتطييب الخاطر!

وهو في الحياة العادية يرتدي البدلة الزرقاء، وطاقية بيضاء. إذ لا يزال شيئا معيبا في الشمال والغرب أن يكون الرجل مسلما ولا يغطي رأسه بطاقية بيضاء، وإن اضطر إلى لبس القبعة الصينية التقليدية فلتكن فوق الطاقية. لكن الإمام يضيف يوم الجمعة عباءة بيضاء فوق القميص، وعمامة بيضاء فوق رأسه. وفي حجرة مكتبه اللصيقة بالمسجد عدد من العمائم المعلقة، يستخدمها هو وزميله الذي يؤم المصلين، إذ أنه يلقي الخطبة فقط.

وكان يوما مشهودا، ذلك الذي صلينا فيه الجمعة وراءه في مسجد المدينة الشهير، تشينغ تشن داسي، جان داسي، ومعناها «بيت الله العظيم». كان المسجد مفاجأة، وكان حجم المصلين مفاجأة ثانية وكانت الصلاة ذاتها مفاجأة ثالثة، وكان الإمام شخصيا مفاجأة رابعة!



إمام مسجد شيآن الشيخ محمد يونس يقف أمام أحد مداخل المسجد، وقد حفرت على الواجهة. «المساجد بيوت المتقين».

فالمسجد مصمم على الطراز الصيني، وعمره اكثر من 12 قرنا، ومنشآته موزعة على مساحة 13 ألف متر مربع، وقاعاته يبلغ عددها 60. وهو ليس مكانا للصلاة فقط، ولكنه مصمم بحيث يؤدي عدة وظائف عبادية وثقافية واجتماعية في آن واحد. وللمسجد قاعة للصلاة ومئذنة وقبة و«سبيل» يروي عطش العابرين، ولكن ذلك كله موضوع في تصميم صيني صرف، وموزع في أبنية متتابعة، بحيث لا يمكن أن تعرف الوظيفة الحقيقية لكل بناء إلا إذا نبه زائره إلى هذه الوظيفة. والغريب أن توزيع أبنية المسجد يمكن القادم وهو واقف على عتبته الخارجية من أن يرى المحراب من على بعد ألف متر، وأن يظل متجهاً نحو القبلة وهو في طريقه إلى قاعة الصلاة، بحيث يسلك بابا من وراء باب وقوسا من وراء قوس ليجد نفسه في النهاية واقفا أمام المحراب، ومضبوطا على الكعبة.

وعلى واجهات المباني المؤدية إلى قاعة الصلاة نقشت آيات من القرآن الكريم، ولفظ الجلالة باللغة الصينية. وكل مبنى من هذه المباني يعد تحفة معمارية بحد ذاته، أما قاعة الصلاة من الداخل فان جدرانها المغطاة بالخشب الذي حفرت عليه آيات من كتاب الله، والنقوش البديعة التي تكسو السقف، والأعمدة المرمرية التي حفرت على جنباتها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، هذه العناصر تضفي على المكان جمالا أخاذا، وهيبة لا مثيل لها.

وعلى جانبي فناء المسجد رصت حجرات عديدة، تضم بيت الإمام ومكتبه، وقاعات كبيرة مليئة بالأثاث الصيني الفاخر (واضح أنها كانت فصولا للدراسة في الماضي) ثم متجرا لبيع العاديات (!). وفي ركن جانبي حمام يقصده المسلمون يوم الجمعة، حيث يغتسلون بالماء الساخن. و يتعطرون، ويتوجهون إلى الصلاة.

والطريف أنه قد أقيم خلف قاعدة الصلاة تل ترابي مرتفع، تكسوه الحشائش الخضراء. وقد خصص في التصميم الأصلي ليصعد فوقه الإمام أو من يمثله لرؤية هلال الشهر العربي، خاصة في شهر رمضان.

وهم يعتبرون المسجد من الآثار التاريخية التي يقصدها السياح، عندما يتفقدون معالم المدينة التي كانت في الماضي آخر نقطة في طريق الحرير، جسر الاتصال وشريان التجارة التاريخي بين الشرق والغرب. والمفاجأة في حجم المصلين، كانت في العدد والنوعية.



صلاة الجمعة في مسجد شيآن وقد غطى الجميع رءوسهم بأغطية بيضاء يبتاعها المصلون على باب المسجد إذا لم يكونوا قد حملوها معهم.

كان المسجد مكتظا بصورة غير متوقعة، ولم تكن هناك مناسبة غير عادية تدفع إلى المسجد بهذا العدد الكبير نسبيا-الذي تجاوز 1500 شخص- وقد قيل لي أن ذلك أمر عادي يحدث كل يوم جمعة في هذه المدينة. وهو ما اعتبرته أمرا غير عادي بالقياس إلى ما رأيته في مساجد مدن أخرى، كانتون مثلا، إذ لم يزد عدد المصلين يوم الجمعة على مائة شخص.

وعلى أهمية الحجم ودلالته، فإن الأهم من ذلك هو أن اكثر المصلين كانوا من الشبان. وقد كانت هذه هي المفاجأة الحقيقية في الواقع، لأن الذين رأيتهم في اكثر المساجد طوال الجولة كانوا من الشيوخ ذوي اللحى البيضاء. الذين قدموا إلى الصلاة مستندين إلى عكازات من الخشب والأحفاد، بينما أصداء سعالهم تتردد بغير انقطاع طول الوقت.

سألت عن سر هذا الإقبال الملحوظ على صلاة الجمعة فقال لي اكثر من واحد أنها «ظاهرة» تلفت الأنظار حقا، ولا تفسير لها إلا أنها تعكس نوعا من رد الفعل الذي طفا على السطح بعد كبت سنوات الثورة الثقافية، و«سحق» عصابة الأربعة.

أليس مدهشا أن يفرز المناخ السائد، برغم كل عمليات التطويق وسد المنافذ والتجهيل هذا الحشد من الشباب الغض، وأكثرهم لا يعلم عن دينه شيئا، ولا يفقه كلمة من الأدعية والآيات التي يرددها الإمام. فقط بذهب الواحد منهم كل يوم جمعة إلى المسجد، مغتسلا، ومتسلحا بالإيمان وحده، وبطاقية بيضاء على رأسه، وقطعة قماش طرزت عليها صورة الكعبة تحت إبطه، ليستخدمها سجادة صلاة إذا ضاق المكان، ثم يقف صامتا في خشوع مطلق بين يدي الله، ليعود إلى بيته بعد ذلك مرتاح الضمير، مطمئنا إلى أنه «أدى فريضة الله».

أليست صلاة هؤلاء الشبان الصامتين أفضل من صلاة آخرين، من الحافظين والمتكلمين. على الأقل لأنهم يضعون قلوبهم بين يدي الله لحظة الصلاة، أما الآخرون فانهم يخاطبون الله بطرف ألسنتهم؟!

أما مفاجأة صلاه الجمعة فلا تقل غرابة!

لقد لاحظت أنهم يصلون 12 ركعة، منذ دخولهم المسجد لصلاة الجمعة حتى لحظة خروجهم 4 ركعات سنة عند الدخول، ثم ركعتان للجمعة، إلى هنا والأمر مقبول ومفهوم. لكنهم بعد صلاة الجمعة يصلون 4 ركعات أخرى تعقبها ركعتان!

سألت أمام المسجد، لماذا الركعات الأربع بعد الجمعة، ولماذا الركعتان اللتان بعدها؟

رد قائلا: هذه صلاة الظهر. وتلك سنة الظهر.

قلت: كيف يمكن أن تؤدوا صلاة الظهر بعد الجمعة، أليست الجمعة في مقام الظهر؟

قال: ذلك تقليد قديم، فالمسلمون في الصين يصلون الظهر بعد صلاة الجمعة، لأن هناك شكا في بطلان الجمعة، وأخذاً بالأحوط فانهم لجئوا إلى هذا الحل.

قلت: ومن أين جاء الشك في بطلان صلاة الجمعة؟

قال: لأننا لسنا في ديار الإسلام، وليس هناك إمام للمسلمين، ولهذين السببين فان فقهاءنا القدامى لم يطمئنوا إلى سلامة صلاة الجمعة، وجاء اجتهادهم كل الأشكال على هذا النحو. إذا كانت الجمعة صالحة، فقد كسبنا ثواب الجمعة والظهر، وإذا كانت باطلة، فقد نجونا من إثم ضياع

الفرض!

ومفاجأة الإمام ذاته كانت أخف وطأة.

فبعد أن دخل الشيخ محمد يونس حجرة مكتبه خرج شخصا آخر بالعباءة والعمامة البيضاء التي يتدلى طرفها على ظهره، اعتلى المنبر، وظل يتلو مجموعة من الأناشيد والأدعية والآيات القرآنية، بصورة مثيرة للدهشة. فهو حينا يقول كلاما بالعربية، وحينا يقوله بالفارسية، ثم ينتقل إلى الصينية. ومرة يلحّن كما لو كان يقدم مقطوعة غنائية ومرة يتكلم بوقار وجدية، وأحيانا يرفع صوته مجلجلا ومدويا، ثم ينتقل إلى حالة أخرى فيتكلم بصوت هامس وخفيض.. كأنه مجموعة من المنشدين يقدمون فقرات مختلفة، كل واحدة بأداء مختلف ولحن مميز.

وفي جميع حالاته، فان وجهه ظل ثابتا كالصخر، لا تتحرك فيه عضلة، ولا يهتز له جفن!

لم أفهم إلا القليل مما قاله بالعربية، ولكني التقطت كلمات مبعثرة، أتاحت لي فقط أن أميز بين المدائح النبوية والقرآن الكريم. ورغم ثقتي في أن الجالسين لم يكونوا أكثر مني معرفة بما يقال، فانهم كانوا في حالة تجاوب شديد معه، بقلوبهم لا بعقولهم ووعيهم.

لكن هذا كله يشكل بعض اوجه الواقع الإسلامي في مناطق التجمعات السكانية الكبيرة الموجودة في الأطراف الشمالية الغربية والجنوبية، وهي مناطق يعيش فيها تقريبا نصف مسلمي الصين. أما النصف الآخر من هؤلاء المسلمين المنتشرين في وسط الصين بالدرجة الأولى فانهم يفهمون الإسلام بصورة أخرى شديدة الاختلاف والتمييز.

ولذلك قصة تروى!

أيها الخنزير: شكرا!

ما من مسؤول لقيته في بكين وشنغهاي، وناقشته في موضوع المسلمين إلا وحاول، بعد سب عصابة الأربعة، أن يدلل على التزام الحزب والدولة بسياسة حرية الاعتقاد، بثلاثة أشياء: إن المساجد يعاد فتحها تدريجيا، وان المطاعم الإسلامية منتشرة في كل مكان، وان تقاليد تشييع موتى المسلمين ودفنهم تؤخذ بعين الاعتبار.

وكنت مستعدا لفهم أهمية موضوع المساجد، وموضوع دفن الموتى في بلد اضطر لأن يحرق موتاه، بعدما ضاقت الأرض بالأحياء ولم يعد للأموات فيها مكان. لكن الذي ظل مستعصيا على فهمي في البداية هو مسألة المطاعم الإسلامية.

ولاحظت أن برنامج زيارتي للمدن الثلاثة الأساسية-بكين وشنغهاي وكانتون-تضمن فقرة ثابتة هي: عشاء في مطعم إسلامي. وأضيفت إلى البرنامج في شنغهاي زيارة مصنع للحلويات الإسلامية. وكانت هذه هي المرة الأولى التي اسمع فيها عن حلويات إسلامية وأخرى غير إسلامية، على اعتبار أن المأكولات مسألة تتحكم فيها الأذواق والطبائع والتقاليد. وانه إذا كانت هناك محرمات أشارت إليها الكتب السماوية-القرآن تحديدا- فهي استثناءات لها حكمتها ولا تتجاوز في عددها أصابع اليد الواحدة، ولا تشكل قاعدة تسمح بقيام مطعم إسلامي أو مصنع حلويات إسلامية.

وبمنطق أن الإسلام يخاطب القلب والعقل قبل المعدة والبطن، ظللت رافضا فكرة الربط بينه وبين المطاعم والحلويات، حتى تبين لي أن للمسألة أبعادا عميقة، ودلالات بالغة الأهمية.

ذلك أن قضية الطعام تشكل منذ قرون عديدة إحدى عناصر الخلاف بين المسلمين وبين غيرهم من الصينيين. فهناك تحريم في القرآن لأنواع من الأطعمة، في غير حالة الضرورة، منها: الميتة والدم ولحم الخنزير (سورة النحل الآية 115 وتفصيلها في سورة المائدة الآية 3). والمسلمون شديدو التمسك بالامتناع عن هذه الأطعمة.

أما الصينيون من قومية الهان ذات الأغلبية الساحقة (900 مليون) فانهم-ربما لاعتبارات تتعلق بأنهم يعيشون في حالة طوارئ دائمة بسبب العدد- فلا يمتنعون عن أكل أي شيء، في البر والبحر والجو، من الأبقار والأغنام إلى الحمير والكلاب، والخيول، إلى القطط والحيات.

حتى أن المدن الصينية ربما كانت الوحيدة في العالم التي تخلو شوارعها من القطط والكلاب.

وليس ذلك أمرا جديدا، فقد لاحظ عليهم ذلك سليمان التاجر قبل 12 قرنا، وسجله أيضا ابن بطوطة في قوله: وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب، وربما اعتبرها من «المناكير الكثيرة» التي كدرت خاطره أثناء

زيارته لتلك البلاد.

وبسبب هذا الخلاف الحاد، كانت تحدث مشاحنات كثيرة بين المسلمين الهويين وبين المنتمين إلى قومية الهان، وقد كانت إحدى صور التضييق على المسلمين في عهد المانشو، إن قرارا صدر بمنع ذبح الأبقار والأغنام، حتى يضطروا إلى أكل أطعمة الهان التي يعافونها، إمعانا في إذلالهم وإهانتهم.

وكان طبيعيا أن يستقل المسلمون بذبائحهم ومطاعمهم، حتى اشتهر المسلمون بأنهم يشتغلون بالجزارة وصناعة الأطعمة، وبات من المقولات التي يسخر بها الآخرون من المسلمين الصينيين ترديدهم «إن المسلم لا يملك إلا سكينين، واحدة لذبح الأبقار، وأخرى لتقطيع الحلوى»!

وارتبطت هذه الصفات بالمسلمين، حتى صار الحي الذي يسكنون فيه بالعاصمة بكين يعرف باسم حي «السلخانة» بينما الشارع الرئيسي في الحي الذي يقع فيه مقر الجمعية الإسلامية الصينية يطلق عليه رسميا «شارع البقر»!

وتأصل هذا الموقف في أعماق مجتمع المسلمين، حتى أصبحت قضية الطعام-ولحم الخنزير بوجه أخص-نقطة خلاف أساسية جوهرية بينهم وبين الآخرين.

وبسبب غيبة الفهم الصحيح للإسلام، وبسبب عملية التجهيل المتصلة، فقد تبلور إيمان المسلم وتعبيره عن هذا الإيمان في مسألة الامتناع عن أكل لحم الخنزير، بالدرجة الأولى. ونما هذا الفهم بمضي الوقت، حتى أصبح المسلمون مستعدين لقبول أي شيء من المسلم، إلا أن يأكل لحم الخنزير.

وبات «الخنزير» هو الحد الفاصل بين الإيمان والكفر، في مناطق وسط وجنوب الصين!

فآكل الخنزير «كافر» يسبه المسلمون ويهينونه، ويرفضون تزويجه من بناتهم. وإذا امتنع عن أكله، وفعل أي شيء آخر فهو «عاص» فقط!

والمطاعم الإسلامية يقدم أكثرها البيرة والويسكي والشمبانيا، لكنها تمتنع عن أكل ذلك الطبق الملعون: الخنزير!

المدهش في الأمر، أنه بسبب الحنزير، حافظ المسلمون من قومية هوى على أنفسهم، ولم يذوبوا في الآخرين!

وهي مفارقة غريبة أن يسهم الخنزير-الذي لا يطيق المسلمون سماع

اسمه، حتى طلب قائد الجيش الأحمر من جنوده أثناء مسيرة ماو الكبرى الامتناع عن نطق الكلمة أمام المسلمين احتراما لمشاعرهم-في حماية مجتمع الهويين ونقاء عرقهم!

ذلك أن المسلمين من أبناء قومية هوى يرفضون الزواج من بنات الآخرين، كما أنهم يرفضون تزويج بناتهم لشبابهم، لا لشيء إلا بسبب تعاطيهم لحم الخنزير، وحالات الزواج النادرة التي تتم لا يقبل بها الآباء إلا إذا تعهدت الزوجة أو الزوج من قومية الهان بالامتناع عن أكل الخنزير.

وإلا فالقطيعة «الأبدية» تستمر بين الأهل والابن الذي يتزوج متجاوزاً عن هذا الشرط.

وكانت نتيجة التطبيق الصارم لذلك الشرط أن أقيم من الناحية العملية جدار سميك عزل المسلمين الهويين عن غيرهم من قومية الهان عبر التاريخ، الأمر الذي حفظ الولاء المسلمين كيانهم وأنقذهم من الذوبان والغرق في بحر مئات الملايين من شعب الهان الذي يحيط بهم، والمؤهل لابتلاعهم خلال سنوات قليلة، إذا سقط ذلك الحاجز الذي يحتمون به.

لقد ساير المسلمون الهويون تقاليد شعب الهان في عمارتهم وأزيائهم وعوائدهم كلها، لكن الشيء الذي لم يفرطوا فيه وأصروا على رفضه هو امتناعهم عن لحم الخنزير.

وكما تبلور فهم هؤلاء للتعبير عن الإيمان والإسلام في هذه الحدود، فقد اعتبر الحزب والحكومة أن الاهتمام البالغ بمطاعم وحلويات المسلمين هو أحد أعمدة سياسة «حماية الحرية الدينية»، فضلا عن أن هذا التوجه يعد آمنا ومريحا من وجهة نظر أي سلطة. فإذا انتقل «النشاط» الإسلامي إلى المطاعم والحلويات فتلك حدود مقبولة ومحتملة، بل ومرغوبة أيضا!

لذلك فان كل حي أو شارع يتواجد فيه مسلمون لابد أن يتوفر مطعم إسلامي أو اكثر تثبت على واجهته لافتة مكتوب عليها بالصينية كلمتا تشينغ تشن، أي «الصفاء الحق» وحيث تكتب هذه الكلمات، دون أي إيضاحات أخرى فلابد أن تكون إشارة إلى وجود مطعم إسلامي. وبالإضافة إلى ذلك فان بعض هذه المحال تضيف كتابات بالعربية، إمعانا في الإعلان عن الالتصاق بالإسلام، مثل: الدكان الإسلامي للحلاوة والفطائر، هذا مطعم المسلم، مطعم السلق والخبز بلحم البقر والغنم للمسلم، إلى آخر مثل هذه

العبارات. حتى بلغ عدد المطاعم التي من هذا النوع حوالي 65 مطعما في بكين، و55 في شنغهاي.



لافتة مطعم إسلامي في الصين.



مطعم إسلامي في الصين.

وأيضا فان أي وحدة عمل يوجد فيها عشرة مسلمين فاكثر، يجب أن يخصص لهم مطعم خاص منفصل عن مطعم الآخرين، لا يقدم لحم الخنزير ولا يطبخ بشحمه.

ولضمان الذبح الشرعي فإن الإمام يقوم بنفسه بهذه المهمة، وفي بعض المناطق توفد الجمعية الإسلامية موظفا من قبلها يوميا إلى المسلخ، ليقرأ على كل ذبيحة عبارتي «بسم الله الرحمن الرحيم-الله أكبر»، المنصوص علهما في شعائر الذبح.

ولقد لقيت واحدا من هؤلاء في كانتون، وهو موظف في الأربعين من عمره، اسمه الإسلامي عبد الله واسمه الصيني «خومين» وهو يتقاضى راتبا شهريا قدره 50 يوان (حوالي 35 دولارا) مقابل وظيفته هذه، التي لا يمارس غيرها. يذهب إلى مسلخ المدينة كل يوم في الساعة الثامنة صباحا، ليقف أمام كل ذبيحة ويردد أثناء قطع رقبتها: «بسم الله الرحمن الرحيم، الله اكبر». وهو يقضي ساعتين في عمله هذا يوميا، ثم يعود إلى مقر الجمعية الإسلامية، ليستريح بعض الوقت من عناء مهمته، ويعود إلى منزله مرتاح الضمير!

وجبة في مطعم «هو يمين»

واشهر هذه المطاعم في بكين، هو مطعم «هويمين» أو قومية هوى، المعروف في شارع وانغفو جينغ، الشارع التجاري الرئيسي بالعاصمة، ورواده ليسوا فقط من المسلمين، ولكن يرتاده أيضا بعض الأجانب غير المسلمين، الذين لا يستسيغون فكرة تقديم لحوم الكلاب والحمير والحيات في المطاعم الصينية الأخرى، وان قبلوا أكل لحم الخنزير. ولهذا فانهم يؤثرون السلامة، و يتوجهون مباشرة إلى مطاعم المسلمين، حيث لحوم الأبقار والأغنام.

وبوجه عام، فان الإقبال على تلك المطاعم شديد، سواء من جانب المسلمين أو الأجانب، ومتوسط رواد المطعم العادي في العاصمة مثلا 300 شخص يوميا. وطباخوها المهرة يتفننون في أعداد اللحوم وتقديمها، حتى انهم يصنعون منها 100 طبق مختلف النوع والمذاق.

وكما يعرف الكثيرون منا «البط البكيني» كطبق مميز في المطعم الصيني، فان ال «شوان يانغ رو» هو أشهر طبق تقدمه المطاعم الإسلامية. وترجمته

العربية هي (لحم الغنم المغموس في الماء المغلي».

وطريقة أعداده بسيطة، فهو أولا يقدم في حجرة خاصة، تتوسطها مائدة خشبية مستديرة، يوضع فوقها موقد نحاسي ذو مدخنة ويتم تشغيله بالفحم النباتي. وفوق الموقد إناء نحاسي كبير مليء بالماء المستمر في الغليان. وحول الموقد والإناء توضع أطباق كبيرة تحتوي على شرائح من لحم الأغنام الصغيرة (الحملان).

وتتناثر على المائدة أطباق الصلصة، التي هي خليط من سبعة عناصر: صلصة الصويا، وصلصة الطماطم بزيت الفلفل الأسود، والطحينة، والثوم المفروم، ومرق الأرز، وعجينة السمك، والخل. كما توزع بين أطباق الصلصة الصغيرة هذه أطباق كبيرة أخرى تحوي على فطائر صغيرة محشوة باللحم، وشرائح البصل والبقدونس، والملفوف الصيني (الكرنب).

بالعصى الصينية أو أعواد الأكل الشهيرة «كوايتسي» يلتقط الجالسون شرائح اللحم النيئ، ثم يغمسونها في الماء المغلي، وفي ثوان ينضج اللحم، فيخرجها الواحد، ليغمسها مرة أخرى في الصلصة ويلتهمها، وتتكرر العملية حتى تفرغ أطباق اللحم النيئ، أو يعجز الآكلون عن تناول المزيد من هذه الوجبة الشهية والممتعة.

والشرطان الوحيدان المطلوبان لهذه الوجبة، أن يتوفر لحم جيد من الغنم، يسهل نضجه فور غمسه في الماء، وطباخ جيد يستطيع أن يقطع شرائح اللحم برقة كافية، تيسر عملية إنضاجها بسرعة.

وفي الصين يأتي أفضل لحم للأغنام من مراعي منغوليا الداخلية، التي تعد من أشهر المراعي في العالم. أما أشهر طباخي مطعم «هويمين» المتخصصون في تقطيع شرائح الغنم فهو رئيس الطباخين وانغ تسنغ فو (62 سنة) الذي يجمد اللحم أولا، ثم يعمل سكينه الرفيع والحاد فيه، لتخرج شرائحه في رقة ورق السجائر.

أما عدد أنواع أطباق اللحوم والأسماك والدجاج التي يقدمها هويمين يوميا فيتجاوز مائتين، وعن طوابير رواده حدث ولا حرج!

وكما يشتهر مطعم «هويمين» في بكين، فإن «الدكان الإسلامي للحلاوة والفطائر» يحظى بنفس الشهرة في شنغهاي وضواحيها منذ ثلاثين عاما، وذاعت هذه الشهرة حتى وصلت إلى باكستان، التي يصدر إليها بعض

الحلويات التي ينتجها.

وقد قالوا لي إن الدكان سمى إسلاميا لأنه يستخدم زيت الذرة في الحلوى، ولا يسمح باستخدام شحم الخنزير، كما أنه يصنع الحلويات التقليدية التي يستسيغها أبناء قومية هوى. بينما متوسط عدد رواده في اليوم يصل إلى ألفي شخص، وفي المناسبات-الأعياد مثلا-لا تهدأ حركة سيارات المطعم، لكثرة ما تنقل من حلوى إلى البيوت والمساجد، في صناديق خاصة باسم «الدكان الإسلامي».

وقد لفت نظري أن نصف عمال المتجر (41) من غير المسلمين، ونفس الملاحظة تنطبق على مصنع الحلويات الإسلامية بالمدينة، الذي يديره مسئول من قومية الهان اللادينيين-اسمه هو-ومن بين عماله الـ 700 يوجد 60 مسلما فقط. لكن هذه ملاحظة ليست ذات بال، لأن المسألة لا صلة لها بالاعتقاد. إذ يكفي أن لا يستخدم المصنع الخنزير لترفع عليه راية الإسلام، ولتروج بضاعته حتى ينتج 8 آلاف طن حلويات وألفي طن بسكويت سنويا. و يصدر بعض إنتاجه إلى باكستان وتنزانيا.

وبسبب قضية الطعام الإسلامي فقد كانت تواجهنا مشكلة دائمة في كل فندق ننزل فيه. ذلك أنه من اليسير أن يذهب المسلم إلى مطعم إسلامي، أو يحل المشكلة من أساسها لينزل في «فندق إسلامي»، كالذي يبنونه لأول مرة في شنغهاي، وهي الفكرة التي نشأت في ظل مناخ مجاملة المسلمين، مواطنين وضيوفا. لكن المشكلة تنشأ عندما يكون مطعم الفندق يقدم الأكل المعتاد للجميع-وهم يقدمون لحم الخنزير فقط للأجانب واللحوم الأخرى تقدم بالطلب-ثم يجئ نزيل واحد أو اثنان و يطلبان أكلا بغير لحم أو شحم خنزير. لكنهم يمتثلون بالأدب الصيني المعهود، و يبتسمون تهوينا من حجم المشكلة، ثم تصدر تعليمات مشددة إلى الطباخين في الداخل والعاملين في صالة الطعام بالحذر والاحتياط في تقديم أنواع الطعام واستخدام لحم الخنزير شحومه. وتعليمات كهذه تنتشر في الفندق كله، من مديره إلى الواقف على الباب الخارجي-. وتعميمها لا يحتاج إلى تعليمات، فالصينيون أشد الناس فضولا، ومن أسرع أهل الأرض تسريبا لمثل هذه المعلومات الشخصية.

في فندق العاصمة خصصوا لنا مائدة في ركن جانبي، وحذرونا من أن

تبديلها سيوقعنا في المحظور، لأن التعليمات صدرت للعاملين بتقديم طعام إسلامي للجالسين على هذه المائدة دون غيرها.

وفي شيآن اختاروا لنا حجرة معزولة، بعيدة عن المطعم، ووضعوا لنا مائدة فيها، وزيادة في الاحتياط، فقد عزلنا داخل الحجرة ذاتها، بستارة معلقة على قائم خشبي، رغم أن الحجرة على كبرها كانت خالية تماما.

وفي شنغهاي لم يكتفوا بالحجرة المعزولة والفاصل الخشبي، ولكنهم أضافوا شيئا ثالثا. وضعوا على مائدتنا لافتة صغيرة من الصفيح مثلثة على قاعدة مصبوبة من الألومنيوم وقد كتب عليها بالحروف الصينية واللاتينية: مسلم!

تقودنا هذه الصورة إلى تقرير حقيقتين، سنقف على أهميتهما بعد قليل:

● الحقيقة الأولى أن الإسلام قد تشكل في سمته الغالبة سواء عند مسلمي الأطراف أو الوسط حتى أصبح مجموعة من العادات والتقاليد، أو قل إنه تقلص نتيجة لأسباب كثيرة حتى أصبح محصورا أو محاصرا في هذا الإطار الضيق.

● الحقيقة الثانية أن الإسلام بين مسلمي قومية هوى أصبح يتمثل في مجموعة من الرموز والمحسوسات: مسجد ومطعم ومدفن. وهو تشكيل متأثر من ناحية بفهم الناس للإسلام، الذي ظل يتدنى مرحلة بعد مرحلة، خصوصا بعدما ضاقت منافذ الفهم الصحيح حتى سدت عن آخرها

لكن ما يمكن أن نقوله أيضا في هذا الصدد أن المسلمين الهويين-الذين يعيشون وسط بحر شعب الهان-قد تأثروا برؤية هؤلاء وفلسفتهم في الحياة، ونمطهم في التفكير. ودليلنا على ذلك أن مثل هذا التشكيل للإسلام غير موجود مثلا بين مسلمي قومية ويغور الذين يعيشون في مجتمع منفصل عن شعب الهان، وفي مقاطعة سينكيانغ التي تطبق نظام الحكم الذاتي.

لكن القصة لها بعد آخر، بل أبعاد أخرى عديدة!

6 الله في الصين

في واحدة من ليالي «الإمتاع والمؤانسة» التي شهدها بلاط الوزير ابن سعدان، قبل حوالي ألف عام، سأل الوزير جليسه أبا حيان التوحيدي عن المفاضلة بين العرب والعجم، فقص أبو حيان عليه قصة حوار جرى بين جماعة وبين ابن المقفع الذي لم يخف حرجه من هذه المفاضلة، وهو الذي ينتسب بأصله الفارسي إلى أعاجم المسلمين. و يسجل أبو حيان في كتابه الشهير أنهم بعد أن تحاوروا في تلك المفاضلة، مضوا يسألونه عن أحوال العجم، باعتباره أعرف من غيره بهم. وعندما سألوه عن أهل الصين، كان جواب ابن المقفع أنهم: «أصحاب أثاث وصنعة، لا فكر لها ولا روية»! [1]

وفي تلك الفترة، القرن الخامس الهجري، كتب القاضي أبو القاسم صاعد الأندلسي مؤلفه «طبقات الأمم»، وعد فيه الصين والترك من الأمم التي لم تعن بالعلوم. وقال عن الصين أنها: «اكثر الأمم عددا، وأفخمها مملكة، وأوسعها دارا. ومساكنهم محيطة بأقصى المشارق المعمور ما بين معدل النهار إلى أقصى الأقاليم السبعة في الشمال» ثم قال إن «حظهم من المعرفة التي بزوا فيها سائر الأمم إتقان الصنائع العملية، وأحكام المهن

التصويرية. فهم أصبر الناس على مطاولة التعب في تجويد الأعمال، ومقاساة النصب في تحسين الصنائع»[2].

وفي «مروج الذهب» (جـ١) كتب المسعودي يقول تحت عنوان «حذاقة أهل الصين: إن أهل تلك البلاد من أحذق خلق الله كفا بنقش وصنعة وكل عمل، لا يتقدمهم فيه أحد من سائر الأمم[3]. وقد استخدم المسعودي نص الكلمات التي دونها أبو زيد السيرافي في القرن الثالث الهجري في رسالته التي حملت عنوان (من أخبار الصين والهند).

وقد بلغ ذلك الحذق حدا أدهش ابن بطوطة عندما زار الصين، وعاد يروي: أن أهل الصين أعظم الأمم أحكاما للصناعات وأشدهم اتقانا فيها، وذلك مشهور من حالهم، وقد وصفه الناس في تصانيفهم فاطنبوا فيه. وأما التصوير فلا يجاريهم أحد في أحكامه من الروم ولا من سواهم فان لهم فيه اقتدارا عظيما. ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك أني ما دخلت قط مدينة في مدنهم ثم عدت إليها، إلا ورأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة في الحيطان والكواغد، موضوعة في الأسواق[4].

هذه الملاحظات، التي وردت في ثنايا الكتب العربية العتيقة، لا تكشف فقط عن نظر ثاقب ولكنها تكشف أيضا عن معرفة مبكرة وجيدة بأحد أوجه الشخصية الصينية. وهي معرفة لم تتوفر في ذلك الزمن البعيد للباحثين والمفكرين الغربيين الذين لم يجدوا إشارات ذات قيمة عن بلاد الصين وأهلها فيما كتبه اليونان والرومان. حتى أن هناك من يقول بأن أول معرفة حقة بالصين نقلت إلى أوروبا من خلال ترجمة الكتابات العربية[5]. وليس ذلك مستبعدا، خصوصا وأن العرب والفرس كانوا هم واسطة الانتقال والتبادل بين الصين ودول حوض البحر الأبيض وأوروبا، منذ عصر طريق الحرير. فضلا عن أنه من الثابت أن صناعة الورق نقلت من الصين إلى أوروبا عن طريق العرب.

ولم تذهب الدراسات التي قام بها الأوروبيون في العصر الحديث حول الصين وشعبها بعيدا عن جوهر ما ذهب إليه ابن المقفع وصاعد الأندلسي والمسعودي وابن بطوطة.

ذلك أنه إذا كان محور هذه المعالجات التي صاغها الأقدمون بلغة زمانهم، أن أكثر ما يميز الصيني أنه مخلوق عملي، من أحذق خلق الله في التعامل

مع المحسوسات، وان نصيبه من المعرفة العامة محدود-وتلك ملاحظة ابن المقفع الملفتة للنظر-إذا كان هذا هو محور معالجات قدامى المسلمين فان ذلك ما تذهب إليه أيضا الكتابات الحديثة، وما تضيف إليه الكثير، سواء في تفسير هذه الملاحظات، أو في إضافة ملاحظات أخرى إليها، تزيدنا فهما لهذه الشخصية الصينية الفريدة والغامضة.

فهذا ول ديورانت يسجل في كتابه عن حضارة الصين[6]، إن كونفوشيوس، معلم الصين الأشهر، كان يعلم أتباعه فن الاستدلال، ولكن لم يكن يعلمهم إياه بطريق القواعد أو القياس المنطقي، بل بتسليط عقله القوي تسليطا دائما على آراء تلاميذه، ولهذا فانهم كانوا إذا غادروا مدرسته لا يعرفون شيئا عن المنطق، ولكن كان بوسعهم أن يفكروا تفكيرا واضحا دقيقا. ثم يضيف في موضع آخر أن الصبي الصيني «كان يخرج من المدرسة بادراك كبير وعلم قليل، جاهلا بالحقائق، ناضج العقل».

والى هذا الاتجاه أيضا يذهب الكونت كيسرلنج في كتابه الممتاز عن الصين (الفهم الخلاق). فيقول: إن «طلب الحكمة والهيام بالجمال هما قطب العقل الصيني. وفي استطاعتنا أن نعرف بلاد الصين بأنها بلاد الفلسفة والخزف، وان لم يكن هذا التعريف جامعا مانعا. فكما أن طلب الحكمة لم يكن معناه في بلاد الصين الجري وراء أخيلة ميتافيزيقية لا علاقة لها بالحياة، بل كان فلسفة إيجابية تهدف إلى ترقية الفرد والنظام الاجتماعي، كذلك لم يكن عشق الجمال إحساسا كامنا في النفس، أو هواية خيالية للأشكال الصينية التي لا صلة لها بالشئون الإنسانية، بل كان تزاوجا أرضيا وثيقا بين الجمال والمنفعة، وتعميما عمليا لترتيب موضوعات الحياة اليومية وأدواتها».

لكننا لا نستطيع أن نفهم الشخصية الصينية من مثل هذه الملاحظات، على أهميتها، ذلك أنها وان كانت ترصد بعضا من معالم تلك الشخصية المحيرة، فإنها بالإضافة إلى ذلك تظل مصنفة في إطار استخلاص النتائج وتسجيل الظواهر، وليس الغوص وراء الأسباب. فتعثر خطى الإسلام في الصين-موضوعنا-لم يتأثر فقط بالعوائق والملابسات التي واجهت مسيرته طوال العهود المختلفة، ولكن ثمة عقبة رئيسية في التركيبة النفسية الصينية، تتمثل في موقفها من كل ما يتجاوز عالم المحسوسات، قضية الغيب أساسا،

وفي علاقتها بالسماء، ومدى استيعابها لفكرة وجود الله سبحانه وتعالى، والدين والأنبياء، والجنة والنار.

فالقضية-في حقيقة الأمر-تتجاوز الموقف من الإسلام إلى مدى أبعد يطول مسألة الغيب وعالم ما وراء الطبيعة في الأساس. وهي بذلك تصبح أكثر تعقيدا، وأحوج إلى محاولة استجلاء غوامض تلك الشخصية الصينية، والعناصر المختلفة التي أسهمت في تشكيلها على هذا النحو المحير.

دور لجغرافية الزمان والمكان

لقد لعبت الجغرافيا دورا بالغ الأهمية في تكوين الشخصية الصينية. وما أعنيه ليس فقط الموقع والتضاريس، أي جغرافية المكان وحده، ولكنني أقصد أيضا التاريخ والتركيبة السكانية، التي هي في حقيقة الأمر جغرافية الزمان. حتى إن تعبير «الإنسان ابن بيئته» لا يصدق أكثر ما يصدق إلا على الناس في الصين. ذلك أن هذه الجغرافية المكانية والزمانية قد أسهمت بقدر هائل في تشكيل الإنسان الصيني، الذي مر بنا كيف أنه بات شديد الالتصاق ببلاده وتقاليده، سواء كان داخل الصين ذاتها أو في أي طرف من أطراف المعمورة.

لقد لعبت الصين الموقع دورها في تفرد الصينيين وعزلتهم وتوجسهم من كل ما هو أجنبي بشرا كان أم فكرا. كما لعبت الصين الكتلة البشرية دورا آخر بنفس القيمة في تكوين البناء الذهني والنفسي لأجيالهم المتعاقبة.

وأنت في كل بلد تستطيع أن ترى بصمات واضحة لعمليات التفاعل الحضاري، والتأثير والتأثر بالآخرين، والرياح القادمة من الجهات الأربع، لكن الصين وحدها-وبإرادتها-تستثنى من هذه القاعدة. فليس فيها إلا كل ما هو صيني، في واقع الناس وفي أعماقهم. وشعار «لا دين غريب في الصين» الذي ظل بمثابة راية ترفرف على الصين منذ قرون، ليس إلا أحد ترجمات «عقيدة» الصينيين الراسخة التي تصر على أنه لا شيء-على الإطلاق-غريب في الصين.

وسور الصين العظيم، الذي شيد قبل اكثر من ألفي عام لصد غارات البرابرة الأجانب، صار رمزا مستقرا في أعماق الجميع لصد هجمات أولئك البرابرة الأجانب، مهما كان شكلها أو موضوعها.

إن الصين التي تتمدد في سكون عند أقصى أطراف القارة الآسيوية، حتى تبدو كما لو كانت قد أدارت ظهرها للعالم وانفصلت عنه بالصحاري والهضاب والجبال الهائلة على اليابس، وبالمحيط الأعظم من ناحية البحر، قد راهنت منذ الأزل على أن تؤدي دور قلب العالم وخليته الحية المتميزة.

وقبل أن تصبح «الصين»، نسبة إلى أسرة «تسين» الإمبراطورية التي حكمت البلاد فيما قبل الميلاد، فان الصينيين-يذكر ديورانت (ص 12) كانوا يسمون بلادهم تيان-هوا (تحت السماء) أو زهاي (بين البحار الأربعة) أو جونغ جوو (الدولة الوسطى) أو جونغ-هوا-جوو (الدولة الوسطى الزاهرة)، أو الاسم الذي سماها به الدكتور صن يات صن، جونغ-هوا-مين-قوه (دولة الشعب الوسطى الزاهرة).

وقد ظل الصينيون-يضيف ديورانت (ص 10)-حتى القرن العشرين مجمعين على أن أهل أوروبا وأمريكا برابرة همج. وكان من عادة الصينيين قبل سنة 1860 أن يترجموا لفظ «أجنبي» في وثائقهم الرسمية باللفظ المقابل لهمجي أو بربري. وكان لابد للبرابرة أن يشترطوا على الصينيين في معاهدة رسمية إصلاح هذه الترجمة. وكما وصفت السجلات الصينية الرحالة البندقي ماركو بولو، عندما قدم إلى الصين بأنه واحد من رسل الغرب الأذلاء، فقد حدث في القرن الحالي أن عاون أحد العلماء الصينيين عالما إنجليزيا بارزا هو الدكتور جيلز في ترجمة بعض مختارات من كتاب «جواهر الأدب الصيني[7]»، وبعدما تمت المهمة بعث العالم الصيني إليه بقصيدة وداع رقيقة قال فيها:

لقد أنار الأدب منذ عهد بعيد عقول أمة الأمم (لقصد الصين بطبيعة الحال)، واليوم امتد نفوذها ليهدي موظفا بربريا!

هذه العزلة أحدثت تأثيرات لا حدود لها في كل معالم الحياة الصينية. فهي لم تسهم فقط في خلق عالم صيني متميز ومتكامل، ولكنها أيضا وفرت للصين مناخا من السلامة والاستقرار الذي بلغ حد النمطية والرتابة، بل الركود، في بعض الأحيان. وهو المناخ الذي ساعد على نمو وتواصل تلك الحضارة العظمى التي عاشت في تلك البلاد. حتى قال فولتير في ذلك مبديا إعجابه ودهشته «لقد دامت هذه الإمبراطورية أربعة آلاف عام دون أن يطرأ عليها تغير يذكر في القوانين أو في العادات أو في اللغة أو حتى

في أزياء الناس».

وهو ما دفع الدكتور جمال حمدان إلى الاستشهاد في كتابه «بين أوروبا وآسيا (ص 153)»، بمقولة أن «العبقرية في التجانس السياسي، دونما انقطاعات في التاريخ من الثورات الداخلية، مالت إلى تجميد الأشكال الاجتماعية.. فنمت في الصين نوعا من حضارة أزلية مشلولة. قليل فيها ما كان يتعلم، ولاشيء منها ينسى».

والصينيون عندما يفاخرون-مثلا-بأن لديهم أكثر من 9 آلاف نوع من النباتات لا نظير لها في العالم، فانهم يقدمون دليلا آخر على المدى الذي بلغته تلك العزلة الطبيعية العارمة..

ومما له دلالته في هذا الصدد أيضا، أن مؤسسات الدولة في العصر الإمبراطوري كانت تتضمن إدارة للمستعمرات تصرف شئون الأقاليم النائية، مثل منغوليا وسينكيانغ والتبت، لكنها لم تنشئ من الأساس إدارة للشئون الخارجية [8]، لأنها لم تكن تعترف بأن في العالم دولة جديرة بأن تتعامل معها بندية-من ناحية-كما أن الدولة كانت تعيش حالة من الاكتفاء-وربما الانكفاء-لا تجد معها مبررا لإقامة أي نوع من العلاقات الرسمية مع الآخرين، من ناحية أخرى.

إن بذرة رفض كل ما هو أجنبي عند الصينيين مغروسة في الأعماق منذ تلك الصور القديمة، وإذا كان الصينيون قد اكتشفوا مؤخرا أن هذه العزلة التي اختاروها جعلت العالم يسبقهم في مجالات التصنيع والزراعة بمراحل بعيدة. الأمر الذي يحفزهم الآن إلى محاولة استجلاب تلك الخبرة الأجنبية واكتسابها تحت شعار «العصرنات» أو التحديثات الأربعة الذي رفع بعد وفاة الرئيس ماو [تحديث الزراعة والصناعة والتقنية والدفاع].. إذا كان ذلك يحدث الآن فإنه ينبغي ألا يؤخذ باعتباره عدولا عن سياسة العزلة، لأن الجهد الذي يبذل الآن يتجه في الشق الأكبر منه إلى وضع كل ما يستجلب في القالب الصيني، ذلك فضلا عن أن التعليمات الرسمية الصادرة من الحزب مازالت تمنع كافة الكوادر من إقامة علاقات شخصية مع أي من الأجانب الوافدين، اكتفاء بعلاقات العمل أو الدراسة. وقد سمعت في مدن الصين قصصا عديدة من طلاب عرب وأفارقة تروي كلها كيف كانت تنمو علاقاتهم بزملائهم الصينيين في صفوف الدراسة، ثم كيف

لاحظوا أن هذه العلاقات كانت تفتر مرة واحدة، حتى إن بعض هؤلاء الصينيين صارحوهم بأنهم تلقوا تنبيهات بوجوب حصر علاقاتهم مع الأجانب في حدود الدراسة وحدها.

إن شعار «لا شيء غريب في الصين»، لا يزال معمولا به بالكامل، ولكن أسلوب تطبيقه هو الذي يختلف بين الحين والآخر.

وهذا الرفض ليس فيه من الاستعلاء أو الادعاء شيء. فأكثر ما يتميز به الصيني هو التواضع الجم والأدب المبالغ فيه اللذان يصدران عن ثقة عظيمة بالنفس و يقين أكيد بالأصالة والتفوق الحضاري. فهذا المجتمع «كان راقيا متمدينا، حين كانت بلاد اليونان موطن البرابرة، كما انه شهد قيام بابل وأشور، وبلاد الفرس وأثينا وروما والبندقية وإسبانيا، ثم شهد سقوطها كلها. وقد يبقى بعد أن تعود بلاد البلقان التي تسمى أوروبا إلى ما كانت عليه من حالة همجية»[9]!

أما العنصر الثاني البالغ التأثر في البناء الذهني والنفسي للإنسان الصيني-بعد عنصر الموقع-فهو بغير شك التركيبة البشرية، العدد والنوع.

ذلك أن وطأة الإحساس بعبء المشكلة السكانية ظاهرة صينية منذ فجر التاريخ.

فسكان الصين في بداية القرن التاسع قبل الميلاد-تذكر الانسكلوبيديا البريطانية-كانوا حوالي 14 مليونا. وفي القرن الثالث اقترب عددهم من إلى 60 مليونا من البشر، وهو العدد الذي وصل إلى 100 مليون في القرن الثاني عشر بعد الميلاد، ووصل إلى مشارف ألف المليون في ثمانينات القرن العشرين. أي أنهم «كم» سكاني هائل، وأضخم قوة ديموجرافية في آسيا، بل في العالم أجمع، منذ قرون بعيدة. حتى يقول الدكتور جمال حمدان «إن أبرز حقيقة عن الصين هي بلا شك سكانها، أن الصين سكان قبل أن تكون أي شيء آخر، أرضا أو تاريخا أو حتى جنسا أو أيديولوجية» [10].

وفي بلاد خمسة الآلاف نهر، التي عرفت منذ فجر التاريخ ظاهرة الفيضانات والزلازل والأعاصير مع هذا التنامي الضخم في عدد السكان، كان لابد أن تطرح المشاكل الحياتية ذاتها بإلحاح على تفكير هذا المجتمع ومعايير تناوله للأشياء. ورؤيته للحاضر والمستقبل، وحتى فهمه للكون والحياة.

وفي ظل ظروف العزلة وطبيعة الاعتزال، كان لابد لهذه الملايين أن تخوض بسواعدها صراع الحياة والموت، وان يكون همها الأكبر-بل الأوحد- أن تخرج منتصرة من هذا الصراع.

لقد كانت حياة شعب الصين منذ الأزل «مشكلة» وكان قدره-بسبب ظروف العزلة وطبيعة الاعتزال أيضا-أن يواجه هذه المشكلة وحده، وبغير عون من أية قوة، أيا كان مصدرها.

كان قطبا العالم المرئي عند الصيني منذ تلك العصور السحيقة، هما الإنسان والطبيعة. حتى بات على غير استعداد أن يتقبل أو يستوعب فكرة أن تكون هناك قوى أخرى غير الإنسان أو شيء وراء الطبيعة.

يقول ول ديورانت في هذا الصدد: لم يعرف التاريخ نفسا اشد إقبالا على الدنيا من الصيني، الذي يعنى اكثر ما يعنى بان يعيش بخير في هذه الدنيا. وإذا صلى فانه لا يطلب في صلاته أن ينال نعيم الجنة، بل يطلب الخير لنفسه في هذا العالم الأرضي. وإذا لم يستجب «إلهه»، لدعائه ضد يطلق فيه لسانه بالسباب ثم يقذفه آخر الأمر في النهر [11]!

ومن أساطير الصين القديمة أن «بان كو» أول الخلائق استطاع أن يشكل الأرض حوالي عام 000ر229ر2 قبل الميلاد، بعد أن ظل يكدح في عمله ثمانية عشر ألف عام. وتجمعت أنفاسه التي كان يخرجها في أثناء عمله، فكانت رياحا وسحبا. وأضحى صوته رعدا، وصارت عروقه أنهارا، واستحال لحمه أرضا، وشعره نبتا وشجرا، وعظمه معادن، وعرقه مطرا، أما الحشرات التي كانت تعلق بجسمه فأصبحت آدميين، وتضيف الأساطير الصينية أن الملوك الأولين حكم كل منهم ثمانية عشر ألف عام، وانهم جاهدوا اشق جهاد. ليجعلوا من قمل «بان كو» خلائق متحضرين [12]!

هكذا، فان الأسطورة الصينية لم تستطع أن تذهب في الخيال إلى خارج العالم المحسوس، ولم تر حتى فيما هو خارق من الأعمال إلا ما هو في حدود عناصر الطبيعة كما عرفوها ولمسوها.

الوجه الثاني للتركيبة السكانية-بعد العدد-هو النوع. وهو قدر عجيب أن تصبح الأغلبية الساحقة من الصينيين (شعب الهان الذي يمثل 95٪ من السكان) كما لو كانت قد صبت جميعها في قالب واحد، وخرجت من «مصنع واحد»-استغفر الله-حتى انه ما من كتاب عن الصين أو متخصص

في الدراسات الصنيولوجية-يقول الدكتور جمال حمدان-إلا ويؤكد رغم كل شيء على التجانس كصفة أساسية في الوجود الصيني. ففوق كل الفروق الإقليمية التي لا تنكر شعور عام بوحدة عريضة تتجاوزها وتلطف منها. قد تتعدد اللهجات وتتباعد، ولكن اللغة المكتوبة واحدة. وكذلك العنصر والسلالات قد تتباين، غير أنها من الجنس المغولي الأصفر في النهاية.

«ومما لا شك فيه أن عزلة الصين الجغرافية وتفرد نمط الحضارة فيها بالتالي عوامل أولية في ذلك التجانس، كما أن التاريخ الألفي الطويل وراء الحضارة الصينية وجهود الأباطرة من اجل المركزية والتنميط مسئولة عن هذا التجانس والوحدة جزئيا. أضف أن ضخامة حجم الصين الساحق-سكانها وعمقها الجغرافي السحيق-جعلها كالبحر المحيط الذي تذوب فيه كل العناصر الدخيلة، وتبيد في قوة كل الضربات الخارجية. من هنا امتازت الصين بقوة امتصاص نادرة، هضمت بها كل ابتعادات أو إضافات غريبة، ومثلتها في جسمها ذي الصبغة المتميزة[13]».

حكماء لا قديسون

هذه العناصر في مجموعها، الطبيعية والسكانية، أحدثت بغير شك تأثيرات عميقة وحادة في الوجدان والتفكير الصينيين. فقد أصبح من أبرز سماته الفلسفة الصينية-يقول ديورانت بحق-إنها إيجابية وعملية. وبات من أخص خصائص المفكرين الصينيين أنهم لا يتحدثون عن القديسين، بل يتحدثون عن الحكماء. وأنهم لا يتحدثون عن الصلاح بقدر ما يتحدثون عن الحكمة. فليس الرجل المثالي في نظر الصينيين هو التقي العابد، بل هو صاحب العقل الناضج الهادئ. الذي يعيش عيشة البساطة والسكون، وان كان خليقا بان يشغل مكانا ساميا في العالم [14].. وبينما صنفت الهند-يشهد ديورانت-باعتبارها أرقى بلاد العالم في الأديان وعلم ما وراء الطبيعة، فان الصين باتت أرقاها في الفلسفة الإنسانية غير الدينية. إذ لا يكاد يوجد في الأدب الصيني كله كتاب ذو شأن في علم ما وراء الطبيعة، غير الوثيقة المعروفة باسم أي-جنج، أو كتاب التغيرات. وهو كتاب منسوب إلى أحد أباطرة الصين (ون وانغ) وقيل انه كتبه في سجنه، وانه ابتكر فيه طريقة لفلسفة وقراءة علوم ما وراء الطبيعة.

ألا يعد هذا المنطق إفرازا طبيعيا لتربة الصين، الشديدة الانعزال والانكفاء، والدائمة الصراع مع الطبيعة! والتي تلح عليها المشكلات الحياتية لملايين البشر، في أضخم تجمع إنساني عرفه التاريخ؟

وتعاليم كونفوشيوس-أبرز واشهر حكماء الصين-تجسيد حقيقي لهذا المنطق. وقيمة هذا المعلم القدير ليست في أنه بث تعاليمه تلك منذ 25 قرنا، ولكن في أن هذه التعاليم أسهمت بقدر كبير في تشكيل التفكير الصيني طوال تلك القرون. وليس أدل على عمق هذا التأثير من أن الرئيس ماو قرر-وهو يسعى إلى تحقيق الثورة الثقافية في الصين-أن يخوض معركة ضد تعاليم هذا الحكيم الصيني الذي مات قبل ألفين وخمسمائة عام.

يسجل ول ديورانت في كتابه عن حضارة الصين، إن كونفوشيوس كان يتجنب البحث فيما وراء الطبيعة [15]، ويحاول أن يصرف عقول اتباعه عن كل الأمور الغامضة أو الأمور السماوية، رغم أن ذكر «السماء» والصلاة كان يتردد على لسانه أحيانا، وأنه كان ينصح أتباعه بالا يغفلوا عن الطقوس والمراسم التقليدية في عبادة الأسلاف والقرابين القومية، ولكنه كان إذا وجه إليه سؤال في أمور الدين أجاب إجابة سلبية جعلت شرائح آرائه المحدثين يجمعون على أن يضموه إلى طائفة «اللادريين».

وعندما سأله أحد تلاميذه تزه-كونغ، مثلا: «هل لدى الأموات علم بشيء أو هل هم بغير علم؟» أبى أن يجيب جوابا صريحا. ولما سأله كي-لو، عن «خدمة الأرواح» (أرواح الموتى) أجابه «إذا كنت عاجزا عن خدمة الناس فكيف تستطيع أن تخدم أرواحهم؟». وسأله كي-لو: «هل اجرؤ على أن أسألك عن الموت؟» فأجابه: «إذا كنت لا تعرف الحياة، فكيف يتسنى لك أن تعرف شيئا عن الموت». ولما سأله فارشي عن «ماهية الحكة» قال له: «إذا حرصت على أداء واجبك نحو الناس، وبعدت كل البعد عن الكائنات الروحية مع احترامك إياها أمكن أن تسمى هذه حكمة» [16].

ويقول تلاميذه إن «الموضوعات التي لم يكن المعلم يخوض فيها هي الأشياء الغريبة غير المألوفة، وأعمال القوة، والاضطراب، والكائنات الروحية».

إن كونفوشيوس هنا يعبر أصدق تعبير عن الضمير الصيني، وعن التركيبة النفسية الصينية المستمرة إلى الآن. فقد كانت الدنيا هي شاغله، ورقي

الإنسان بالأخلاق والمعرفة هو قضيته، وكل ما عدا ذلك يجيء-إذا جاء-في المرتبة التالية من الاهتمام، فالأرض-في منطقه-قبل إلى سماء، والدنيا قبل الآخرة، والحياة قبل الموت، والقلب قبل الروح، والمعلوم قبل المجهول.

ولم تذهب الأفكار والمعتقدات التي تغلغلت في الصين بعد كونفوشيوس مذاهب تناقض كثيرا ما جاءت به تعاليمه. فالتاوية أو الداوية كانت في حقيقة الأمر طريقة للحياة تهدف إلى الحصول على السلام الشخصي على ظهر الأرض عن طريق عبادة الروح والطبيعة، وكما يقول ديورانت، فيبدو أن الصينيين لم يؤلهوا هذه الطريقة أو يتخذوها نوعا من العبادة. كما انهم لم ينظروا إليها على إنها ثمن يؤدونه في هذه الدار، ليشتروا به الحياة في الدار الآخرة.

وبعد أن سادت التاوية ألف عام، زحفت البوذية إلى الصين قادمة من الهند، بتعاليم تدعو في الابتداء إلى ما يسمى بالانعتاق الذاتي، وتنتهي إلى عبادة التقاليد والسلف، والإيمان في غبطة وبهجة بآلهة تعين البشر على أعمالهم.

أي أن الفلسفات التي تعاقبت على الصينيين وأسهمت في تشكيل بنائهم النفسي والذهني ظلت واضحة على الأرض بصفة دائمة-إذا صح التعبير-ما نبت منها في التربة الصينية نما في هذا الاتجاه، وما استجلب من الخارج، كالبوذية، انتهى به الأمر أن صب في القالب الصيني العتيد.

ومع ذلك فان الصيني العادي يبدو أنه لم يأخذ هذه الأفكار والمعتقدات مأخذ الجد، إذ لعبت همومه دائما دور الحاجز الذي يحول بينه وبين آراء الفلاسفة وطقوس تلك المعتقدات. حتى انه بمضي الوقت بات مقبولا من الناحية النظرية أن يصبح الشخص من عباد مظاهر الطبيعة، وتاويا، وبوذيا، وكونفوشيا، في آن واحد. فالصيني فيلسوف متواضع-يقول ديورانت-يعرف ألا شيء في هذا العالم محقق ومؤكد، ويقول في نفسه، لعل رجال الدين على حق، ولعل هناك جنة كما يقولون، وخير ما يفعله الإنسان أن يتقبل كل هذه العقائد، و يستأجر كثيرا من الكهنة من ديانات مختلفة ليتلوا الصلوات على قبره. ثم إن المواطن الصيني لا يعبأ كثيرا بالآلهة مادام الحظ يبتسم له، فهو يعظم أسلافه، ولكنه يترك هياكل التاوية والبوذية في رعاية الكهنة وعدد قليل من النساء!

إننا هنا أمام «حاجز نفسي»، طبيعي يحول دون تلقي الصيني لفكرة الغيب والأديان السماوية، أمام نوعية من البشر المشغولين بخبز الدنيا قبل خبز الجنة، بل مشغولون باليوم عن الغد، فما بالك بالآخرة. منكفئون على الواقع بعيون مشدودة دوما-وبالضرورة-إلى الأرض، حتى بات النظر إلى السماء ترفا لم يعرفوه في البداية، ولم يفهموه أبدا، ورضوه في النهاية!

لقد بات «كل ما يحتاجه المرء في هذه الدنيا الفانية، هو قبعة وحفنة من الأرز»، كما يقول المثل الشعبي الصيني. غطاء يؤمن له الحماية من قسوة الطبيعة، وكرة من خبز الدنيا، هذا كل ما يحتاجه الصيني. إنه يريد أن يعيش «مستورا»، فقط كما نقول، وذلك غاية ما يطمح إليه الفرد في بلد مكدس بملايين البشر منذ الأزل.

وفي مجتمع هذا حجمه، وذلك طموحه فانه يظل بحاجة إلى خبراء الدنيا، الحكماء، اكثر من حاجته إلى خبراء الآخرة، من قديسين وأولياء! وذلك منطق يتفق تماما مع منهج الفصل بين سعادة الدنيا وسعادة الآخرة، والعجز عن الربط بينهما بأي صورة.

ثم إننا أمام مجتمع ظل منغلقا على ذاته طوال أربعة آلاف سنة، وسواء كان ذلك بسبب من ظروف المكان أو الزمان، فان هذا المجتمع أقام بينه وبين الآخرين سدا هائلا، سورا عظما، أنشأ وراءه دنياه الخاصة، والتصق بهذه الدنيا حتى صارت عبادة الأسلاف والتقاليد ركنا أساسيا في معتقداته أو ما يعتبرونه «أديانا». وقد أفرز هذا الانغلاق الطويل حالة من الصد والرفض الطبيعيين لكل ما هو قادم من خارج مملكتهم الزاهرة.

وإذا كان الناس-في أقوالنا الشائعة-أعداء ما جهلوا، فان ذلك ينطبق بصورة أخص على ناس الصين عبر كل العصور، الأمر الذي انسحب بطبيعة الحال على معتقدات الآخرين وأديانهم.

واندثرت المسيحية مرتين

وإذا كان محور الحديث حتى الآن عن الإسلام، باعتباره موضوع البحث أساسا، فان هذه الخلفيات ألقت بظلها على المسيحية أيضا، التي لم تكن أسعد حظا من الإسلام في تجربتها التاريخية مع الصين، بل أكاد أقول إن العكس هو الصحيح. فالدين المسيحي تعرض للاندثار مرتين في الصين

خلال القرون الماضية، ووجوده القائم الآن هو استمرار لثالث موجة من التبشير بالمسيحية، وهي التي قدمت إلى الصين في القرن السادس عشر الميلادي.

والمدونات الصينية القديمة تسجل أن المسيحية طرقت أبواب الصين في القرن الثامن الميلادي، أي بعد قرن من وصول الإسلام إلى تلك البلاد (مبعوث الخليفة عثمان بن عفان وصل إلى الصين في سنة 651 ميلادية). وقد سميت المسيحية لدى وصولها إلى الصين وقتئذ «دين النسطورية»، ولكنها لم تعش أكثر من ثلاثة قرون، ثم اندثرت مع مضي الزمن، ولم يعد للمسيحية وجود بعد ذلك، ولم يرد ذكرها في المدونات الصينية إلا في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي *

وتسجل تلك المدونات أنه في عصر أسرة يوان (1271- 1368) قدم إلى عاصمة الإمبراطورية خان بالق (بكين حاليا) المبشر الإيطالي منتي كورفينو، الذي كان من جماعة الفرنسيسكان (كان ذلك في عام 1294)، حيث قضى الرجل عدة سنوات يطوف بالعاصمة داعيا إلى المسيحية بين فقرائها. ولكن يبدو أن التوفيق لم يحالفه بقدر كاف، لان المدونات الصينية القديمة لا تأتي على ذكره أو ذكر اتباعه، الأمر الذي يشير إلى أنه حقق نتائج متواضعة، ما لبث إثرها أن اختفى من الصينية، واعتبر ذلك بمثابة «الاندثار الثاني» للمسيحية في الصين.

وتسجل المراجع الصينية أن الموجة الثالثة من التبشير بالمسيحية قدمت إلى الصين في أواخر القرن السادس عشر (أواخر عهد أسرة مينغ-1368-1644) عندما وصل إلى بكين المبشران متي ريتشي، ويوحنا آدم شال فون بل، وهما إيطاليان من اليسوعيين الكاثوليك. وكان وصول هذه البعثة إلى عاصمة الصين مقدمة لحملات مكثفة للتبشير بالمسيحية في الصين، وجزءا من الجهد الكبير الذي بذل في ذلك الحين، لاقتحام المسيحية لمعاقل البوذية في آسيا.

ورغم أن جهود المبشرين الإيطاليين لم تثمر بسرعة-وذلك أمر طبيعي-إلا أن البذرة التي أعادا غرسها في التربة الصينية استمرت إلى الآن. فقد أقيمت في سنة 1650 كنيسة كاثوليكية في مقر الأب متي ريتشي، مازالت باقية، باسم الكاتدرائية الكاثوليكية، وان ثبتت على بابها لوحة تحمل اسم

«الجمعية الوطنية للكاثوليك الصينيين» (أغلقت الكاتدرائية في بداية الثورة الثقافية عام 66، ثم فتحت للأجانب فقط عام 1971، ولم يتح للصينيين الكاثوليك دخولها إلا بعد وفاة الرئيس ماو وسقوط «عصابة الأربعة» في عام 76).

وهذه الموجة التبشرية الثالثة، هي التي نشرت المسيحية في مناطق التبت والمغول بصورة أساسية. وهي التي مهدت لانتشار البروتستانتية بقدر أقل في الصين، الأمر الذي أدى في النهاية إلى أن صار عدد الكاثوليك في بداية التحرير (عام 1949) حوالي 3 ملايين نسمة، والبروتستانت حوالي 700 ألف نسمة.

وقد سبقت الإشارة إلى الظروف الأخرى التي أحاطت بالمسيحية في الصين، وأهمها ارتباطها بالمبشرين والأجانب، الأمر الذي عزز شعور مقاومة تعاليمها، ضمن الموقف العام الرافض لكل ما هو أجنبي، خصوصا وأن المبشرين ارتبطوا بالدور المهين للشعب الصيني الذي لعبه الاستعمار في تاريخ تلك البلاد.

أما فيما يتعلق باليهودية، فقد ظل تاريخها مرتبطا بوجود وخروج الأجانب من الصين-كما قلت سابقا-ولم يقدر لبذورها أن تغرس في المجتمع الصيني، لا في التاريخ السابق ولا اللاحق.

جهل للمسلمين و«تصيين» للإسلام

نعم، إن تلك الخلفيات قد أثرت على موقف الصينيين من الأديان السماوية، لكني أضيف هنا خصوصية تتعلق بمسلمي الصين أنفسهم، أسهمت إلى حد كبير في تعزيز مسيرة الإسلام وتقليص فاعليته هناك.

ذلك أن القصور الشديد في فهم الدين، والتدني المستمر في الإلمام بمنطلقاته وتعاليمه أسهم إلى حد كبير في إساءة تقديم الإسلام في الصين وتعثر مسيرته بالتالي. وإذا قيل في حق الصيني العادي إنه بطبيعته ذو علم قليل وإدراك كبير، فان هذه المقولة تنسحب على المسلم الصيني، بصيغة أخرى، هي أنه ذو إيمان عميق ومعرفة ضحلة بدينه.

وهو موقف مبرر، لأن المسلمين الذين غرسوا بذرة الإسلام في التربة الصينية منذ 13 قرنا لم يرعوا ولم يكترثوا بالنبتة والشجرة التي نمت

كيفما اتفق، وأثمرت تلك الثمار التي نشهدها الآن، فضلا عن أن ظروف الصين الطبيعية والتاريخية والسياسية أقامت اكثر من حاجز حجب عن مسلمي الخارج رؤية الواقع الإسلامي هناك.

وعلى سبيل المثال فان فكرة الصينيين عن أن الأديان السماوية طريق للسعادة في الآخرة لا يمر بالدنيا، بل قد يكون على حسابها، مجرد استمرار هذه الفكرة يعني انهم لم يتح لهم بأي قدر أن يسمعوا-حتى في إطار الحوار الفكري والنظري-أدنى شيء عن الموقف الإسلامي الصحيح من قضية «سعادة الدارين» الدنيا والآخرة.

فمنطق إن الله استخلف الإنسان في الأرض، وسخر له الكون كله، ليعمره ويستمتع بحلاله وخيراته، ثم تذكيره سبحانه وتعالى للإنسان بألا ينسى نصيبه من الدنيا، ثم اعتبار العمل عبادة، و«الصالحات» هي كل خير وجهد إيجابي يزرع في هذه الدنيا فيثاب المرء عليه في الآخرة، والتوجهات التي لا حصر لها والتي تدعو المسلم إلى البناء والغرس إلى أن تقوم الساعة، وأن يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا، ولآخرته كأنه يموت غدا.. هذا كله، وغيره كثير، هو الرد الطبيعي على ذلك الاتهام الباطل الذي أصاب الإسلام، في جملة ما هو منسوب إلى الأديان السماوية.

ذلك فضلا عن أن الرفض الصيني لدور القديسين، وترحيبهم بالحكماء، هذا الموقف يتفق تماما مع التصور الإسلامي الصحيح، الذي يسقط فكرة منح القداسة لأي فرد عادي، مهما بلغت قيمته ومعرفته، إذ الكل سواسية كأسنان المشط، ولا فضل لإنسان كائنا من كان، على إنسان آخر، إلا بالتقوى في الآخرة، والعمل في الدنيا. أي أن المآخذ الأساسية الموجهة إلى الأديان في التفكير الصيني مردود عليها في الإسلام، وبعضا من تصوراتهم وحساباتهم لا تتناقض مع التصور الإسلامي، بل قد تتفق معه.

وهي «مصيبة»-ألاّ يعرف الصينيون العاديون ذلك عن الإسلام.

أما إذا كان المسلمون أنفسهم لا يعرفون، «فالمصيبة أعظم»، إذا استخدمنا كلمات بيت الشعر المشهور!

نعود الآن إلى سؤالنا: لماذا تعثرت خطى الإسلام في الصين رغم أنه وصل إلى تلك البلاد قبل 1300 عام؟

ليس لدى ما أضيفه إلى ما قلته في هذا الفصل، ردا على السؤال.

فقط قد ألخص الإجابة في كلمات محدودة. هناك حواجز طبيعية حالت دون انتشار الأديان السماوية كافة-والإسلام بينها-تتمثل في الموقف النفسي الصيني الرافض لفكرة الغيب وعالم ما وراء الطبيعة، بما في ذلك وجود الله سبحانه وتعالى، والرافض أيضا لأي فكر قادم من الخارج. وهو الموقف الذي ترجمه شعارهم الدائم «لا دين غريب في الصين».

ثم إن هناك حواجز مصنوعة، تتمثل في سياسة الحكومات المتعاقبة تجاه المسلمين، قبل التحرير وبعده وهي السياسة التي أدت إلى حصار المسلمين وقمعهم، كما أدت إلى عزلهم وتجهيلهم بدينهم.

لهذه الأسباب تعثرت خطى الإسلام في الصين ولم يتقدم كثيرا على أرضها طوال الثلاثة عشر قرنا الماضية.

على أن ما ينبغي أن نلاحظه في هذا الصدد أن الإسلام الذي عاش في الصين-حتى في ذلك النطاق المحدود-وضع أيضا في القالب الصيني العتيد. وأصابه ما أصاب البوذية القادمة من الهند، والماركسية التي نبتت في أوروبا الغربية وأثمرت في الاتحاد السوفيتي، وأعني بذلك «تصيين» الفكرة وتشكيلها على نحو يناسب البيئة المحلية. وذلك لا يعد فقط تعبيرا عن «عبقرية التجانس» و«قوة الامتصاص النادرة» التي تتمتع بها الصين، ولكنه يعد أيضا تطبيقا عمليا لشعار: لا دين غريب في الصين.

لقد مر بنا كيف أنه تم «تصيين» الأسماء الإسلامية، ثم كيف تحول الإسلام عند مسلمي الصين إلى مجموعة من الطقوس والرموز، التي تجسدت عند كثيرين منهم-قومية هوي بوجه أخص-في مجموعة من الأبنية والهياكل المحسوسة، مسجد ومطعم ومدفن. ولا أثر له يذكر خارج هذه الدوائر الثلاث، إلا في إطار التقاليد مثل الزواج والختان.

وتلك خطوات أخرى على طريق التصيين. فالمسجد هو «المعبد» عند الصينيين منذ الأزل، وان اختلف فيه «الهيكل» وبعض التفاعيل. وعندما بني على الطراز الصيني فلم يعد هناك فارق يذكر يميزه في أي مبنى أو منشأة صينية أخرى. والمطعم مسرح لممارسة «طقوس» الإسلام في تناول الطعام بالامتناع عن لحم الخنزير، ثم لا يمكن أن يحتل المدفن والرحلة إلى الآخرة هذا الاهتمام الزائد عن الحد عند مسلمي الصين، دون أن يكون للطقوس والتقاليد القديمة السائدة دور في ذلك.

وإذا كانت عبادة السلف وعظماء الرجال من أركان عقائد الصينيين القدامى، فإننا نجد في هذا السلوك تفسيرا لاهتمام المسلمين الملحوظ هناك سواء بالأضرحة، أو بإحياء ذكرى الميت في اليوم الثالث للوفاة، وبعد أسبوع، ثم بعد أسبوعين، وفي ذكرى الأربعين، وفي كل عام، ثم إحياء الذكرى على نطاق واسع في العام العاشر، وهو ما سبقت الإشارة إليه.

إن تعظيم الأموات على هذا النحو المبالغ فيه عند المسلمين هو في حقيقة الأمر شاهد لا يخطئ على عمق تأثير عقائد الصين القديمة على الصورة التي تشكل بها الإسلام في الصين.

ولا تخلو الكتابات التي تتناول عقائد الصين من ذكر ظاهرة انتشار القبور الكبيرة التي بنيت لعظماء الرجال في الأزمنة القديمة، حتى أعاقت شق الطرق وفلاحة الأرض. الأمر الذي مهد الطريق لقبول فكرة إقامة الأضرحة «للعظماء» من رجال الدين المسلمين، واستمرار هذه الظاهرة إلى الآن، وان تقلص حجمها.

إن اختصار الإسلام في هذه الطقوس والهياكل هو«التصيين» بعينه. وهي الصيغة التي بات بها الإسلام جزءا من المجتمع الدنيوي، ذي القيم الإيجابية والعملية، الذي يستخدم «الكف والصنعة» في كل شيء.

وربما كان هذا التشكيل هو الصيغة التي أمكن بواسطتها نفي صفة «الغربة» عن العقيدة الواردة، وإسقاط شعور العداء والرفض من حولها، الأمر الذي كان بمثابة شرط ضمني لمنح الإسلام سمة الدخول والإقامة في ذلك المجتمع المنغلق والفريد!

7 حتى يتغير التاريخ

هل تصبح خلاصة الكلام، أنه لا مستقبل للإسلام في الصين، فقلوب الناس مغلقة دونه، وأبواب النظام مرصدة في وجهه، والمسلمون هذا حالهم الذي لا يبشر بالخير؟

ثمة إيضاح واجب هنا، هو أن الحديث عن مستقبل للإسلام في الصين ينبغي أن لا يحمل معنى الدعوة إلى الإسلام هناك، فذلك فوق طاقتنا فضلا عن أنه شرف لسنا أهلا له، بل يجب أن يعالج هذا الموضوع من زاوية مستقبل المسلمين الموجوين فعلا، وهو مدخل قد يخدم في المدى البعيد الذين يأملون أو يحلمون بالدعوة إلى دين الله هناك. انطلاقا من فكرة أن أفضل سبيل للدعوة إلى الإسلام، هو أن يكون هناك مسلمون جيدون.

وردي على السؤال المطروح انه إذا استمر الحال على ما هو عليه الآن، فمصير الإسلام في الصين إلى الاندثار. سواء باختفاء مضمونه ومعانيه والإبقاء على مبانيه وحدها، أو بإعادة تشكيله على نحو مختلف تماما، ليصبح أي شيء إلا الإسلام الذي أنزله الله في كتابه، وبشر به نبيه بين الناس.

ولا ينبغي أن يحتج في مواجهة هذا الاحتمال بأن الإسلام موجود في الصين منذ 13 قرنا، وأن

استمراره هناك طوال هذه القرون يؤهله للبقاء قرونا أخرى، الأمر الذي قد تعد معه فكرة «الاندثار» تشاؤما لا مبرر له.

فهذا قول مردود بأن استمرار الإسلام في الصين خلال تلك الفترة الزمنية الطويلة لم يتم بقوة دفع ذاتي، وإنما تواصل الوجود الإسلامي لأسباب كانت تتوفر له بين الحين والآخر. وهذه الأسباب ضعفت في نصف القرن الأخير-وأكاد أقول انقطعت-سواء بتوقف إيفاد مبعوثين لدراسة الإسلام في الخارج، أو بإغلاق المعهد الوحيد الذي كان يعلم الدين لأبناء المسلمين، أو بحرق كتب المسلمين أثناء الثورة الثقافية، أو بإلغاء حروف القرآن الكريم من لغة اكبر تجمع إسلامي في الصين (لغة الويغور في مقاطعة سينكيانغ).

واستمرار هذه الأوضاع يعني انقطاع الأسباب التي يمكن أن تؤدي إلى استمرار مسيرة الإسلام في الصين، و يعني أيضا أن مصير الاندثار ليس بعيدا، وانه قد يتحقق في زمن آت. إذ لا فرق بين أن يصفى الوجود الإسلامي دفعة واحدة، كما حدث عندما طرد المسلمون من الأندلس وصقلية، وبين أن يصفى ذلك الوجود تدريجيا على مراحل. فالمصير واحد، والخلاف فقط في إخراج «الدراما»، وهل تتم الصفقة فورا أو بالتقسيط المريح!

إن مسألة الوجود الإسلامي في الصين هي القضية العاجلة والملحة. كيف يمكن أن يحال دون انقطاع أسباب استمراره، وكيف يمكن أن يصحح فهم المسلمين لدينهم؟ وكيف يمكن أن يتوفر لهم وضع صحي مستقر، يحميهم من تقلبات «خط الحزب»، وهو أمر وارد باستمرار؟.. هذه الأسئلة وأشباهها، هي ما ينبغي أن ننشغل به.

وأشدد على الصين دون غيرها من الدول الشيوعية، لأن ظروف المملمين هناك أسوأ كثيرا من ظروفهم في تلك الدول. وعلى سبيل المثال، فإننا إذا قارنا بين أوضاع المسلمين في كل من الصين والاتحاد السوفيتي فستكون المقارنة لصالح المسلمين السوفيت، الذين يعيشون في ظروف أفضل، برغم كل ما يمكن أن نضعه من تحفظات على الكيفية التي يعاملون بها وفرص الحركة المتاحة لهم.

أقول إن المسلمين السوفيت يعيشون في ظروف أفضل من إخوانهم في الصين لخمسة أسباب:

● **السبب الأول:** أن بحر البشر الذي يضم ألف مليون نسمة في الصين ساعد على طمس الوجود الإسلامي في تلك البلاد وابتلاع موجاته، على عكس الاتحاد السوفيتي حيث المحيط البشري أقل وفرصة (الضياع) أقل بالتالي. إذ أن المسلمين هناك 40 مليونا بين 262 مليون-حسب إحصاءات عام 79- أي أن بين كل ستة أو سبعة من السوفيت واحد مسلم على الأقل.

● **السبب الثاني:** أن عزلة الصين الطبيعية والسياسية حالت دون اتصال مسلمي الصين بغيرهم من مسلمي العالم، على عكس مسلمي الاتحاد السوفيتي الذين كانوا ينتمون إلى العالم الإسلامي حتى عهد قريب نسبيا. فجمهوريات وسط آسيا السوفيتية كانت حتى بداية القرن التاسع عشر هي بلاد ما وراء النهر المسلمة، التي استولت عليها روسيا القيصرية، ولا أحد يستطيع أن ينسى الدور البارز الذي لعبته كل من بخاري وسمرقند، كمنارتين للمعرفة الإسلامية.

● **السبب الثالث:** أن اكثر المسلمين السوفيت يعيشون في منطقة وسط آسيا، وتجمعاتهم الكثيفة متلاصقة في حزام يصعب اختراقه، فضلا عن أن تلك المنطقة مجاورة لدول إسلامية أخرى مثل أفغانستان وإيران، وهو ما ليس متوفرا لمسلمي الصين، الذين يعيش تجمعهم الأكبر في الغرب-سينكيانغ-محاطا بسياج محكم الإغلاق، بينما المسلمون الآخرون يعيشون في تجمعات وجيوب صغيرة متناثرة أقرب إلى «الجيتو» عند اليهود.

● **السبب الرابع:** إن انفتاح الاتحاد السوفيتي على المسلمين في العالم العربي سبق بحوالي 20 عاما انفتاح الصين على تلك المناطق، الأمر الذي دفع السوفيت في وقت مبكر إلى استباق الصين في ميدان مجاملة المسلمين، وتخفيف الضغوط عليهم، وفتح أبواب الدراسة والحج وتبادل الوفود والزيارات أمامهم، واشتراكهم في بعض الندوات والمؤتمرات التي تفتح أبوابها لهم.

● **السبب الخامس:** أنه حتى في أسوأ ظروف الانغلاق وتحدي المشاعر الدينية في الاتحاد السوفيتي فانه كانت هناك «قضية» ذات حجم كبير، على اعتبار أن الشعب الروسي هو في الأساس شعب مسيحي، والكنيسة الأرثوذكسية هناك لها وزن كبير-دعك عن تأييد الغرب لمسيحييها-أما في الصين فالأمر مختلف تماما، إذ أن 90٪ من السكان بغير دين، وما يمكن أن

تواجهه الأديان من تحديات أو صعوبات لا يشكل قضية ذات بال، ولا يصنف إلا باعتباره من مشاكل «الأقليات» التي يمكن تسويتها على مدى طويل أو تجاهلها، دون أن يسبب ذلك ردود فعل ضارة، وبسبب ذلك ضد ظل النظام السوفيتي مطالبا بحل مشكلة حرية الأديان بطريقة أو بأخرى، وهو يتعامل مع العالم الخارجي. بينما لم يكن هذا المطلب ملحا بنفس القدر فيما يتعلق بالصينيين.

المطلوب: حد أدنى من معرفة الإسلام

إن فتح الجسور بين العالم العربي والإسلامي وبين مسلمي الصين هو الخطوة الأولى والواجبة في السعي لبلوغ هذا الهدف. وفوق هذه الجسور يمكن أن تعبر البعثات الدراسية والكتب والحجاج والوفود التي تشارك في مختلف النشاطات الإسلامية من ندوات ومؤتمرات.

والجهد المطلوب لفتح هذه الجسور ينبغي أن يتم على الجانبين، الجانب العربي والإسلامي من ناحية، والجانب الصيني من ناحية أخرى.

ذلك أن هاجس الخوف من الشيوعية لا يزال يلقي بظله على تعامل البعض منا مع مسلمي الصين، ويشكل قيدا يحول دون إقامة هذه الصلات المرجوة على النحو المطلوب. وعلى سبيل المثال فانه إذا كان النظام الصيني قد أوقف بعثات الحج لعدد من السنوات، ثم استؤنفت تلك البعثات مؤخرا، إلا أن الضغط من أجل تقليص أعداد هؤلاء الحجاج-بالتضييق عليهم-هو موقف صادر عن الجانب العربي. وقد قال لي أحد شيوخ المسلمين الصينيين الذين أدوا فريضة الحج في عام 79، والحزن العميق يملأ عينيه، انه «مكتوب علينا فيا يبدو أن نواجه المتاعب حيث ذهبنا . نتحمل المشاق في الصين لأننا مسلمون. ونتحمل المشاق في الحج ونطارد بنظرات الاتهام لأننا قادمون من بلد شيوعي».

والذين يتابعون نشاطات المؤتمرات الإسلامية في العالم العربي، أو تلك المؤتمرات التي تعقد في الدول الإسلامية بدعم عربي، يحلمون بغير شك حجم الجهود التي تبذلها أطراف مختلفة لمنع تمثيل المسلمين الموجودين في الدول الشيوعية، حتى إن بعض تلك المؤتمرات يعلن عن دعوة وفود من تلك الدول، ثم يفاجأ المؤتمرون بسحب هذه الدعوات في هدوء ودون تعليل.

الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى حصار ملايين المسلمين في تلك الدول، وسد منافذ الاتصال بينهم وبين غيرهم من مسلمي العالم، لأسباب مهما كانت وجاهتها فإنها لا تعادل الثمن الباهظ الذي يدفعه المسلمون من جراء ذلك الحصار.

وثمة عنصر هنا يجب ألا نغفله، هو أن القوى الغربية الكبرى مازالت حريصة على توسيع الفجوة، أو الجفوة، بين العالم العربي والدول الشيوعية، ليس حماية للإسلام بكل تأكيد، ولكن حماية لمصالحها وحرصا على احتكار الجسور مع العالم الإسلامي والعربي. وهنا أذكر أن مفتي المسلمين في الاتحاد السوفيتي، بابا خانوف، زار منذ سنوات قليلة إحدى الدول الخليجية التي لم تتبادل التمثيل الدبلوماسي مع موسكو. وأقيم له حفل تكريم من إحدى الجهات الرسمية. فما كان من السفير البريطاني لدى تلك الدولة إلا أن قدم احتجاجا على هذا التصرف!

ومع ذلك فان القدر الأكبر من الجهد مطلوب على الجانب الصيني، الذي ينفتح الآن على العالم العربي بصورة أوسع، لأسباب سياسية أو اقتصادية كتلك التي سبق الحديث عنها، الأمر الذي يهيئ أرضية من التفاهم وحسن الظن تسمح بالاتفاق على منح دراسية لأبناء مسلمي الصين، أو توفير كتب المعرفة الأولية بالدين للمساجد وفروع الجمعية الإسلامية الصينية في مختلف المقاطعات أو إيفاد مبعوثين لإرشاد المسلمين وتصحيح مداركهم، وقراء يتلون على مسامعهم كتاب الله. وهم الذين انفجر ممثلوهم باكين عندما سمعوا بعض آيات القرآن الكريم لأول مرة بعد الثورة الثقافية في افتتاح مؤتمرهم الذي عقد في إبريل من عام 1980.

إن الحد الأدنى من المعرفة الصحيحة بالإسلام هو المطلوب، وهو حد شديد التواضع في درجات ممارسة الحرية الدينية، لا يجرح شعورا، ولا يمس سيادة، ولا يعتدي على سلطان الحزب وهيمنته.

وهو جهد تستطيع أن تسهم فيه الوفود العربية التي تروح وتجيء من بكين على مدار كل عام، كما يستطيع صندوق التضامن-المتفرع عن المؤتمر الإسلامي-أن يفعل الكثير في هذا الصدد، خصوصا وان اعتماداته في عام 1980 تجاوزت عشرين مليون دولار.

إن هناك الكثير مما يمكن أن يفعل لإنقاذ الإسلام من الاندثار في

الصين، لكن المشكلة الحقيقية-دعونا نتصارح-أنه لم يعد هناك من تشغله مثل هذه القضايا بشكل جاد إذا استثنينا بعض المبادرات. وإذا ذهبنا في المصارحة إلى مدى ابعد، فقد أقول أن بيننا من يهتم أحيانا بالمسلمين الذين يعيشون في تلك الدول الشيوعية بالقدر الذي يخدم مصالح وسياسات دول كبرى، لها دورها في الحرب الباردة المعلنة بين المعسكرين الشرقي والغربي!

إن الجهد متوفر، لكن القصور في الهمة. ومحنة مسلمي الصين لم تعد خافية معالمها على أحد، لكن السؤال هو من يمد يد العون لهم، وينتشلهم من ذلك المصير المحزن الذي يتهددهم؟

إن غيرة أفراد معدودين قد تزيدهم ثوابا عند الله، لكنها لن تغير شيئا من واقع مسلمي الصين. بينما تحرك ثقل سياسي واقتصادي لعدد محدود من الدول العربية ذات المصالح المتنامية مع بكين يستطيع أن يثمر الكثير، خصوصا وان المطلب متواضع للغاية كما ذكرت: أن يتاح لمسلمي الصين أن يعرفوا الله بعد إذ آمنوا به!

وهذا الذي يجري في الصين ينبغي أن ينبهنا إلى المأزق الحقيقي الذي يعيش فيه ملايين المسلمين في أطراف العالم الإسلامي، الذين يعانون من نقص فادح في المعرفة بالدين، إما لبعدهم عن العالم العربي، الذي لا يختلف على أهمية دوره في التوجيه الإسلامي وان تقاعس عن مسئولياته، وإما لظروف سياسية معينة يعيشون في ظلها، وإما لإهمال المؤسسات الثقافية الإسلامية في بلادنا وعدم اكتراثها بمسئولياتها تجاه هذه الجموع المسلمة.

إن الإسلام يتقلص في هذه المناطق النائية الآسيوية والإفريقية، و يشكل في قوالب وأشكال جديدة تختلط فيها البدع بالمعتقدات والتقاليد المحلية، حتى ليتبدى في صورة يقال لها الإسلام، وهي ليست من الإسلام في شيء.

وهو أمر مدهش وغريب حقا، أن يتوجه القدر المتاح في زماننا من النشاط الإسلامي إلى أوروبا والولايات المتحدة، حيث معاقل المسيحية واليهودية، ولا يلتفت بأي قدر لملايين المسلمين القابضين على الجمر حينا والجهل أحيانا، في أطراف القارتين الآسيوية والإفريقية.

إن الذين أزعجتهم نبوءة «أسلمت» الصين، لابد أنهم سعدوا عندما بلغهم نبأ «تصيين» الإسلام. واكثر ما أخشاه أن تتكرر في بقية البلاد الآسيوية والإفريقية قصة الإسلام في الصين وما انتهى إليه حاله فيها.

نعم إن كتاب الله يحفظه الله، وللإسلام رب يحميه، وتلك حماية مطلقة وباقية ما بقي الزمن. ولكن هذه الحماية المطلقة للإسلام تتحول فيما يتعلق بالمسلمين إلى حماية معلقة على شرط: أن يبادروا هم إلى التحرك بجدية في الاتجاه الصحيح. يتغيرون فيتغير التاريخ.

إن الله يدافع فقط-عن الذين آمنوا وجاهدوا وثابروا وصبروا وصابروا. أما القاعدون عيالا على الله فينبغي ألا ينتظروا من الله مددا. ولن يكون جزاؤهم إلا من جنس ما عملوا..

فالذين يزرعون الحصرم لا يحصدون إلا المر والعلقم..

فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره..

والله سبحانه «لا يغير ما بقوم، حتى يغيروا ما بأنفسهم»..

تلك كلمة الله للناس، التي لا تخطئ...

وذلك أيضا قانون الانتصار والتقدم في الأرض!

مصادر ومراجع مختارة

1- قصة الحضارة، ول ديورانت-الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية
2- مختصر تاريخ العرب في العصور الوسطى، عبد الرحمن ناجونغ، معهد اللغات في بكين.
3- الكامل في التاريخ، ابن الأثير.
4- مروج الذهب، المسعودي.
5- تاريخ الرسل والملوك، الطبري.
6- حاضر العالم الإسلامي، لوثروب ستودارد والأمير شكيب إرسلان.
7- رحلة ابن بطوطة.
8- من رحلات العرب، إصدار مؤسسة ناصر الثقافية.
9- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القلقشندي.
10- الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي.
11- طبقات الأمم، القاضي صاعد بن احمد الأندلسي.
12- الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد-ترجمة د. حسن إبراهيم و. عبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوي.
13- الأصول التاريخية للحضارة العربية الإسلامية في الشرق الأقصى، د. فيصل السامر.
14- العرب والملاحة في المحيط الهندي، د. جورج فاضل حوراني، ترجمة د. يعقوب بكر
15- بين أوروبا وآسيا، د. جمال حمدان.
16- نشار المحاضرة وإخبار المذاكرة، القاضي أبو علي المحسن التنوخي.
17- دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي.
18- دائرة المعارف الإسلامية.
19- دائرة المعارف البريطانية.
20- الإسلام في القرن العشرين، عاس محمود العقاد.
21- الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، محمد بن علي الشوكاني.
22- عمان وتاريخها البحري، الحكومة العمانية.
23- مجموعة وثائق المؤتمر الإسلامي الصيني الرابع، الجمعية الإسلامية الصينية في بكين.
24- الصين الشعبية، محمد عوده.
25- الصين المتحررة، مجموعة من الكتاب الصينيين.
26- مجموعة مجلة بناء الصين.
27- مجموعة مجلة الصين المصورة.

الهوامش

الفصل الاول

(1) حاضر العالم الإسلامي-الجزء الثاني من المجلد الأول-ص 219.
(2) جورج فاضلو حوراني-العرب والملاحة في المحيط الهندي-ترجمة د. يعقوب بكر-ص 219.
(3) ول ديورانت؛ قصة الحضارة-الجزء الرابع من المجلد الأول-الشرق الأقصى-الصين-ترجمة محمد بدران-ص 49.
(4)محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين-المجلد الخامس-ص 629.
(5) القلقشندي، صبح الاعشى ص 4- ص 308.
(6) عمان وتاريخها البحري-صادر عن الحكومة العمانية ص 33.
(7) سير توماس آرنولد، الدعوة إلى الإسلام-ترجمة د. حسن إبراهيم و د. عبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوي ص 332- نقلا عن تيرسان.
(8) من رجالات العرب-إصدار مؤسسة ناصر الثقافية ببيروت-ص 22.
(9) رحلة ابن بطوطة-634- دار صادر ودار بيروت ط 1960.
(10) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة-للقاضي أبو علي المحسن التنوخي المتوفى سنة 384 هـ-تحقيق عبود الشالجي جـ 3 ص 78.
(11) رحلة ابن بطوطة ص 631.
(12) ول ديورانت؛ قصة الحضارة-الصين، ص 21.
(13) من رحلات العرب، ص 35.
(14) د. جمال حمدان؛ بين أوروبا وآسيا-ص 112
(15) مجموعة وثائق المؤتمر الإسلامي الصيني الرابع-ص 16 إصدار الجمعية الإسلامية الصينية في بكين.
(16) ول ديورانت؛ قصة الحضارة-الصين-ترجمة محمد بدران ص 14.
(17)المصدر-السابق-ص 219.
(18)-عبد الرحمن ناجونغ-مختصر تاريخ العرب في العصور الوسطى. من مطبوعات معهد اللغات الأجنبية في بكين-ص 130، ط عام 1978- وانظر أيضا كتاب الدكتور فيصل السامر: الأصول التاريخية للحضارة العربية الإسلامية في الشرق الأقصى، ص 120.
(19) نفس المصدر.
(20) عباس محمود العقاد؛ الإسلام في القرن العشرين-الجزء الرابع من موسوعة العقاد الإسلامية، ص 599- دار الكتاب العربي-لبنان.
(21) الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة-لشيخ الإسلام محمد بن علي الشوكاني، ص 272.
(22) عبد الرحمن ناجونغ-مختصر تاريخ العرب، ص 130.
(23) د. فيصل السامر-الأصول التاريخية للحضارة العربية الإسلامية في الشرق الأقصى، ص 112.

(24) ابن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ 4 ص 167.
(25) توماس أر نولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة د. إبراهيم ود. عبد المجيد عابدين، ص 332.
(26) عبد الرحمن ناجونغ، مختصر تاريخ العرب، ص 130.
(27) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 5 ص 5
(28) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ 5 ص 270.
(29) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص 332.
(30) كورديه، مسلمو يونان-ص 8.
(31) عبد الرحمن ناجونغ، مختصر تاريخ العرب، ص 131.
(32) من بحث نشرته مجلة «بناء الصين» (يونيو 79) حول علاقات العرب والصين في عهد أسرة سونغ، كتبه تشوشاو، ص 67.
(33) المصدر السابق.
(34) من رحلات العرب، ص 54.
(35) من بحث نشرته مجلة «بناء الصين» (يونيو 1979) حول علاقات العرب والصين في عهد أسرة سونغ، كتبه تشوشاو، ص 67.
(36) من بحث جملة «بناء الصين» (يونيو 1979) حول علاقات العرب والصين في عهد أسرة سونغ.
(37) أقدم مساجد الصين، دراسة قامت بها وكالة أنباء الصين «شينخوا».
(38) تشيوانتشو: مرفأ الحضارات، مجلة بناء الصين، عدد مايو 79، ص 15.
(39) عبد الرحمن ناجونغ تاريخ العربي في العصور الوسطى، ص 133.
(40) نفس المصدر.
(41) مجلة تاريخ الطب، العدد الثامن-يونيو 1952، بكين.
(42) عمود لي هوان، الإسلام في الصين، بحث نشرته مجلة الصين المصورة، عدد واحد لسنة 1980.
(43) توماس أرنولد-الدعوة إلى الإسلام، ص 335.
(44) د. فيصل السامر، الأصول التاريخية للحضارة العربية الإسلامية في الشرق الأقصى، ص 125.
(45) محمد فريد وجدي-دائرة معارف القرن العشرين، المجلد الخامس، ص-617.
(46) ذكرها القلقشندي في صبح الأعشى. من كتاب الدكتور فيصل السامر: الأصول التاريخية للحضارة العربية الإسلامية في الشرق الأقصى، ص 125.
(47) عبد الرحمن ناجونغ-مختصر تاريخ العرب في العصور الوسطى، ص 134.
(48) سعد الله-شاعر من قومية خوى-يحيى لين سونغ، مجلة بناء الصين-عدد مايو 80.
(49) لوثروب ستودارد والأمير شكيب إرسلان-حاضر العالم الإسلامي جـ-2- المجلد الأول، ص 230.
(50) من رحلات العرب، إصدار مؤسسة ناصر الثقافية، ص 22، ص 47.
(51) نفس المصدر.
(52) رحلة ابن بطوطة، الصفحات من 530 إلى 646.
(53) عبد الرحمن ناجونغ؛ مختصر تاريخ العرب في العصور الوسطى، ص 135.
(54) نفس المصدر.

(55) من دراسة لم تنشر لباحث صيني مسلم طلب عدم الإشارة إلى اسمه إلا بحرفي (ل. هـ).

(56) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص 345.

(57) المصدر السابق ص 346.

(58) من دراسة الباحث الصيني المسلم (ل. هـ.)

(59) توماس ارنولد؛ الدعوة إلى الإسلام، ص 337.

(60) المصدر السابق، ص 338, 339.

(61) المصدر السابق.

(62) حاضر العالم الإسلام ي-جـ 2- المجلد الأول 236.

(63) المصدر السابق-ص 256.

(64) الدعوة إلى الإسلام-ص 344.

(65) في مقال للمبعوث الصيني إلى الأزهر الأستاذ محمد مكين، حاضر العالم الإسلامي، 271.

(66) محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، ص 618.

(67) محمد عودة-الصين الشعبية، ص 158- دار النديم، القاهرة.

(68) حاضر العالم الإسلامي، ص 240.

(69) حاضر العالم الإسلامي، ص 238 و 240.

(70) نفس المصدر.

الفصل الثاني

(1) حاضر العالم الإسلامي، ص 276.

(2) نفس المصدر.

(3) حاضر العالم الإسلامي، ص 279.

(4) من الدراسة غير المنشورة للباحث الصيني المسلم (ل. هـ).

(5) نفس المصدر.

(6) الصين المتحررة-ص 135- صدر في بكين عام 1956.

(7) المصدر السابق-ص 135.

(8) محمد عوده، الصين الشعبية، ص 158.

(9) المصدر السابق-ص 159.

(10) محمود لي هوان-المسلمون في الصين، مجلة الصين المصورة عدد واحد لسنة 1980.

(11) محمد عودة؛ الصين الشعبية، ص 43.

(12) من الدراسة غير المنشورة للباحث الصيني المسلم (ل. هـ).

(13) نفس المصدر.

الفصل الثالث

(1) ول ديو رانت، قصة الحضارة-الصين، ص 148.

الفصل السادس

(1) أبو حيان التوحيدي؛ الإمتاع والمؤانسة، جـ1. ص 71، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين.
(2) القاضي أبو القاسم، صاعد بن احمد الأندلسي، طبقات الأمم، ص 10- ط السعادة
(3) المسعودي، مروج الذهب، جـ 1- ص 165.
(4) رحلة ابن بطوطة، ص 630.
(4) محمد فريد وجدي؛ دائرة معارف القرن العشرين، ص 601.
(5) ول ديورانت؛ قصة الحضارة، الصين-ص 52.
(6) ول ديورانت، قصة الحضارة، ص 10.
(7) المرجع السابق، ص 281.
(8) المرجع السابق ص 11.
(9) د. جمال حمدان-بين أوروبا وآسيا-ص 130.
(10، 11) ول ديورانت، قصة الحضارة، الصين.
(12) د. جمال حمدان-بين أوروبا وآسيا ص 144
(13) ول ديورانت، قصة الحضارة، الصين-صفحتا 37 و 52.
(14) ول ديورانت؛ قصة الحضارة-الصين-ترجمة محمد بدران
(15) المرجع السابق-ص 53.
(16) الأديان في الصين، مقال كتبه تشاو كوانغ وياالأجانبمجلة بناء الصين-عدد مايو 1980.

المؤلف في سطور

فهمي هويدي

- من مواليد عام 1937.
- تخرج في كلية الحقوق بجامعة القاهرة عام 1960.
- التحق بقسم الأبحاث في جريدة «الأهرام» القاهرية منذ عام 1958.
- قضى في الأهرام 18 عاما تدرج خلالها في مواقع العمل إلى أن صار سكرتيرا لتحرير الجريدة.
- انضم منذ 1976 إلى أسرة مجلة «العربي» الكويتية، واصبح مديرا لتحريرها.
- تخصص منذ عشر سنوات في معالجة الشئون الإسلامية. حيث شارك في اكثر ندوات ومؤتمرات الحوار الإسلامي، وقام بزيارات عمل ميدانية لمختلف بلدان العالم الإسلامي في آسيا وأفريقيا، وتولى التعريف بها في سلسلة استطلاعات مجلة العربي.

من مؤلفاته:

- حدث في أفغانستان.
- القرآن والسلطان-هموم إسلامية معاصرة.
- تحت الطبع: مواطنون لا نميون.



اتجاهات نظرية في علم الاجتماع

تأليف:

د. عبد الباسط عبدالمعطي